

الإدباب

«محررو»
لبنان الجدد



AL ADAB 2005

العدد ٧/٦ حزيران (يونيو) - تموز (يوليو) ٢٠٠٥ - السنة ٥٣

Al-Adab vol. 53 # 6-7/2005

www.adabmag.com

رفضاً للتمويل الاجنبي . السلاميون العرب . إرث ياسر عرفات . حوار مع هادي دانيال . الحركة الشيوعية العربية (٥)



وآفاق التغيير في مصر

مربع نور: المثليون في لبنان حملوا علمهم!



رواية

موسى ولد ابنو حجّ الفجار

دار الآداب

هذه الرواية، التي تدور أحداثها في موسم الحجّ من سنة ثلاث وخمسين بعد عام الفيل، هي الأولى من ثلاثة تتناول موضوع الحجّ عبر العصور، بدءاً من العصر الجاهلي وحتى سنة ثلاث وخمسين بعد الحادي عشر من سبتمبر. ومن بين شخصيات هذا الجزء الأول الشاعر لييد، والمؤسس مُهَنَّد، وهاذر شيطان النابغة، وأسماء العلوية - أجمل امرأة في العالم...
د. موسى ولد ابنو من مواليد موريتانيا عام ١٩٥٦، حاصل على دكتوراه فلسفة من جامعة السوربون، وأستاذ فلسفة في جامعة نواكشوط. صدرت له روايتان عن دار الآداب: مدينة الرياح، والحب للمستحيل.

عزائنا

ليس لزاماً أن يحب المرء سمير قصير أو جورج حاوي، أو أن يكون عضواً في «حركة اليسار الديمقراطي» أو الحزب الشيوعي، لكي يذرف الدمع أمام سيارتيهما المتفجرتين في الأشرفية ووطى المصيبة.

لو سألتني أحدٌ لأجبتُ بأنني لم أكن أحب كثيراً ما كان يكتبه الشهيد سمير قصير في جريدة النهار، ولكنني كنتُ معجباً بجرأته غير العادية. ومع ذلك، فقد كان يُعطيني أن تقتصر جرائته على انتقاد البعث في سورية والعراق، وعلى انتقاد بعض أطراف الحكم والمعارضة في لبنان دون غيرهم من يستحق الانتقاد بل والتفريع. فالحال أن جرأة قصير غير العادية لم تتناول، للأسف، أو لم تتناول بالحدة نفسها في أحسن الأحوال، قاصعين عرباً آخرين أمثال المترعن على أنظمة الخليج، ولا أصحاب التسيويات اغتداعه كقادة أولسو، ولا الشخصيات اللبنانية العامة المعجونة بالعنصرية والطائفية والتفوقية كيعض «زملاء» في جريدة النهار. هناك أولويات، يقول البعض؟ حسناً، ولكن لم تكن الأولوية لنقد مهدي دخل الله وفاروق الشرع وبعث العراق وحزب الله وحماس والنائب السابق ناصر قنديل، ولا تكون لنقد قرنة شهوان وياسر عرفات وجورج بوش الصغير وخادم الحرمين والسياسة الحزبية والاشتراكية والجنبلاطية والنائب المنتخب جبران تويني؟ ولماذا أصلاً يرتضي المقفرون منطق «الأولويات» إن كان ثمة أكثر من طرف يستحق كراماتنا ويتناوب على هزيمتنا وتهيمشنا إلى الأبد؟

غير أنني، رغم ذلك، كنتُ أنتظر يوم الجمعة لأقرأ النهار، وغالباً لأقرأ زاوية فقط. كنتُ أستمع بأناقته في التعبير التي تُشبه أناقة مظهره، وأستمع بسخريته المرة، ويتميزه القاطع دوماً بين النظام المنتقد والشعب الخاضع له. أستمع بذلك كله، ثم أغضب لأن سمير قصير لا يرى، أو لا يريد أن يرى، الخطايا التي يرتكبها آخرون، حتى صار يُهجن بالبعث وحزب الله. أستمع ثم أغضب، فأعد نفسي - كل جمعة - بالآزعجها بعد اليوم بقراءة مقالاته. لكن حين يحل الجمعة، أتسلل إلى رف الجرائد في المقهى أو النادي الرياضي، فأقرأ خفية عن نفسي مخافة أن اضبطها «متلبسة» بالكراهة المغرية... لكن غير الكاملة. واليوم، اليوم فقط، أدرك أن جزءاً من مشروعي، الذي أسميته «العروبة الجديدة» قبل أعوام، لا بد أن يكون قد تأثر - ولو عن غير وعيٍ منا - بكتابات وأحاديث وخطب سمير قصير، وإن بالجماليات مغايرة بعض الشيء: أكثر يسارية (أي أقل «ليبرالية»)، وأعمق اهتماماً بـ «الإنثيات» داخل الوطن العربي، وأشدّ إشغالاً بهموم دول المغرب العربي (كتاب جريدة النهار الأساسيون، بالخاصة، وعلى رأسهم المطران جورج خضر، يؤثرون التركيز على «المشرق العربي»)، وأوسع ارتباطاً بالخرجات الجندرية المناهضة للعملة الرأسمالية، وأقوى إصراراً على توسيع النقد ليشمل جميع الأنظمة العربية؛ كل ذلك دون التحلي عن هدف تحرير كامل فلسطين، من النهر إلى البحر، مهما طال الزمان، أو بدا ذلك غير «واقعي» اليوم.

أما جورج حاوي فكان (كان؟) يبهرننا بحضوره القوي، وأطلاعه الواسع؛ وقد لا يكون من المبالغة القول إنه - مع عزمي بشارة - أوسع سياسيي الوطن العربي ثقافة. «مدرسة فكرية» هو أبو أنيس، بالمعنى البسيط الراسخ: ديانة من الشواهد التاريخية والاستشهادات الشعرية، وجيش من الفلاسفة والقادة والأدباء، يُقرَف عليهم بريق من الذكاء وسرعة البديهة والنكتة الحاضرة. مكثر كان أبو أنيس بالشحم والحلم والعلم والخبرة والقيادة والظرف والديالككتيك. وآه من الديالككتيك الذي كثيراً ما كان يستخدمه الشهيد أبو أنيس لطباق بين أمرين لا يمكن أن «يركبنا» على قوسٍ فَرَح (الفتنة ص ١١٢)

مَحَلَّةُ نَافَاةٍ صَوْبُهَا

AL ADAB 2005

صاحباہا: سہیل ادریس و سماح ادریس

المعد ٧/٦ حزيران (يونيو) - تموز (يوليو) ٢٠٠٥ - السنة ٥٢

Al - Adab vol. 53 # 6-7/2005

Editor: Samah Idriss

Subscription Manager: Kirsten Scheid Idriss

Owners: Souheil Idriss & Samah Idriss

رئيس التحرير

سمیاح ادریس

المؤاسلون

عبد الحق لبيض (المغرب)

محمد جمال ياروت (سوريا)

أحمد الخنيس، (مصدر)

مديرة الاشتراكات والأرشيف

کے بہترین شاگرد

المقدمة المسبقة

عائدة مطرجي إدريس

مصمم الغلاف الأول والأخير

حاتم امام

مصمم الغلاف الثاني والثالث

ويعلم الحندي

لَوْغُو الْغُلَافِ

دین شاہین

إخراج

میشلین خوری

حاتم إمام

الطباعة

Dar Al Kotob

العنوان: ص.ب ٤١٢٣، بيروت، لبنان.

تلفون/فاکس: ۸۶۱۶۳۳ (۱) (۰۰۹۶۱)

(1) 790135

Address: P.O.Box: 11-4123, 1107 2150, Beirut, Lebanon.

Tel: 00961 -1 -795 135

Fax: 00961 - 1 - 861 633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

kidriss@cyberia.net.lb

الاشتراك السنوي لعام ٢٠٠٥

ألبان: ٣٠ دولار أمريكي (للأفراد) و ٦٠ دولار (للمؤسسات). البلدان العربية (بإستثناء دول المغرب العربي): ١٥ دولار (للأفراد) و ٩٠ دولار (للمؤسسات). أوروبا وأفريقيا وبلدان المغرب العربي: ٥٥ دولار (للأفراد) و ٩٥ دولار (للمؤسسات). بقية الدول: ٧٠ دولار (للأفراد) و ١١٠ دولارات (للمؤسسات).

تُرسل اشتراكات المؤسسات بالبريد المضمون لا غير، وأما اشتراكات الأفراد هـا البريد العادي (وتضاف عليها ١٥ دولاراً عند الرغبة في البريد المضمون).

تُدفع الاشتراكات مقدماً؛ (أ) إما بشكل لأمر مجلة الأرباب معسوبي على أحد المصارف العربية، وإما (ب) بتحويل مالي لحساب دار الأدباء رقم ٣ - ٨١٠ - ٧٦٢٥٩٦ - ١٠٣٣٨ بالبنوك العربية.

ملاحظة: هذه النسخة صالحة للبيع للأفراد فقط، وعلى المؤسسات العلمية اللبنانية والعربية الراغبة في اقتنائها الاشتراك السنوي الخاص من دار الآداب. الأسعار أدناه مخصصة للأفراد، وهي للبنان العربية وحدها، وعند زمن عرضها في الأكشاك. ولا يحق إلا لدار الآداب بيع هذا العدد بعد سحبه من الأسواق العربية، وبالسعر الذي توثقه.

Subscription rates 2005

Lebanon: 30 USD (ind.), 60 USD (inst.). Arab Countries (except Morocco, Libya, Algeria & Tunisia): 45 USD (ind.) & 90 USD (inst.). Europe & Africa (including Morocco, Libya...): 55 USD (ind.) & 95 USD (inst.). All Other Countries: 70 USD (ind.) & 110 USD (inst.)

Note: All institutional subscriptions include registered air mail fees. All individual ones include regular mail fees; please add 15 USD to get your individual subscription through registered mail.

Payment can be made by money order or check made out to Dar al-Adab, credit card, or bank transfer (Arab Bank, Verdun Branch, Beirut, Lebanon, #338 - 763706 - 810 - 3).

Note: Institutions may subscribe to al-Adab only through Dar al-Adab or an authorized dealer (Otto Harrassowitz, Swets, Blackwell's, Faxon, or Ebsco). The prices listed below are discounted prices valid only for individuals in listed Arab countries, and at the time of stand display. This copy may not be sold as a back issue by any seller but Dar al-Adab. After display time expires, price is subject to change without notice.

ثمن النسخة من هذا العدد (الأسعار صالحة لسنة ٢٠٠٥ فقط)

لبنان ٥٠٠٠ ل.ل. - سوريا ١٠٠ ل.ح. - مصر ٧ جنيهات - المغرب ٢٥ درهما - تونس ٣٠٠
 لليم - الأردن ٢٥٠٠ فلس - البحرين ٢٠٠٠ فلس - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١٥٠٠ فلس.



الافتتاحية

- ١ عزازلة... سماح إدريس

الأبحاث

- ٤ دفاعاً عن النقد... ناصر الرباط
٨ هي أبجدية الرموز الثقافية... محمود الخواصي
١٣ الانقلاب الثقافي والسياسي... منير شفيق
١٦ المسلمون العرب الجدد... فيصل القاسم
١٩ رفضاً للتحويل الأجنبي للنشاط الأهلي... هاجر الصباغي وأشرف البيومي
٢٣ مآل الحركة الناصرية السورية... علي العبد الله
٢٨ إرث ياسر عرفات... همام أبو غزالة
٣٥ الأرقام الهندية... شريف يحيى الأمين

الحدث

- ٤٩ محرقو لبنان الجدد، ميشال عون واللوبي اللبناني - الأميركي... سماح إدريس

حوار

- ٥٩ حوار مع الشاعر السوري هادي دنالال... علوية كمال الرياضي

القصاصات

- ٣٨ ميثاق... اسمه الشعر... عماد فؤاد
٤٠ قصائد من العراق... ساسي مهدي
٤٤ أسرار حروف أحمد ياسين... هنان الرحال

اللف

- ٦٧ كفالة، وأفاق التغيير في مصر... علف من إهداء أحمد الصبيح
٦٨ المعارضة المصرية ومفهوم التغيير... أ. خ.
٧٣ كفالة، الميلاد والسنن... الوعد والمخاطر... أحمد بهاء الدين شعبان
٨٠ اختزال مطالب التغيير... أحمد عبد الرحمن

سلسلة

- ١٠٤ الحركة الشيوعية العربية، الواقع والمآل (٥)... نايف سنوم

دراسة أدبية

- ١٠١ في نقد النقد، من الضبابية إلى تلمس النور... طارق موسى

يوميات

- ٩٦ يوميات عجل لعاشق منفى... أحمد علي

القصص

- ٨٥ مربع نور... مارك حداد

مناقشات

- ١٠٧ الذاكرة المفقودة، من اختراع فلسطين إلى اكتشاف لبنان... هشام البستاني
١١٠ مقتل هرج الله الحلو، هل نحن من فتح الجراح؟... رجاء الناصر

دفاعاً عن النقد

نداء إلى النقاد العرب

ناصر الرياط *

الحياة العربية المعاصرة، في رأيي، بحاجة ماسّة إلى النقد في كلّ مناحيها. والمجتمعات العربية المعاصرة بحاجة إلى الخروج من أزمة الخوف من النقد التي وُثِّمت الحياة الثقافية والسياسية بيمس خانق جعل من كلّ نقدر مُروّفاً، ومن كلّ ناقص خائن أو متاجراً أو عابثاً أو كافراً يستحقّ الهجاء على المنابر وما هو أشدّ منه: من قطع عيش، أو تشريد، أو سجن، أو اغتيال. لكنّ النقد، بدايةً، ليس معادلاً للذمّ والتجريح والرفض فقط. ولا هو بالردّ السهل والانفعالي على مواقف وتصريحات وكتابات، أو عادات وتقاليد وتصرفات، خدّشت حساسية الناقد أو صمّمت معتقداته وأراهه. بل هو، أولاً وقبل كلّ شيء، محاولة للغوص بالفهم إلى أعماق من السطح ومن التفسير المبسّط والمتاح أو المصور والمبطن. إنّه استغناءٌ للمقاصد والأغراض وراء أيّ نوع من أنواع التعبير؛ استغناءٌ لا يقف عند حدود مرسومة بل يذهب في سعيه للشرح أو التفتيش في كلّ اتجاه، ويجدّ في سبيل الوصول إلى فهم أفضل كلّ أدق من أدوات المعرفة. وهو، في هذا السعي، لا بدّ من أن تصطلم أحياناً بالحدود التي تحظر حرية الفكر والتفكير، مع ما لبعض هذه الحدود هالة رُسنتها مصالح أطراف، بشتّى أو

وهي مواقف تخالف أبسط قواعد حقوق الإنسان والعدل التي يركّز عليها كافّة المعلنين الغربيين عند تناولهم أوضاع العالم العربي بالشدّ الشديد ويتناسونها عندما يصل تعليلهم إلى إسرائيل وسوء معاملتها للمواطنين الفلسطينيين الواقعين تحت احتلالها العسكري أو ضريبها عرض الصائط بكلّ قرارات الشرعية الدولية ومحكمة العدل الدولية. سوف بال تأكيد محقّ في ما قالت عن المواقف الغربية من العرب عمومًا والفلسطينيين خصوصًا. وهي بالتأكيد لم تُرّ عن نقد أوضاع العالم العربي خوفاً أو مداراةً. وكلّنا يقرّ مدى لاذعة نقدها الجنسي والاجتماعي من خلال رواياتها، ولاسيما روايتها الأولى *In the Eye of the Sun* التي تُضخخ بالتفاصيل الصميّة إلى درجة الاشتباه بكرنها سيرة ذاتية. ولكنّ ما قالت سوف في البرنامج، وتليد كلّ من مقمّ البرنامج خالد الحروب والمشارك أجد ناصر لفسواه، يذمّني إلى الإنذال بملوي في هذه المشكلة العويصة التي تواجه المأكّرين العرب اليوم، وبخاصّة أولئك الذين يعيشون خارج الوطن العربي، وإنّ كان كثيرون منهم يحضون في قلوبهم وعقولهم محبة وطن النشأة والتماهي معه في اقراحه وأتراحه.

في ضرورة النقد

ضمن نقاش كتاب جدير للكتابة المصرية الرائعة أهداف سوف (قناة الجزيرة، ٢٠ شباط ٢٠٠٥)، لفت نظري رأيها في حدود النقد أمام الفكر العربي في هذه الأيام، وبخاصّة ذلك الذي يعيش ويُنقذ في الغرب. فعلى عكس الوضع السائد في الثقافات الغربية حيث يُمكن نقد أكثر المظاهر الاجتماعية سلبياً (مثل استغلال الأطفال جنسياً) من دون أن يؤثّر ذلك إلى إدانة شاملة للثقافة، فإنّ أيّ نقد لمظاهر سلبية في الثقافة العربية اليوم سيُستخدم، كما قالت سوف، من قِبل المترصّين بهذه الثقافة من المعلنين الغربيين من أجل نعت الثقافة العربية كلّ بالتخلف والوحشية. وعليه، فقد قرّرت سوف، بطريقة فيها الكثير من الواقعية والبراماتية، الابتعاد عن نقد الوضعين السياسي والاجتماعي في العالم العربي، وركّزت في كتابها الأخير *Mezzaterra: Fragments from the Common Ground* على ما هو أكثر جرأة وضاطرة بالنسبة إلى الفكرة العربية المغتربة، ولاسيما التي تُكتب باللغات الغربية كمسويق نفسها: نقد المواقف الغربية من القضية الفلسطينية واللامبالية بمعاناة الشعب الفلسطيني منذ أكثر من نصف قرن.

* استاذ الآغا خان للعمارة الإسلامية، معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (MIT).

الخطر المحدق بشعوبنا هو في
الاستكانة للفكر الشمولي السائد، لا
في الصراعات الفكرية

تراكم اعتقادات وعادات اجتماعية اكتسبت أحياناً قوة الشبث والبقاء، وعلى الرغم من أن النقد بطبيعته يكره المحظورات ويحاول تخطئها، فإنه لا يفعل ذلك غياً أو استعلاءً أو استجلاباً للعداوة والنقمة، بل يحاول سبر كل التفسيرات المتاحة من أجل اختيار أقربها إلى المنطق واكثرها استجابة لمعطيات الوضع قيد الدراسة والتحليل كما يفهمها الناقد الذي يقر بالضرورة بأن نقده مفتوح للنقد بدوره، على ما يُسبب إلى الإمام الشافعي الذي وازى بين رايه والراي الآخر من حيث قابليتهما كليهما للصواب والخطأ.

درجات النقد

للقند درجات تتراوح بين الأدنى والمحدود، إلى التعمق والشامل. فالنقد قد يكون على شكل رد فعل مباشر، وأحياناً انفعالي، على ما يجابهه المرء في حياته. وكثلاً في هذه الدرجة ناقد فسر مثلاً لم يعلق على ما يراه خطأ بصفه أو حق غيره؛ كان يعلق على رداءة خدمة عامّة، أو يستجيب استحياساً أو استهجاناً لخطاب سيعه أو كتاب قراه أو برنامج تلفزيوني أو فيلم شاهده. ولا أظن أن أي عاقل سيحضر على الفرد بهذا الحق في النقد؛ فهو محصل في مفاصل الانتماء، حيث يشارك الفرد في ما يجري من حوله وفي الفضاءات الإبداعية والتفريؤية والاقتراضية التي

تقرض فضاءه وتحاول الاستحواذ على انتباهه لأغراض شتى - بعضها بريء وبعضها أقل براءة. وهذا النقد أيضاً لصمة إنسانية جامعة إذ يتبادل المرء مع من حوله الراي، ويتشجع خيوطاً من القبول والرفض أو المشاركة والمخالفة مع محيطه الاجتماعي: من أصغر دوائر، أي العلاقات الفردية والأسرية، كأن يُعجب بأغنية يستمع إليها مع صديق أو حبيب ويقرّطها، إلى أوسعها وأقلها حميمية، كأن يتشمر من تلخر الباص أمام الغرياء الذين يشاركونه الانتظار. كل هذه الأمثلة تُبين أن النقد بطبيعته جزء من الحياة اليومية للعادية، وأننا نمارسه باستمرار من دون كثير تكلف وحساب للعواقب - إن كانت هناك عواقب أصلاً.

الدرجتان الأخريان في النقد أكثر تخصصاً وأقل عفوية من النقد المباشر. وهما متداخلتان في بعض الأحيان لتتطلبهما إعمال النظر والتفوي في الاستجابة وإبداء الراي، ولكن الفصل بينهما ضروري ومهم جداً.

النوع الأول من النقد التقريبي يتبع من حق كل فرد في النقد الخاص والعام، للأوضاع من حوله. ذلك أن إبداء الراي دليل على انتماء هذا الفرد وتفاعله مع ما يجري حوله من جهة، وحق له بحكم انتمائه إلى تلك المحيط الأوسع - سواء أكان أسرة أم قبيلة أم حياً أم دولة أم

الجنس البشري بشامه من جهة أخرى. ولكن هذا الحق ليس مكتسباً بشكل غريزي أو طبيعي، وإنما يجب على المجتمعات الحية أن تكافح وتضحي في سبيل الحصول عليه. وعليها كذلك صوته بعد الحصول عليه، وذلك من خلال مجسه في الدساتير والقوانين وإدراجه في مختلف المقررات الدراسية، لكي يُشأ الفرد على معرفته والاعتزاز به والدفاع عنه في مواجهة القوى التي تُرم القضاء عليه. هذه القوى المعادية للنقد كثيرة ومتنوعة ولكنها طبقية الأصل، أي أنها تنشأ عادةً بحكم اختلال التوازن الاقتصادي بين الأفراد أو الطبقات في كل مجتمع. وهذه القوى هي المساندة في غالبية الفترات التاريخية لكل المجتمعات الإنسانية، ومازالت للأسف هي الغالبة في العديد من دول العالم. كما هو الحال في المجتمعات العربية من دون استثناء يُمكن. بل إنها على صعد في مجتمعات أخرى ظلت أنها وَجَدَتْ حلولاً للنزاعات الطبيعية وعدم التكافؤ الاقتصادي، عن طريق إقامة أنظمة الضمان الاجتماعي للحفاظ على الحدود الدنيا من الدخل المقبول لكل أفراد المجتمع، فإذا بنا الآن - حتى في الولايات المتحدة - في خضم صراع يُهدف إلى تفكيك أسس نظام الضمان الاجتماعي نفسه، يقوده الجمهوريون المحافظون مستغلين غطاء «مكافحة الإرهاب».



لو كانت القوى العالمية تُرغب فعلاً في مساعدة شعوبنا على اكتساب حرياتها، فلم انتظرت كل هذه السنين؟

الملاحظات العامة؟ وكيف يُمكننا أن نفسّر تقاعس النقد أو إقصائه عن أداء دوره الريادي في المجتمع، وهما تقاعسٌ وإقصاءٌ تزداد حدتهما على الرغم من كل الجمعية عن ضرورة ديمقراطية العالم العربي؟

لعلّ الجواب الأعم هو سيطرة الفكر الشمولي على المنظومات الفكرية والدينية والسياسية المتصارعة في العالم العربي اليوم، والتي تتشارك في عدم تقبلها للنقد. فمن ضمن إطار المرجعية المعرفية ذلك الفكر، لا مجال لمساءلة وتحدي أنظمة المجتمع السائد، أو لتحليل بدائل لها والسعي إلى تحقيق هذه البدائل والتعبير عن ذلك بكافة الوسائل التعبيرية المتاحة - من فنّ وعلم وأدب وفكر ومقيدة وسياسة وغيرها. وهذا هو خلاصة ما يحدث اليوم في العالم العربي، فالأنظمة العربية الحالية ديكتاتوريةٌ بجمعها. وهي، على الرغم من حداثة الظاهريّة أحياناً، لا يُمكنها الاعتراف بحقّ النقد، لا لأنّه قد يتحدى ادّعاءات شرعيّتها فقط، بل لأنّه يعارض أطرها الإيديولوجية التي تعتمدها في تبرير وجودها وقراراتها أصلاً. ولو أنّها أرادت إدراج النقد ضمن منظومتها الفكرية فإنّها ستُضطرّ إلى تغيير أسسها المعرفية واليقينية تغييراً جذرياً، والتخلّي من ثم عن امتيازاتها المكتسبة

القرن الثامن عشر. ولكنّ هذا التخصص لا يُمكن أن يكون احتكاريّاً أو متشددّاً في حالة النقد كما في الطبّ والهندسة مثلاً، لأسباب ثلاثة على الأقل. الأول هو أنّ النقد حالة إنسانية مشتركة، وكلّنا - كما أسلفنا - ناقد. الثاني هو أنّ تعلم النقد مازال على الغالب فرديّاً، على الرغم من نشوء بعض الفروع الجامعية التي تُدرّس بعضاً من أنواع النقد وتضع لها قواعداً منهجيّة. والثالث، والأهم، هو أنّ للنقد وظائف سياسية واجتماعيّة ومعرفيّة، بل ومُصلّيّة في إنكاش الخطاب الثقافي في أيّ مجتمع، وفي الإبقاء على الحوار وسيلة أولى للتواصل في المجتمع بين الأفراد الذين يُصّلون آراءً مختلفةً وأحياناً متعارضة. ومن ثم فإنّ حدود النقد التخصص، خلافاً لحدود مهنة أخرى، بحاجة إلى أن تبقى في أغلب الأحوال حدوداً مفتوحة. الأمر الذي يؤدّي أحياناً إلى اختراقها من قبل بعض مدعي النقد. ومع ذلك فإنّ الضرر الذي يسبّبه هؤلاء الجهلاء أقلّ خطراً بكثير من السكوت والجسود والانكماش الناشئة جرّاء أيّ محاولة تعسفية لتشييد حدود التخصص في النقد وحصره بمن حاز مؤهلات معينة فقط.

النقد في العالم العربي

كيف يُمكننا تقييم وضع النقد في العالم العربي المعاصر على ضوء هذه

أما النوع الثاني من النقد المتروكي فهو النقد المتخصص على مختلف أنواعه: النقد الفني، النقد الأدبي، النقد السياسي وهلمّ جرّاً. هذه الدرجة من النقد جزئيّة، مع كل ما تتطلبه هذه التسمية من أسس مهنية وسلوكية تحدّد مرّ ينتمي إلى المهنة ويوفّق أية شروط وضيق أيّ أمر، وما تتطلبه أيضاً من تنظيم جماعي يُضمي المهنة وحقوق ممارستها ويمثّلهم في أروقة السلطة وأمام غيرهم من المهنيين. وليس النقد، كحرفة، جديداً في التاريخ الإنسان بشكل عام أو التاريخ العربي بشكل خاص. فهناك أفراد تميّزوا على مدى التاريخ العربي بأنهم، أولاً وقبل كل شيء، نقاد اجتماعيين متعدّدو المواهب كما هي حالّ الجاحظ مثلاً، أو نقاد أدبيين كإبن المعتز، أو نقاد وجوهيين كابن العلاء العربي، أو نقاد سياسيين جابهوا الأنظمة السائدة وانتقوها مثل مفكرتي الفوارق أو الشككيين من أمثال الراوندي والغرابي أو حتى المتشددين دينياً من أمثال ابن تيمية.

ولكنّ تنظيم النقد، كمهنة لها مطالباتها العلمية وقواعدها المهنية، حديث العهد. وهو، قبل كل شيء، نتاج التخصص المهني الذي شجّعه عالم الحداثة. كما هي حالّ المهن الأخرى التي شهِدت قواعد وشروطاً جديدة تخضعها وحدّث شروط الانتصاف إليها ابتداءً من نهاية

ما زالت حقوق المجتمع فوق حقوق الفرد بالطلق في كل الدول العربية

والحرية واحترام الرأي الآخر، والذي لا يعدو كونه محاولاً ترسيخاً للظهور بظهور حدائي ولما شاة الاتجاه العالمي نحو المزيد من الحرية للأفراد، من دون كبير سببٍ للتناقضات البنيوية التي تجعل تحقيق هذه الحرية والإنفاً على الأنظمة السائدة سياسياً واجتماعياً وديناً في إن واحراً أمراً مستحيلاً.

فياً نقلاً العالم العربي، مواطنين ومختصين، ومقيمين ومغتربين، مارسوا حقكم في النقد إن كنتم فعلاً تريدون مجتمعاً متمكناً أن تُفهم من كبوتها التي طالت ولا تُجبراً كثيراً انتباولن يحرككم من مغبة جر الأمة في صراعات فكرية «هي في غنى عنها اليوم بسبب الاخطار الخارجية المحدقة بها». فالخطر الحقيقي المصدق بأمننا وشعوبنا هو في الاستكانة للفكر الشمولي السائد وأدواته القمعية، وهي أدوات لا تحرق بها أي أخطار خارجية من مروجي «ضرورة الديموقراطية» في أوساط الإدارة الأميركية أو السلطات الأوروبية المختلفة. فلو كانت هذه القوى العالمية تُؤنّب فعلاً في مساعدة شعوبنا على اكتساب حرياتها، رغم انف الأنظمة الشمولية التي ساستها منذ نهاية الستينيات على الأقل، لِمَ انتظرت كل هذه السنين؟!

كامبردج، ماساشوسس

الصالح، إلى تحديث أو نهضة أو بعث أو إصلاح وغير ذلك من المسميات المتداولة منذ بداية القرن العشرين. ومع تعدد المحاولات، لم يمكن الفكر العربي المعاصر من الموافقة بين تناقضات مصادره وصورها في إطارات ثقافية وقانونية ناضجة وقادرة على الاستمرار. فما زالت حقوق المجتمع فوق حقوق الفرد بالطلق في كل الدول العربية. وما زال التفكير السائد محصوراً ضمن إطار المنظومة المعرفية ما قبل الحديثة، التي ترى الفرد دوماً من خلال المجتمع وأمنه ونظامه وعقيدته وأهدافه السياسية المنشودة (التي غالباً ما يقرها مستتبوه). وما زالت طموحات الأفراد إلى ممارسة حقهم في التعبير عن آرائهم تُقمع بحجة الأمن حياً، أو المروق والتخبط حياً، أو الارتباط بجهات أجنبية أو فكر خارجي أحياناً آخر.

ولا فرق رئيساً حقاً بين أئام وآخر في نهاية الأمر: فالمنظومة المعرفية الغائبة ما زالت هي الأساس الناظم لكل المؤسسات الفاعلة في العالم العربي اليوم، والحركة المستترة لمعظم الإنتاج الفكري العربي الذي يلتزم حدود الجماعة على الغالب، بغض النظر عن الكلام الكثير على الديموقراطية

والمختصة والموروثة، وإعادة النظر في تقييمها لإنجازاتها الفعلية والموهمة.

ولا ينحصر رفض النقد بالأنظمة الحاكمة، بل يتجاوزها إلى غالبية التيارات الفكرية الفاعلة في العالم العربي، التي وإن طالبت بحرية النقد فهي تطالب بتطبيقها على نفسها وعلى مآثلها فقط ولكنها تحجبها عن غيرها ممن تصفهم بالمتعصبين أو المتخلين أو المتغربين، مع أن الأرضية المعرفية الفعلية لحق النقد هي سريانه على كل الأفراد والمجموعات ضمن أي مجتمع. ولا أظن أن وضع أي شرط اجتماعي أو قانوني لتنظيم أو تكيل حق النقد، كما تُسأل غالبية الخطابات العربية المعاصرة، مفيد أو مبرر. فأي تحديث لحق النقد ينبغي نقياً تاماً، ويجعلنا أسرى منظومة معرفية سلطوية ليس لديها كبير تقبل لأي رأي أو فعل يفايرن أسس معرفتها بنفسها.

هذا هو، في نهاية المطاف، الشرخ العربي العميق الذي تواجهه السياسة والثقافة العربيتان المعاصرتان. فهما تُشدران عن تيارات فكرية وقواعد اجتماعية وخطابات إيديولوجية متناقضة فلسفياً وحضارياً وتاريخياً، تتراوح بين المطالبة بالحفاظ على الخصائص المحلية، والعودة إلى السلف

في أبجدية الرموز الثقافية

من أجل تفسير أدق للقضايا الهامة

• محمود الخواصي •

شؤون الثقافة أن يكون ملئاً بها لكي تزيده بصيرةً في قراءته لأبجدية الرموز الثقافية.

المعالم الخمسة للرموز الثقافية

بالنظر التعمق إلى جوهر طبيعة الرموز الثقافية عند الجنس البشري تبين أنها تتسم بلمسات غير مادية/متعالية/ ميتافيزيقية تجعلها تختلف عن صفات مكونات الجسم البشري وعالم المادة. ولشرح ما نعنيه باللمسات المتعالية/ الميتافيزيقية للرموز الثقافية، نقترح هنا على ذكر خمس منها نعتبرها رئيسية:

١ - ليس للرموز الثقافية وزنٌ وحجمٌ كما هو الأمر في المكونات البيولوجية الفيزيولوجية للمكونات الحية وعالم المادة الجامدة.

٢ - تتمتع الرموز الثقافية بسهولة وسرعة انتقالها عبر المكان والزمان. يتطابق هذا بصورة كاملة على استعمال الفاكس اليوم؛ كما يتعلق على الكلمة المنطوقة والمرسلة عبر صوت الإنسان أو عبر الهاتف والمذياع والتلفزيون والانترنت. ويرجع ذلك في المقام الأول إلى ما يرد أعلاه، أي نزع عالمي الحجم والوزن من الكلمة المنطوقة والمرسلة.

٣ - لا تتأثر الرموز الثقافية بعملية التقصن عندما نعطي منها للآخرين، كما هو الأمر في عناصر عالم المادة. فإعطاء

عند الكائنات الحية الأخرى. ٢ - التمتع بمدى حياة أطول من مدى حياة الأغلبية الساحقة للأجناس الأخرى. ولتفسير ذلك يتطلب الأمر طرح فرضية واقعية ثم التحقق من مدى مشروعيتها مصداقيتها. وأول فرضية واقعية تتناسب إلى النهن في هذا الصدد هي أن الرموز الثقافية تشكل العامل الحاسم في كل من بطن النمو البيولوجي والفيزيولوجي، وإطالة مدى الحياة عند أفراد الجنس البشري. فعلماء البيولوجيا والفيزيولوجيا يؤكدون أن أفراد الجنس البشري يتكفون أوج نضجهم البيولوجي والفيزيولوجي في سن الخامسة والعشرين؛ أما اكتمال النمو في عالم الرموز الثقافية فلا يتم إلا في سن متأخرة من حياة الإنسان. وهكذا يتضح أن إطالة مدى حياة الإنسان هي التي تعطي الفرصة لكسب رهان النمو والنضج في الزمن ما يتلوه البشر وفي أكثر ما يميزهم عن الأجناس الأخرى ويُميّزهم بإنسانيتهم - أي وهي الرموز الثقافية. ويمكن القول بأن تميز المخ البشري باحتضان منظومة الرموز الثقافية أثر في منسدة جينات وبيولوجيا الإنسان، والمتمثلة في بطن نموه البيولوجي، ولا شك في أن مثل هذا الوزن الكبير لتأثير الرموز الثقافية يعزى مصداقية قولنا سابقاً بأن الكائن البشري هو كائن ثقافي بالطبع. وهذه حيثيات رئيسية يجب على الباحث في

مشروعية البحث في الرموز الثقافية

بدأ اهتمامنا بدراسة مفهوم الرموز الثقافية في بداية عام ١٩٩٠. وكان الأمر استجابة لرغبة ملحة نطالبنا بالعلو على مرجعية رئيسية تكن ذات مصداقية عالية في فهم وتفسير سلوك الناس، أفراداً وجماعات. فوجدنا أنفسنا نبحث عما يسميه عديد العلماء اليوم الرجوع إلى أساسيات الأشياء. ذلك أن الرموز الثقافية أو الثقافة أو المنظومة الثقافية (اللغة والفكر والدين والمعرفة والقيم والأعراف الثقافية والقوانين والأساطير) هي أكبر صفة مميزة للجنس البشري عن سواء من الأجناس الحية الأخرى؛ وهي أيضاً العناصر الحاسمة التي أثلت الجنس البشري وحده للفوز بمقاييد السيادة والصلافة في هذا الكون. ومن هذه المعالم الأبجدية للرموز الثقافية وديورها في دنيا الإنسان، تأتي للمشروعية القوية لفرضية الرجوع إلى الرموز الثقافية باعتبارها أهم الأساسيات التي تحتاج إليها العلوم الإنسانية والاجتماعية في كسب رهان متين وأكثر مصداقية في فهم السلوكيات البشرية وتفسيرها.

تجديد الملاحظة البسيطة بأن أفراد الجنس البشري يفردون حقيقتين رئيسيتين: ١ - بطن كبير في النمو والنضج البيولوجي مقارنة بسرعة النمو والنضج البيولوجي

♦ - عالم اجتماع، جامعة تريس.

الرموز الثقافية تشكل العامل الحاسم
في ببطء النمو البيولوجي وإطالة
مدى الحياة عند البشر

الأخرين خمسين ديناراً من رأس مالنا ونقطاراً من قمحنا وعمارة من عماراتنا تُنقص مما هو عندنا من ممتلكات مادية؛ أما إذا مُنَحنا الآخرين شيئاً من معرفتنا وفيمننا الثقافية ولغتنا فإن ذلك لا يُنقص شيئاً من رموزنا الثقافية هذه

٤ - للرموز الثقافية قدرة كبيرة على البقاء طويلاً عبر الزمان فاللغة، وهي أم الرموز الثقافية؛ لها قدرة فائقة على تخليد ما يُكتب بها بغض النظر عن محتوى المكتوب. أما على مستوى التراث الجماعي للمجموعات البشرية، فإن اللغات المكتوبة على الخصوص تمكّنها من تسجيل ذاكرتها الجماعية والمحافظة عليها رغم اندثار تلك المجموعات العضوي والبيولوجي ورغم تغييرها للمكان. ولا تقتصر هذه الأبعاد المتعالية/المتافيزيقية على اللغة المكتوبة فقط، بل إن الاستعمال الشفوي للغة يمتدّون هو الآخر بدلالات مماثلة. أفلا يلجأ البشر إلى استعمال الكلمة للنمطية في تسمياتهم الكونية وتضريحاتهم وبنيتهم إلى الهاتهم أو إلى أي شيء آخر يعتقدون في أزليته أو قسيميته؟ فبأنفرادهم بنوعية اللغة البشرية عن بقية الكائنات الحية الأخرى يستطيعون أن يجزّوا أنفسهم من العراقيل المادية لهذا العالم ويقوموا علاقاتهم وروابطهم مع للعالم التعالي/اليتافيزيقي.

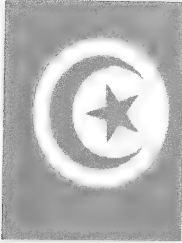
٥ - تلك الرموز الثقافية قوة هائلة تمنح أصحابها من الانتصار على أكبر التحديات. فعلى سبيل المثال، أثبتت قيم الحرية والعدالة والمساواة أنها رموز ثقافية قادرة على شحن الأفراد والمجموعات بطاقات هائلة جيّارة. وهذا ما يوحى به قول الشاعر العربي التونسي أبي القاسم الشابي: «إذا الشعب يوماً أراد الحياة/فلا بد أن يستجيب القدر» فمصدر إرادة الشعوب الحق يقمّ في عالم الرموز الثقافية؛ أي عندما يجمع الناس أمرهم للنضال من الحرية والمساواة والعدل وعن حقهم في الاستقلال واحترام الذات، يصبح رد فعلهم كردة فعل القدر الذي لا يُبقي ولا يترك. وهذا ما يفسّر لجوء الناس إلى الحديث عن المعجزات في بعض الأحداث الفردية أو الجماعية التي تُدخل سجل التاريخ بالرغم من عدم توفر المعطيات المادية لذلك؛ إنها تجلّيات لأثر الرموز الثقافية الحاسم في ميادين تفعيل حركة السلوكيات البشرية في المجتمعات والمضمارات الإنسانية على مرّ العصور.

أصلية ميدانية

يساعد منظورنا للرموز الثقافية على طرح يتمتع بدقة أكثر في فهم وتفسير العديد من الظواهر والخصائص ذات العلاقة بالمسألة الثقافية. فبعض الآن نناقش ثلاث قضايا تتجلى فيها معالم منظورنا المختلف.

١ - الشعبية : الكتابات حول مسألة التبعية ركزت اهتمامها على خطر التبعية الاقتصادية وبُعثت خطر التبعية الثقافية على المجتمعات النامية. ويبرز هذا التوجه الفكري خاصة عند الفكرين الماركسيين؛ وما مدرسة نظرية التبعية، التي نادى بها جوتنر فرك وأتباعه إلا أشهر مثال على ذلك. أما منظورنا للرموز الثقافية فهو يرى أن تبعية مجتمعات العالم الثالث للمجتمعات الغربية على مستوى المنظومة الثقافية أكثر خطورة من التبعية الاقتصادية لأنها تُضرب بأمر ما يُثلكه الجنس البشري وما يميّزه عن سواه من الأجناس الأخرى. وإذا كانت المنظومة الثقافية هي بيت القصيد في تحديد هوية الجنس البشري، وبالتالي في تحديد هوية المجتمعات البشرية، فإن تبعية البعض منها ثقافياً للآخر تُعتبر مُصاباً جليلاً لأنها تُضرب صميم الركائز التي تُقام عليها هوية الأفراد ومجتمعاتها، ولأن مدة بقاء الرموز الثقافية للمستعمر القديم طويلة العمر في المجتمعات المستعمرة؛ ومن ثم فإن استقلالها الثقافي هو الحق أصبّ بكثير من استقلالها عن الاحتلال العسكري والهيمنة الاقتصادية.

تشير الملاحظات في دنيا التشاؤم بين الأمم والمجتمعات إلى أن عظمى اللغة ولتين يُعبّان دوراً حاسماً في تحديد مدى خطر التبعية الثقافية. فتشأفت مجتمعات الوطن العربي مع الغرب في القرنين التاسع عشر والعشرين أفرز



في حين يحتفل التونسيون سنوياً بالجللاء العسكري الفرنسي، لا يكاد يذكر الجللاء اللغوي الثقافي

للتعلمة التي لا يزال يهيمن عليها مركبُ «سوء» اللغة الفرنسية وثقافتها بعد حوالي نصف قرن من الاستقلال.

ينطبق هذا كثيراً على حال المجتمع التونسي الحديث. فالنخب السياسية والفكرية والمسؤولون ذوو المراكز الحساسة وأغلبية الشرائح الاجتماعية المتعلمة لفترة ما بعد الاستقلال هي فئات يُقَلِّب عليها التعاطف مع لغة وثقافة وإيديولوجيا المستعمر الفرنسي، أو الغرب عمومًا، أكثر من تعاطفها مع اللغة العربية وثقافتها ورويتها للحياة. وهذا ما أطلقنا عليه «ظاهرة التخلف الآخر». تُعزِّز هذا القول ملاحظتان رئيسيتان:

– غياب شبه كامل منذ الاستقلال (١٩٥٦) لمصطلح «التحرر/الاستقلال اللغوي الثقافي» من قاموس السياسيين، ومن نقاش المفكرين والعلماء والمسؤولين التونسيين، وحديث معظم الفئات التأسيسية الأخرى. ففي حين يحتفل التونسيون سنوياً بعيدَي الجللاء العسكري والفلاحي للاستعمار الفرنسي من الأراضي التونسية، لا يكاد يُذكر الجللاء اللغوي الثقافي، ناهيك عن المناداة به بصور عالٍ خاصة من طرف النُخب وأصحاب القرار.

– غياب كامل بعد الاستقلال لصالوات وطنية توعية لصالح اللغة العربية (اللغة الوطنية). والحال أن علاقة التونسيين للتعليم بلغتهم الوطنية ليست بخير بعد. ما يُؤرب من نصف قرن من الاستقلال.

باللغة الإنجليزية بين الكُتّاب المشرقين الذين استلّت بريطانيا بلانهم. أي أن اللغة العربية المكتوبة واللهجات العربية المتعددة (القليلة الاستعمال للكلمات الإنجليزية) حافظت على هيمنتها في الاستعمال في مؤسسات تلك المجتمعات المشرقية وفي التواصل بين أفرادها في الحياة اليومية. وهذا يعطي شرعية للقول بأن التبعية الثقافية لمجتمعات المشرق العربي أقل حدة وخطورة من تلك التي تعيشها مجتمعات المغرب العربي.

في ضوء ما سبق يُسهل فهم مشروعية قولنا «إن الغزو اللغوي الثقافي هو أخطر أنواع الغزو جميعًا»، فالهجوم الشامل على المنظومة الثقافية لشعب ما هو أخطر ما يصيبه لأنه يُضرب الأركان الأساسية الأولى لكيان المجتمع البشري، والتي بدونها تُضعف قدرته على التماسك، ناهيك عن المقاومة، ويُصعب عليه – ويُؤلِّب بالتأكيد – التحرر اللغوي الثقافي، وذلك أن رموز الغاوي الثقافية ذات أمر بقاء طويل من جهة، وذات حضور شبه ميتافيزيقي من جهة أخرى، في المجتمعات المتأثرة كثيراً على الخصوص بالانتشار الواسع لتلك الرموز الثقافية. أي أن الحضور للادي، مثلاً، للمستعمر الفرنسي في مجتمعات المغرب العربي لم يحد ضروريًا لاستمرار تأثير اللغة الفرنسية وثقافتها في تلك المجتمعات، إذ تنوّب عنه النخب السياسية والفكرية والشرائح الاجتماعية

نوعين من التبعية الثقافية. فمن جهة، نجح الاستعمار الفرنسي – المعروف بتفكيره على الجانب اللغوي الثقافي – في بثّ لغته وثقافتها في بلاد المغرب العربي لا بين النخب وحدها وإنما أيضًا بين عامة الناس؛ فاصبحت الفرنسية لغةً أصليةً للمؤسسات في ظل الاحتلال الفرنسي، بل لغة العديد من المؤسسات الوطنية بعد الاستقلال. ونظرًا لأن اللغة هي أهم الرموز الثقافية جميعًا، فإنّه يجوز وصف التبعية الثقافية لمجتمعات المغرب العربي الأربعة (الجزائر وتونس والمغرب وموريتانيا) لغزًا بل بأنها تبعية خطيرة لأنها تُحرم اللغات الوطنية (العربية والبربرية...) من عنصر الاستقلال الكاملين. ولا يقتصر خطر التبعية الثقافية على ذلك، وإنما يمتد أيضًا قضايا الشعور بالاغتراب الثقافي والتذبذب على مستوى الهوية الثقافية عند الأفراد ومجتمعاتهم. ومن جهة أخرى، كان الاستعمار الانجليزي أقل اهتمامًا بجوانب الاستعمار اللغوي الثقافي لبلاد المشرق العربي التي سقطت تحت هيمنتهم، فلم يبلغ تعلم وانتشار واستعمال اللغة الإنجليزية في مجتمعات المشرق العربي الدرجة التي بلغتها اللغة الفرنسية في مجتمعات المغرب العربي. ومن هنا الحضور البارز والمتواصل لما يسمى بظاهرة «الكتاب الفرنكوفونيين المغاربة»، والغياب شبه الكامل – في المقابل – لثل هذه الظاهرة

المنظومة الثقافية السليبية إزاء الآخر

مرشحة لأن تستمر إلى أجل غير

مسمى

النخب وأصحاب القرار والراي العام في عدد كبير من المجتمعات المتخلفة إن مفهومنا للرموز الثقافية يحذر بكل شدة، مثلاً، من مخاطر الانزواجية اللغوية الثقافية التي تكمن فيها اللغة الأجنبية وثقافتها صاحبة المكانة الأولى في نفوس وعقول وسلوكيات مواطني ومؤسسات المجتمعات النامية لأن ذلك يهدد أم الرموز الثقافية للمجتمع النامي - الأ وهي اللغة/ اللغات الوطنية ومنظومتها الثقافية. وفي المقابل ترحب رؤيتنا إلى الرموز الثقافية بالانزواجية اللغوية والثقافية التي تمايز فيها اللغة الوطنية وثقافتها على الألفية والصدارة في قلوب وعقول وسلوكيات مواطني ومؤسسات المجتمعات النامية، كما هو الأمر في المجتمعات المتقدمة. ذلك أن تعلم اللغات الأجنبية وثقافتها في هذه المجتمعات يمثل فقط وسيلة لفتح على الآخر، لا يُركب ولا يُفسد مناعة اللغة الوطنية وثقافتها، ولا يُكَلِّف أعراض مرگب النقص والتحقير للذات بين المواطنين.

٣ - حوار وصدام الثقافات^(١): ما من شك في أن قضية حوار/ وصدام الثقافات هي اليوم من مواضيع الساعة، ويساعد مفهومنا للرموز الثقافية على المساهمة في فهم وتفسير حداثيات هذا الموضوع فالاشتراك أو التشابك بين المجتمعات البشرية في الرموز الثقافية (أمر شيء

المستعمر وثقافته - التحيز من مرگب الاستعمار اللغوي الثقافي بحيث يُكَلِّف الألفية للغة الوطنية وثقافتها، وذلك بتكسيدها - عبر سلسلة من الإصلاحات اللغوية والثقافية والنفسية - من كسب رهان عقول التونسيين وعطف قلوبهم. ويعبارة بيار بورديو، فإن الموقف التحقيري الذي تلقاه اللغة العربية بين المتعلمين التونسيين اليوم هو انعكاس في المقام الأول لوقف النخب والمسؤولين ونظام التعليم والمجتمع بصفة عامة من اللغة العربية: إنه عبارة عن عملية إعادة إنتاج (reproduction).

٢ - الانزواجية اللغوية والثقافية: اما الانزواجية اللغوية والثقافية فيُنظر إليها في العديد من المجتمعات للتخلفة على أنها عنصر أساسي لنجاح عملية التنمية. ومن ثم يرى المسؤولون في هذه المجتمعات وجوب تبني نظم التعليم عتدم سياسات تكوين اجيال مزودة اللغة والثقافة. ولكن، على مستوى اول، ليست هناك علاقة ضرورية بين كسب رهان التنمية من ناحية، والانزواجية اللغوية والثقافية من ناحية أخرى. وإن إنجاز المجتمع الياباني منذ الحرب العالمية الثانية لمستوى عال من التنمية والحديث خير مثال على ذلك. وعلى مستوى ثانٍ، فمن السذاجة الاعتقاد بأن في الانزواجية اللغوية والثقافية بكل أصنافها خيرًا كبيرًا كما ترى الأغلبية من

فهم لا يستعملونها بالكامل شفويًا أو كتابيًا، ولا يعارضون استعمال لغة اجنبية بينهم، ولا يُبدون امتزازًا باللغة العربية أو غيرها عليها، ولا يوجد لديهم شعور عفوي قوي إزاء أولوية استعمالها بينهم، ولا حس مراقبة استعمال الكلمات والجميل الفرنسية، وأخيرًا فالتونسيون المتعلمون اليوم يُدرك أن يعرفوا بثقائيتهم هويتهم بلغتهم الوطنية (اللغة العربية)، كما يُعلم مثلاً الألمان والإيطاليون والفرنسيون والاسبان.

تعيد كل تلك المؤشرات اليوم إلى وجود موقف جماعي سلبي لدى الألفية الساحقة من التونسيين المتعلمين بالنسبة إلى علاقتهم مع اللغة العربية. ويعود ذلك إلى عاملين أساسيين مترابطين. يتمثل الأول في تأثير الاستعمار الفرنسي في إقصاء اللغة العربية قُدْر الاستطاع من الاستعمال في المجتمع التونسي، وتوحيضها باللغة الفرنسية، ثم عُرس طغيان الاحتقار للغة العربية بين التونسيين المتعلمين وغير المتعلمين. اما العامل الثاني الحاسم فيمسك التونسيون المزودجو اللغة والثقافة، أو الفرنسيون، الذين أخذوا زمام الأمور في تسيير شؤون البلاد بعد الاستقلال، ولم يستطعوا في غالبيتهم - نظراً إلى تعاطفهم الكبير، عن وعي أو عن غير وعي، مع لغة

١ - تفكّل استعمال كلمة «الثقافات» بدل «الحضارات» في تحليل مسألة الحوار أو الصدام بين الأمم والمجتمعات: إذ إن الثقافات هي للمؤسسة للحضارات وتجلياتها، بما فيها القدرة على الحوار والصدام مع الآخر»



سياسة بوش مع عللنا خير مثال
تتجلى فيه مشروعية تاهل أميركا
للصدام معنا

والبرتغال، حيث أقاموا حُكُومهم
وهيمنتهم قرونًا عديدة، وحاولوا التوسّع
أكثر في أوروبا، ولا شك في أنّ الخيال
الغربي (منظومته الثقافية) أصبح منذ
ذلك التاريخ متوجسًا وخائفًا واعدائيًا
تجاه العرب المسلمين لكونهم القوة
الوحيدة في العالم التي منهدّتهم في
عقر دارهم، ومن جهة ثانية، فقد هُزم
العرب المسلمون في الأندلس وطرّدا
منها شرّ طرد، فسكّوا في مؤلّقاتهم
فيماهم بالأندلس ولوعّتهم عليها
وغيصّبهم ممّا تعرّضوا له على أيدي
المتصّرين الإسبان للمسيحيين، فرأى
ذلك عندهم مخيلاً حافداً على الإسبان
وعلى الغرب بصفة عامة نتيجة للحروب
الصليبية والاستعمار الغربي لهم في
العصور اللاحقة والحديثة.

وعليه، فإنّ المنظومة الثقافية السلبية
إزاء «الأخر» عند مخيالي الغربيين
(الغرب والعرب المسلمين) مرشّحة لأن
تستمرّ إلى أجل غير مسمّى، ذلك أنّ
الرموز الثقافية ذات مدى حياة طويل قد
يصل إلى الأبدية، كما أنّ الحُسن في
منظورنا أعلاه - كما أنّ المعطيات
البيئية سابقاً لا تسمح بالتفاهل للحدثين
عن توفير الشروط اللازمة لحوار حقيقي
متكافئ فعلاً بين الغرب والعالم العربي
الإسلامي، إذ الطرف الغربي هو الأقل
تأهلاً اليوم للدخول بطبيب نية ونزاهة
وتحمّس في مثل ذلك الحوار.

العلماء والمستشرقين والبلوماسيين
ورجال الأعمال.

في ضوء هذه المعطيات، لا يُمكن
الحديث عن المساواة في رغبة الطرفين
الغربي والإسلامي في الحوار. فالهيمنة
الغربية الصّليبية، وتاريخ الغرب
الاستعماري للشعوب الإسلامية، وجهل
سواد المجتمعات الغربية لإحدى لغات
العالم الإسلامي الكبرى على الأقل،
تُضعف كثيراً من استعداد وقدرة تلك
المجتمعات على الحوار الثقافي
والمتمحّص والواحد مع المجتمعات
الإسلامية. وبما يزيد الطين بلّة هو أنّ
هيمنة الغرب العالمية ومصالحه الكبيرة
والمتنوّعة في العالم العربي والإسلامي
تشجّع الغرب على الهجوم على العالم
العربي والإسلامي بدلاً من الحوار معه.
وإنّ السياسة الخارجية الأميركية
الصّدامية لإدارة بوش الصغير مع
العالم العربي والإسلامي اليوم خير
مثال ميداني تتجلى فيه مشروعية تاهل
أميركا للصدام مع عالمنا، وتأتي
المنظومة الثقافية إدارته بمثابة عامل
حاسم في الصدام لا مع هذا العالم
فحسب بل مع المجموعة الدولية قاطبة.

كما أنّ الحديث عن علاقة العرب
للمسلمين بالغرب المسيحي يحتاج إلى
الإشارة إلى الخلفية التاريخية التي
رَبّطت بينهما. فمن جهة، غزا العرب
المسلمون ما يسمّى اليوم إسبانيا

يُتلكه الجنسّ البشري) يعبّر عن التاكيد من
الاستعداد والتحمّس والقدرة على الحوار
والفاعل بين تلك المجتمعات. واللغة هي
أهم عناصر المنظومة الثقافية لفتح أبواب
الحوار والتواصل بين الأفراد والمجموعات
البشرية. ومن ثمّ يمكن القول بأنّ حوار
الثقافات بين العالم الإسلامي والعالم
الغربي يتطلب من الطرفين معرفة لغات
بعضهم البعض، وهذا مفقود عند الطرف
الغربي نظرياً وشعبياً؛ وينطبق هذا أكثر
ما ينطبق على المجتمع الأمريكي، لا في
جهله للغات العالم الإسلامي فحسب، بل
أيضاً في عدم معرفته للغات الأجنبية
بصفة عامة. وعلى العكس من ذلك، فإنّ
لنخب العالم الإسلامي معرفة واسعة
ومتعمّقة بلغات المجتمعات الغربية
للمقدمة، وفي طليعتها اللغتان الإنجليزية
والفرنسية. وبإزدياد نسبة التمسّس منذ
استقلال المجتمعات الإسلامية، فإنّ
انتشار تعلّم إحدى تلك اللغتين أو هما
معاً وغيرهما من اللغات الغربية أصبح
واقعاً اجتماعياً شعبياً لكثير من فئات تلك
للمجتمعات. إنّ هذا الواقع اللغوي
الشعبي يعبّر عن استعداد المجتمعات الإسلامية
هائس للتفتح والحوار مع المجتمعات
الغربية، وبخاصّة الأكثر تقدّماً. أما هذه
الأخيرة فليس لها ما يحفزها على نطاق
شعبي واسع على تعلّم ولو لغز واحد من
لغات العالم الإسلامي، ويُعبّر الأمر في
أغلب الأحيان على تعلّم بعض لغات العالم
الإسلامي من قبل عدد محدود جدّاً من

الانقلاب الثقافي والسياسي

الصَّحْ والخَطَأ في المواقف الجديدة

. منير شفيق *

نتفهم!

يستطيع المرء أن يتفهم ما حدث من انقلاب في مواقف النخب اليسارية، عمومًا، في تقويم التجربة الماضية.

— نظام بكتاتورية البروليتاريا أثبت فشله وتهاوى في معقله الأول، الاتحاد السوفياتي.

— وتغيّر الموقف منه جذريًا في قلعه الثانية، الصين.

— ولم يكن حالّ التجارب التي اعتُمدت نظام الحزب الواحد، أو أعطت الدولة سلطان استثنائية في الاقتصاد والتنمية، كما في السياسة والثقافة، مختلفًا من حيث نتائجها وتقويمه.

ويُمكن المرء أن يتفهم ذلك الانقلاب في اعتبار الديمقراطية الدواء الشافي لكلّ ما تشكك منه مجتمعاتنا من تخلف وسلبيات وانتهاكات لحقوق الإنسان والحريات السياسية، وغير ذلك كثير. ثم قد يتفهم التخلي عن «أوهام المجتمع الفاضل»، بمختلف تسمياته، للانصاف أكثر بالواقع والمكن.

ولكن...

لكن ثمة وجهًا آخر للصورة، أكان في تجربة الماضي أم الحاضر، لا يُمكن فهم الانقلاب عليه بالموازاة مع

الانقلابات اعلاه. وهو، أولاً، تقويم الدور الذي لعبه الاستعمار القديم والإمبريالية الأميركية في حياة الشعوب أو في نهب ثرواتها وفرض التبعية عليها، بل وتقسيم بلدانها وتزكّي ما لا يُحصى من المشاكل الصّودية في ما بين دولها.

فكيف يُمكن أن يصبح الموقف السابق فكيف يُمكن أن يبادى الهند الحمر في الأميركيين، أو من استعبد الأفارقة وتحويلهم إلى رقيق في العالم الجديد، أو من التمييز العنصري، خاطئًا؟

وكيف يُمكن أن يغدو الموقف من حروب الاستعمار والسيطرة على الشعوب، وما صاحب ذلك من إبادات وكوارث وتدمير لحضارات وثقافات ومن نهب للثروات، خاطئًا أو قابلاً للمراجعة؟

والسؤال يصبح أكثر وجاهة وقوة عندما يُفتح ملفّ الاجتياح الاستعماري — الصهيوني للفلسطين وتشريد أكثرية أهلها واغتصاب أغلبية أرضها ومدينتها وقراها وإقامة دولة إسرائيل، وما فُهم لها من دعم أميركي بعد ذلك لتكريسها في مواقع الهيمن عسكريًا على الدول العربية مجتمعة، وما تبع ذلك من توسيع واحتلالات وضرب للنهوض القومي التحريري الذي مثّله الناصريّة. فكيف يصبح الموقف من كل هذا خاطئًا ويوضع تحت المراجعة، ليس من زاوية

الأخطاء في إدارة الصراع، وإنما من زاوية جوهر الموقف الأساسي وصسته؟ ثم كيف يمكن أن تُجرى مراجعة لاستراتيجية المشروع الإسرائيلي، والمحوّل إلى استراتيجية أميركية أيضًا، تحت مقولات «الاعتراف بالأرض» و«الافتتاح» و«العقلانية» وما شابه؟

وبكلمة، إن انقلاب الموقف هنا يمثل صدامًا مع حقائق لا يُمكن نحتها لا علميًا ومعرفيًا، ولا مبدئيًا وأخلاقيًا، ولا واقعيًا أو تقديرًا لمصلحة عليا أو احتسابًا صحيحًا لمستقبل شعوبنا، فإذا كانت للمواقف السابقة على خطأ في فهمها للاشتراكية والعدالة الاجتماعية، أو التجربة السوفياتية والشيوعية، أو تجربة دول الاستقلال، أو حتى تجربة الاشتراكية الأوربية (الأممية الثانية)، أو في دفاعها عن البكتاتورية أو الشمولية، أو في سكونها من قضايا تمسّ الصرية وحقوق الإنسان... فإنها لم تكن على خطأ في موقفها من الاستعمار القديم، أو الإمبريالية، أو من الصهيونية في فلسطين وفي العالم، أو من الرأسمالية العالمية المتوحشة، أو ممّا كان يسوء وما يزال من نظام عالمي ظالم في السياسة والتجارة والاقتصاد والثقافة واحتكار التقدّم الصناعي والعلمي

* كاتب فلسطيني.



الذين قالوا بـ «نهاية التاريخ»
فوجدوا حين رأوا الجيش
الإسرائيلي ينسحب مكسوراً في
جنوب لبنان

كانت عليه في السابق. وقد أُضيف إليها - كما ذكرنا - الخطر على الوجود الإنساني، لا بسبب الأسلحة فوق التقليدية فحسب وإنما أيضاً، وبصورة أشدّ إلحاحاً، بسبب ما يتركبه النظام الرأسمالي العالمي، لاسيّما في عهد العملة، من جرائم بحق الأرض والبيئة، عناصرٍ ومناخاً وتجدّداً.

ولهذا فإنّ الذين قالوا بنهاية التاريخ كما قالها فوكاياما، أو كما قالوها هم حين وقفوا ضدّ كل ما كانوا عليه بلا تمييز بين ما كان خاطئاً وما كان صحيحاً ولم يزل، منحازين إلى الجانب الآخر من الجبهة، أقول إنّ هؤلاء فوجئوا حين رأوا الجيش الإسرائيلي ينسحب مكسوراً من جنوب لبنان، أو وهم يَرَوْنَ أطفالاً فلسطين وشباباً وفتياتهن ينتفضون ويقامون أكثر من أربع سفائر متواصلة، أو يشاهدون القذافات المليونينية في العواصم الأوروبية والعالمية ضدّ العدوان على العراق، أو الحركات الجديّة المناهضة للعدالة والمدافعة عن البيئة، أو نتائج الانتخابات المخزية إلى الفقراء في عدد من بلدان أميركا اللاتينية (تفعلي ثلاثة أرباع سكّانها)، أو ما يتّجهده العالم الإسلامي من نموّ للحركات المعتدلة ومن صحوة شبابية وروح جهاديّة ضدّ الاحتلال (ودع من ظاهرة التطرّف والمخالفات والإرهاب -

نلك على البشر والحياة بمختلف تلاوينها.

مراجعة الأشكال... لا الجوهر

وعليه، فإنّ كل ما شرّ النضال ضده كان صحيحاً من حيث الأساس والجوهر، وإنّ وجبت المراجعة في أشكال هذا النضال لا من ناحية الانحياز إلى المظلومين والفقراء والشمسوبي المضطّعة والعدالة الاجتماعية والإنصاف العالمي، ولا من ناحية الانحياز إلى الطبيعة والبيئة والوجود الإنساني، فالتخلّي عن هذين الانحيازين وما يتّصف به من بلادته ضمير يشكل كارثة أخلاقية بالنسبة إلى الفرد.

ولهذا أخطأ الذين خلّطوا ما كان صحيحاً وعادلاً وحقاً في نضالهم، بما كان وهماً أو خطأ في ما كانوا يؤكّدون أو يريدون الوصول إليه. وهذا ما قاد بعضهم إلى الانتقال إلى الجانب الآخر من الجبهة - وهو ما يقتضي في ذاته ضرورة التصنّي له والنضال ضده، لا كما كان في السابق فحسب، وإنّما بصورة أفضل وأكثر جدّة وإبداعاً أيضاً. فالتاريخ لا ينتهي بانتهاء أحلام هؤلاء البعض، أو بانتهاء للمعسكر الاشتراكي أو دول تجربة الاستقلال. نلك لأن أسباب الصراع والتدافع التي ولّدت تلك التجارب بنجاحاتها وإخفاقاتها ما زالت قائمة، بل أشدّ مما

والتكنولوجي وتُرمّص التخلّف (لا يغيّر من هذه الحقيقة بعض الاختراقات).

كما أنّ للمواقف السابقة لم تكن على خطر من حيث الابدأ في انحصارها إلى الفقراء والعدالة الاجتماعية وحرية الشعوب وسيادتها واستقلالها والسعي إلى إقامة نظام عالمي أكثر عدالة وديموقراطية ويحترم حضارات الشعوب وهوياتها وثقافتاتها وخياراتها الحرة بعيداً عن معادلة «الهيمنة التبعية» أو «المركز والأطراف» ناهيك عن صحة الموقف من سباق التسلّح المجنون ووضوح المعالم على حافة الدمار، بعد أن زرعت تحته أسلحة فوق تقليدية تكفي لإبادة عشرات المرات.

هذا، وأضيف اليوم إلى كل ذلك سبب آخر لا يقلّ وجاهة عن كلّ ما تقدّم، ألا وهو قضاياء البيئة والانحباس الحراري واستهلاك الطبيعة الذي تعدّي الخطوط الحمراء لاحتمال التجدّد. أما أصابع الاتّهام في تحمل المسؤولية الأولى من كل هذه الإشكاليات فقد بقيت موجّهة في الاتجاه نفسه، حيث الاستعمار والإمبريالية وقوى الهيمنة في النظام العالمي السائد. فالرأسمالية المتوحّشة لم تُكْذْ خُطراً على شعوب العالم الثالث ولا على الطبقات العاملة في بلدانها أو على الفقراء الإنساني فحسب، وإنّما أصبحت أشدّ خطراً على الكرة الأرضية، بمصادرنا وهوانها، بما في

كل ما شُنَّ النضالُ ضده
كان صحيحاً من حيث الجوهر،
وإن وجبت مراجعة أشكاله

قابل للإنقاذ. وهذا يفسّر لماذا عادوا، في ولاية يوش الثانية، يُحطّبون ودَّ «أوروبا القديمة»، ويبحثون الحياة في حلف الناتو. وهذا كلّ يشكّل شهادة على فشل الاستراتيجية السابقة أو محاولة لتعديلها شيئاً. لكنّها شهادة على أنّ نضالات المرحلة السابقة لم تكن كلها خاطئة، ولا رمي أعلام الكفاح ضدّ الهيمنة الأميركية عالمياً وضدّ مشروعات الصهيوني في بلاندا يُمكن أن يسوّغ أو يدافع عنه... ولو خلطَ نفسه بالديمقراطية والليبرالية والعدالة

ممنّان

الراسمالية الأميركية الأشدّ توحّشاً في مرحلة العولمة لجأت إلى القوى الأكثر عسكرياً وفاشيّةً وصهيونيّةً لضبط إفلات العالم من بين يديها بعد أن حَسِبَتْ أن أصبح طَوْعُ بنائها معلنة «نهاية التاريخ».

على أنّ التاريخ فُتِحَ صفحةً جديدة بعد انتهاء الحرب الباردة وعالمها، كُتِبَتْ سطورها الأولى على غير ما تشتهي الرأسمالية الأميركية المتوحّشة. فجاء الحافظون الجدد لإتقان موقفهم غير

فهي متخيطة ومزعزعة وافئة وغير قابلة للاستمرار).

أما من الجهة الأخرى فلا بدّ لهم من أن يتفاجأوا أيضاً وهم يرون اتساع وتفاسمّ التناقضات ما بين الدول الكبرى، وما راحت تعانيه الولايات المتحدة والدولة الإسرائيلية من عزلة دولية لاسيّما من جانب الرأي العامّ الغربي نفسه. ولعلّ إمساك القوى الأكثر تطرّفًا وعدوانيةً بخناق الولايات المتحدة الأميركية ليسكُنّ دليلاً على أنّ



سيرة تحولات مدينة بيروت بعد خروج الاحتلال المصري سنة ١٨٤٠.

ماذا يجري لعائلة عبد الجواد أحمد البارودي؟ ماذا تصنع الأمّام بصاحب الفراع الواحدة وبأبنائه الثلاثة وببناته السبع وزوجاته؟

سيرة عائلة مندثرة وسيرة مدينة غريبة الحظوظ. ماذا تكون بيروت؟ ملاذّ نازحين ولاجئين، أم برج بابل على حافة البحر، أم جنة صماكر، أم سلوم وصورة؟ وماذا يُفني المستقبل؟

الجزء الثاني من المحمة.

السلاميون العرب الجدد

مُغَفِّلُونَ أَمْ يَسْتَعِفِّلُونَ؟

فصل القاسم *

العنف والقوة في هذا العالم من الذي يَشْكُلُ ترسانات تقليدية ونزوية خيالية ووسائل إرهاب عَرَّ نظيرها في التاريخ: «الإرهابيين العرب»، أم القوى التي تَرُوعُ العالم من انصاه إلى انصاه بما تَوَكَّرُ لها من أدوات السيطرة والهيمنة والإخضاع والترويع والترهيب؛ لماذا تَكْرُوْنَ قصَّةَ الذنب والْحَمَلِ الشهيرة، حيث يقوم الذنب بتعكير مياه النبع من أعلاها ثم يَتَمَّهَمُ الْحَمَلُ الْمُسَكِّنُ الْقَابِغُ في أسفل النبع؟

الصورة الكاملة

لا أريد طبعاً أَنْ يَلْهَمَ من كلامي أَنْ كل الجماعات العربية هي حَمَلَانُ وِدْعَةٍ على العكس من ذلك: هناك جماعات إرهابية شنيعة لا يُشْكِنُ أيُّ حاقِلٍ أَنْ يبارك أفعالها. لكن بدلاً من التركيز فقط على كل ما هو إرهابي عربي لا بد من توضيح الحقيقة للشعوب حتى تكتمل الصورة والتوقف عن دعوتهَا إلى الاستسلام للجاني.

هل قرأ إِبْرَاهِيمُ اللُّيْلِيُّونَ العربُ الجدد التاريخ؟ بالطبع. لماذا يتجاهلون، إذن، أَنْ التاريخ منذ بَدْءِ الخليقة لم يكن سوى سلسلة قطيعة من الحروب والجارز والقتال والتصادم والعنف والقوة وقد أَتَاهُتْ دراسة إجراها أحد معاهد حقوق الإنسان أَنْ ١٥٪ فقط من التاريخ

المسللة والرومانسية الإنسانية العالية لدى أصحاب البيانات العالية المطالية بمكافحة الإرهاب وملاحقة مَرُوجِيهِ، خاصة وَأَنَّ شَهْدَتَنَا في الآونة الأخيرة إسهالاً منقطع النظر من البيانات الليبرالية الداعية إلى تعميم ثقافة السَلَمِ والسلام وإدانة العنف ومطالبة كل مَنْ يَتَفَوَّهُ بكلمة يقيمها من كِتَابٍ وفاتحها لصالح المقاومة بأشكالها كافة.

ولمَّا قرأنا ذلك البيان الشهير الموجه إلى الأمم المتحدة الذي وَكَّعَ عليه الآلاف من زملائنا الْمُتَقَبِّلِينَ يطالبون فيه المنظمة الدولية بتشكيل محكمة خاصة لحاكمية بعض رجال الدين الذين تجرأوا ومطالبوا بمقاومة المحتلِّين في العراق وغيره. لا أدري لماذا يحاول هذا الرهبان من المتقنين «الطُهوريين» تغطية عين الشمس بغريال. فإِذَا أَنَّهُمْ سَدَّجُوا، وَإِنَّمَا أَنَّهُمْ يَقْرَءُونَ الْبَيِّنَاتِ وضماها لكثرة مطلوبٍ منهم أَنْ ينزعوا ما تبقي من نخوةٍ وحميَّةٍ لدى هذا الشعب العربي وحكماته التي بات مطلوباً منها التخلّي حتى عن سكاكين مطابخها... ناهيك عن أسلحتها الخفيفة.

لا غبار أبداً على ضرورة تخليص هذا العالم من الإرهاب والعنف والدموية وجعله جمهورية أقاليم، وانبعة مسالمة. لكن، بالله عليكم، لماذا تكتفون الفصحية التي تحاول تأسيساً النوة عن نفسها، وتُغضِّضُونَ الطرف عن سادة

احثيكم!

لعل أكثرَ الشعارات بروزاً لدى مَنْ يسمُّون بـ «الليبراليين العرب الجدد» هو شعار «نبذ العنف والقوة» والتشهير بالإرهاب والإرهابيين والملاجهين إلى المديد والذمار. فقلنا تخطو مقالة للبربري عريبي جديد من إدانة الجماعات الإسلامية والمقاومة في العراق وفلسطين، كما لو أنَّ مناهضة العنف والدعوة إلى الاستسلام الكامل أصبحتا مقروَّضاً صحفياً مفروضاً في الكتابات الليبرالية العربية الجديدة لا تكتمل مقالاتهم من بونه. والويل كلِّ الولي لمن لا يشلُّ بالعنف والدعاين إليه في مقالة أيّ مقالة «ليبرالية» يتجذبا، حتى وإن كان موضوعها زعامة قصب السكر في كوبا أو صناعة الفخار في جنوب غرب اليابان أو حتى ترويض الأسود في غابات الأمازون.

إنني أحيي هذه الإنسانية المفرطة لدى زملائنا الليبراليين، لا بل أقف إجلالاً وإكباراً لهذه «الفادية» العربية الجديدة وهذا الصرح العظيم على أرواح الصيوانات والطيور الأليفة والناس وممتلكاتهم محلّ الذناعات بالطرق السلمية الحضارية ومخاطبة الآخر بالحوار والكلام الجميل بدل الرصاص والبارود والسيارات المفخخة. لا استطيع أن أثنى بما يكفي على هذه الروح

♦ - إعلامي عربي. ميمن ومُعَدَّم برنامج «الاتجاه المعاكس» في قناة الجزيرة.

**القوة هي مصدر كل السلطات،
فلا مفر من إعادة البناء وشحن كيانات
بشرية قادرة على المواجهة**

لماذا يُطْلَبُ منا، نحن العرب والمسلمين، أن نستكين ونزوي كالهريان أو أن نصبح قطعاناً من الحملان الخائفة، بينما يواصل المجتمع «المقدم» - الذي يروج الليبراليون العرب الجدد قبحه وعقائده - شَحْنُ الميول العدوانية لدى أبنائه والعناية ببنائهم الجسدي وقواهم العضلية وتنمية نزعات الفضول وحب المغامرة والانفعا إلى المخاطر؟ وكَم من حوادث مميّزة في سباق السيارات أو ألعاب القوى العنيفة والرحلات المحفوفة بالمخاطر، ولكن هذا لم يُعْمَل المجتمع «الليبرالي» المتقدم، يوقف هذه الألعاب والنشاطات أو يحد من هذه الميول، وإلى اليوم يُصعَب أن يجتمع جمهور من هذه الدول المحاربة في أي مكان من دون أن تحدث مصاصمات تؤدي في أحيان كثيرة إلى الجراح اللمية، ويتجلى فيها العنف بقمى درجاته، كما شهدنا في جماهير مشجعي كرة القدم في بريطانيا وغيرها من الدول الأوروبية الحارة الأخرى.

لقد كانت الديانة المسيحية التي تشغل الخلفية الثقافية للمجتمعات الليبرالية المتقدمة تدعو إلى التسامح والغفران والسلام («مَنْ سَرَسَكَ عَلَى خَدِّكَ الأيمن...»). ولكن في فورات الإيمان القديمة التي عاشتها بعضُ الدول الأوروبية كان القتل والحرق والتعذيب والإبادة العرقية أحياناً جزءاً من الإيمان العميق باعتباره جهاداً ضد الكفرة الخالفين للدين، أو المارقين من

ضحيّتهما مئات الملايين من البشر. فلماذا يتناسى زملاؤنا من الليبراليين العرب الجدد أن العنف عنصر أساسي في التاريخ؟ لقد عبّر الكُتَّابُ والفنانون طوال نصف القرن الماضي عن أحلام بالسلام والتضامن الانساني، مع أن الدول الكبرى كانت تُخَوِّض سباقاً رهيباً من أجل للتسلح، بما في ذلك الأسلحة الفائقة الدمار، حتى أصبحت الدولتان العظميان - وهما في ذلك الوقت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي - قادرتين على تدمير الكرة الأرضية أكثر من مرة.

ولا يُمكننا إلا أن نتفق مع أحمد عباس صالح عندما يقول: «لو استعرضنا ظروفنا في العالم الثالث نجد أنه طوال قرن تقريباً - خاصة في الشرق الأوسط - أجهضت الروحُ للصربية. فمتنمنا صُحِّيت دولة محمد علي في مصر، وانكسرت بعد ذلك بقليل ثورة الجيش المصري التي قادها أحمد عرابي، لم يُكَلِّمْ عندهُ الجيش وأسلمته فحسب بل قُصِّت النزعةُ الصربيةُ [أيضاً].» وربما نستطيع القول بأن النخوة أيضاً قد اندثرت انتشاراً بسبب إرهاب القوة واساليب الإذلال المختلفة. وصار الذي تملكه شعوبُ المنطقة هو المظاهرات المدنية المجردة من أي سلاح، وكَم استُشْهِد شبابُ هذه المناطق في المظاهرات، وعضى وقتٌ طويل لم يُخَلَّ فيه جيشٌ من هذه الجيوش أي معركة حربية.»

الإنساني شهيداً سلاماً وهدوءاً، بينما امتصت فترة ٨٥٪ الباقية بالصراعات العنيفة والحروب الدمرة. لو كان هناك حوار فعلاً بين الأمم والشعوب لما شهّد للتاريخ انهياراً من السماء. جميل أن ندعو إلى الحوار وأن ندين الداعين إلى العنف، لكن متى كان الحوار سيُؤدِّد المؤلف عبر تاريخ البشرية؟ وهل تقدّم العالمُ أصلاً إلا بالقوة والعنف؟

يقول المفكر المصري أحمد عباس صالح: «ما إن قرأ كتاباً في التاريخ حتى تجد أن مصوره هو الحروب» وفرض الرأي أو المصلحة بالقوة، حتى لو كان الكتاب عن تاريخ العلم أو تاريخ الاقتصاد وربما الفنون أيضاً. ولم تَهِش المجتمعات البشرية حتى اليوم على ما تُنتُجُه أو تبتكره من منجزات الحياة من طعام وشراب وضروريات، بل على ما تتطلع إليه في أيدي الآخرين. وما من نظرية تاريخية من نظام إلى آخر، أو تقدم في هذا الجانب أو ذلك، إلا وتجد أنه كان مصحوباً بالقوة، والنجاعة، والاقتصاد بشكل عام، لم يتطوّر أو يتقدم في أي بلد إلا وهما مصحوبان بالجيوش والسفن الحربية التي تُجُوب البحار لقمع الآخرين وفرض التجارة عليهم أو سلب الثروات التي يمتلكونها.»

إن تاريخ الغرب «الليبرالي» الحديث هو تاريخ الحروب الصغرى والكبرى، وأوروبا هي القارة الوحيدة التي أُنشِئت حريتين عالميتين في قرن واحد راح



من الذي يملك ترسانات خيالية:
الإرهابيون العرب أم القوى
التي تروع العالم من أقصاه إلى
أقصاه؟

التاريخ البشري، وإذا كان الأمر كذلك
فلا مفر من إعادة البناء وشمع كياناته
بشرية قادره على المواجهة والتصدي،
بدلاً من الدعوة إلى مطاردة المقاومين
وتقليم أظافر المتعلمين وإخضاع ما تبقى
لنا من فحول. وعندما يصبح العالم قريةً
وأدعى تُلعم بالهدوء والسكينة والخير
والسلم وتخفني العقابر والكواسر، فلا
ضئير عندها من مطالبة الأمم المتحدة
بتشكيل محكمة خاصة، لا بل محاكم
قراقرزية في كل قرية لاحقة ومحاكمة
حتى المعلمين والمعلمات الذين يُفسرون
التلاميذ على مؤخراتهم!

قملر

خاصة؟ وما الذي يجب عمله؟ بالطبع من
حقنا أن نتساءل: هل القوة بأشكالها
للمختلفة، هي القانون الأساسي الذي
يُحكم مسيرة الجنس البشري إلى اليوم؟
وإذا كان الأمر كذلك، فماذا على شعوب
العالم الثالث أن تفعل؟ هل عليها أن تعيد
تربية أبنائها على أساس مبدأ القوة
والعنف، كما يتسائل صالحي؟

لا مفرًا

إن شواهد عديدة هذه الأيام تبين لنا أن
القوة هي مصدر كل السلطات، وأن
العنف هو العنصر الملازم لكل حركة في

إبناء الديانة المسيحية نفسها. أما عن
الحروب باسم «ديانة السلام والمحبة»
فحدث ولا حرج.

نعم لم يكن الأمر مقصوراً على المسيحيين
الأوروبيين أو الغربيين؛ فقد شارك الجنس
البشري كله بمختلف عقائده في تلك
الزعة العروانية بغرض التوسع في الثروة
أو السلطة. ذلك أن خصائص العنف أو
غرائز التسلط هي الأصل الفطري الذي
قد يُبحث عن مبرر عقلاني أو أخلاقي
عندما نُغزوه الحاجة إلى ذلك. فهل ثمة
خطأ في الثقافة السائدة في مجتمعات
العالم الثالث وفي النظرة العربية بصفة



الحبيب السائدي روائي تونسي. صدرت له ست روايات ومجموعتان
قصصيتان. حاز جائزة الدولة للقصة عام ١٩٧٨ عن مجموعته، مدن
الرجل المهاجر. كما فازت روايته، عشاق بيّة، الصادرة من دار الآداب
بجائزة لجنة التحكيم لمدى كوميان للرواية في تونس عام ٢٠٠٢. تُرجمت
بعض رواياته إلى اللغتين الفرنسية والألمانية.

رفضاً للتمويل الأجنبي للنشاط الأهلي

موقف جمعية أنصار حقوق الإنسان بالإسكندرية

• عمر السباخي
وأشرف البيومي *

مسألة انغلاق فكري، خصوصاً أن الذين يحذرون من مفبة التمويل الأجنبي ويرفضونه هم في الوقت نفسه من دعاة التحالف مع كل القوى الشعبية العربية والدولية المناهضة للهيمنة والعنصرية والداعية إلى احترام حقوق الإنسان في فلسطين والعراق ومصر وأمريكا ذاتها وفي كل مكان كما أن المسألة ليست مجرد التشبث بموقف مبني، رغم أهمية ذلك.

لقد استند رفضنا للتمويل (رغم حاجتنا الملحة إلى الدعم المالي) إلى أسباب منطقية في بداية الأمر، ثم دعمته حقائق موضوعية وتنازع عملية متراكمة. وكل ذلك أكد صحة موقف الجمعية الرافض للتمويل الأجنبي، والإصرار على الطريق الصعب والصحيح في الاعتماد على التمويل الأهلي (رغم محدوديته بسبب حصار أجهزة الأمن). وقبل أن نوجز حيثيات رفضنا للتمويل الأجنبي نرى من الضروري أن نبعث قليلاً في منهج معالجة القضية التي نحن بصدها.

فعلى سبيل المثال، هل نقال المسألة جزئياً بأن نشير إلى غت الحكومات التي تضع كافة العقبات أمام عمل أهلي حقيقي، لكي تُخرج بنتيجة مريحة وهي أنه لا سبيل إلا التمويل

بانتهاكهم الصارخ لحقوق الإنسان، وبالتضامن مع رجال أعمال أميركيين... وكل ذلك يتم تحت شعارات التحرير والبناء ونشر الديمقراطية. كيف يُمكن إذاً أن يصنق عاقلاً أن الإدارة الأميركية يمكن أن تمكّل منظمات من أجل الديمقراطية وحماية حقوق الإنسان؟ وكيف يمكن أن نتصور أن الاتحاد الأوروبي صادق في دفاعه عن هذه الحقوق، حين يصنّت إزاء الجرائم البشعة التي ترتكها طيفه إسرائيل كل يوم؟ اليس من المنطق أن يكون هناك موقف فعال وواضح إزاء هذه الجرائم قبل التشبث بنشر الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان؟ وكيف نفهم للتمويل الأوروبي لهذه الأهداف النبيلة إلا بكونه توزيع أدوات لتحقيق الأهداف نفسها، وإن بأسلوب أكثر ذكاءً وأقل فجاجة؟

لقد تعمّقت جمعيتنا لإغراء التمويل الأجنبي في فترة مبكرة من نشأتها في منتصف السبعينيات، لكننا رفضه في حسم وإصرار. وكلما طُرح الموضوع أمام مجلس إدارة الجمعية نقاشه بموضوعية وجدية، وأنهى دائماً إلى رفض التمويل الأجنبي أيّا كانت مصادره. والأمراً بالتسبب إلينا ليس

تساؤلات عن التمويل الأجنبي

أصبحت قضية التمويل الأجنبي للجمعيات الأهلية، ولاسيما منظمات حقوق الإنسان في مصر والعالم العربي بل وفي العديد من دول الجنوب، موضوعاً ساخناً للحوار. ويبرز أهمية الموضوع عندما يتضح لنا كيف تستغل الإدارة الأميركية وحلفاؤها شعارات «حقوق الإنسان» ونشر الديمقراطية» لممارسة المزيد من الضغوط على حكومات «معتلة»، مستغلة أوجاعها لمزيد من الابتزاز والغرض مقلد أمام شمولها، أو لإزالة حكومات وقيادات منتخبة ديمقراطياً. والأمثلة على الممارسة الأخيرة كثيرة، ومنها:

– المحاولات الفاشلة لإزالة حكومة هوجو شافيز الشعبية في فنزويلا عن طريق الانقلابات العسكرية أو تشجيع وتمويل قوى داخلية لاستغلال الدستور من أجل عزله.

– احتلال العراق عام ٢٠٠٣ ومحاولة إخضاع شعبه بارتكاب أبشع الجرائم واكثرها انتهاكاً لحقوق الإنسان.

– إسقاط القوات الأميركية حاكم هايتي المنتخب ديمقراطياً أرسيتيد عام ٢٠٠٤، بالتعاون مع فرنسا وكندا، وباستخدام قوى محلية مناهضة للديمقراطية، بل وأفراد معروفين

♦ - رئيس الجمعية الفكرية، ونائب رئيسها، على التوالي.



كيف يمكن أن يُصدّق عاقل أن الإدارة الأميركية، التي تنتهك حقوق الإنسان في العراق وغيره، يمكن أن تموّل منظمات من أجل حقوق الإنسان؟

وحقوق المرأة، وحقوق الطفل... من أجل النفوذ إلى المجتمعات لتحقيق أهداف سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، قد أثبت نجاحه وفعالته. ولطالما استخدمه المستعمر سابقاً، ويستخدمه الإمبرياليون الجدد بكفاءة عالية، بالتعاون مع الليبراليين المحليين الذين يُطلق عليهم أحياناً «المارينز العرب». ويستطيع القارئ أن يراجع على سبيل المثال تاريخ الصندوق القومي (الأميركي) للديمقراطية كما جاء على موقع الصندوق نفسه: www.NED.org والذي يستقل منه ترجمة لبعض المقتطفات في آخر هذا المقال.

إن الأسباب الموضوعية لرفضنا التمويل الأجنبي هي الأسباب عينها التي جعلتنا نحرّ من مغفراً يسمى بـ «المعونة الأميركية» المتصلة باتفاقات كامب دايفيد منذ ربع قرن، وما نحن نجني ثمار هذه السياسة الحمقاء: تراجعاً شديداً لاستقلالنا الاقتصادي والسياسي والأمني، ومعاناةً معيشيةً للسود الأعظم من الشعب المصري في حين جُذِّتْ قُلَّةُ ثروات طائفةٍ وفُزِّرتْ أموالاً كـبيرةً إلى الخارج. ومن المستغرب أن يسوّق دماء التمويل الأجنبي اعتماد الدولة على المعونة الأجنبية لتبرير حصولهم على التمويل الأجنبي. فمن البهيمية أن من له

أسباب موضوعية للرفض

إنه من السهل أن يُتهم من يثير مثل هذه التساؤلات بالفكر التامري، وذلك لتففيه المواقف ونيزها وللهرب من البحث في هذه التساؤلات. القضية ليست مسألة متعلقة بأمانة الذين يحصلون على التمويل، ولا بمدى نفوذ ونوعية قيادات المنظمات الممولة، ولا حتى ببعض الفوائد الظاهرة والمباشرة المتحققة بنشاط هذه المنظمات، ولا أيضاً بمقارنة الجهات الممولة بعضها ببعض من أجل تقضيل هذه على تلك. إنَّها مسألة مرتبطة بمدى الإضرار بالمجتمع من قبل قوى تسمى إلى الهيمنة عليه من خلال تبني منظمات تابعة لها (على الأقل من حيث التمويل والبرامج) وعن طريق إضعاف العمل الأهلي الوطني المستقل. وهنا تلقى القوى المهيمنة المحلية مع قوى الهيمنة الأجنبية في هذا الهدف، ولكنها تختلف بشدة مع الأخيرة في محاولاتها إضعاف الدولة وإرغامها على قبول هذه المنظمات. وفي المقابل لا تكف الحكومات المحلية عن محاولاتها إحقوة هذه المنظمات، كما حدث مؤخرًا مع إشراك بعضها في المجلس القومي لحقوق الإنسان الذي شكّته الحكومة المصرية.

إن تبني قضايا هامة وجذابة مثل حقوق الإنسان، والتمييز الطائفي، وحماية حقوق مجموعات عرقية مثل النوبيين،

الأجنبي؟ وهل يكون هنأنا قاصراً على بعض الإنجازات هنا أو هناك، دون مراعاة للوسيلة التي تُسلكها؟ ألا يشكل هذا الأسلوب إهمالاً كبيراً لما يُخلقه التمويل الأجنبي من ديناميكية تؤدي إلى التبعية للقوى الممولة الآن أو لاحقاً، ناهيك عن الخضوع لبرنامج أولوياتها الذي قد يتناقض مع أهدافنا، تماماً، حتى وإن تلاقحت الأهداف الجزئية شكلياً؟ ليس من المهم الأخذ في الحسبان دور المنظمات الممولة في إحقوة بعض المثقفين الوطنيين، وما يؤدي ذلك من تفتيت لآل نواة تُجمعه؟ ليس جلياً أن القيادات التي تتركز على الساحة من خلال التمويل الأجنبي تختلف في نوعيتها عن تلك التي تظهر من خلال العمل الأهلي التطوعي؟ ألا يخل هذا اختراقاً حقيقياً للمجتمع يقلب الأوضاع الصحيحة، حيث تُتركز القيادات للمتصلة بالجامهين من خلال العمل التطوعي الأهلي لا العمل المخفوع الأجر أجنبياً؟ ومن الذي يقيم فائدة ومساوى التمويل الأجنبي لنظمنا؟ وهل يُمكن قيادة هذه المنظمات أن يقوموا بذلك، أم أن هناك تناقضاً صارخاً في المصلحة؟ وهل صحيح أن هناك تبايناً اسمائياً بين أهداف الجهات الممولة المختلفة، مثلاً بين التمويل الأميركي والأوروبي؟

الجمعيات الممولة أجنبياً تُضخم قضايا
تعتبرها المجتمعات الممولة مهمّة،
بعكس مجتمعاتنا

القدرة الذاتية للجمعيات، وأن تكون قوة هذه الجمعيات مستمدة من أعضائها ومن مصداقيتها ومواقفها الميدانية. هكذا يعتاد الناس العمل الجماعي الأهلي الذي يؤدي إلى توليد ثقة الناس بأنفسهم، فيتواصل عطاؤهم وتتراكم خبراتهم ويصبون قوة فعالة في المجتمع، فيعتدل الميزان ولا تُجور السلطة على حقوق الشعب. إن جوهر الديمقراطية الحقيقية هو المشاركة في القرارات، والشفافية، والتوازن بين كافة القوى، والمراقبة الشعبية، وضمان حرية وحقوق الجميع دون أي استثناء، واختيار الشعب قياداته بحرية وعلى كافة المستويات. إن من نتائج الديمقراطية الأصلية وأهدافها تفعيل أقصى لكل قوى المجتمع وكافة طاقاته، ومن ثم فإن أحد التساؤلات الهامة هو: هل يحقق التمويل الأجنبي هذه الأهداف أم يعوقها أو يساهم في إجهادها؟ إننا نرى أن التمويل الجاهز من جهات أجنبية يُعطل المشاركة الأصلية غير ضرورية، بل تصبح الأولوية للعمل الدعائي والشفاعات الشكلية بهدف ملء التقارير لضمان استمرار التمويل. وهذا لا يعني أن المنظمات التي تتلقى التمويل ليست لها بعض الإيجابيات، ولكن هذه الإيجابيات تتضال أمام السلبيات والمخاطر التي أشرنا إليها.

جوهري المهتمين بالعمل العام، ومنع بلورة الكتلة الحرجية اللازمة لقيادة تغيير حقيقي.

والأخطر من ذلك أن بعض المنظمات الممولة أجنبياً انصاع إلى توجيهات أجنبية، فشوّبت العمليات الاستشهادية واعتبرتّها انتهاكاً لحق من حقوق الإنسان. بل وساولت بعض هذه المنظمات تمويل مساواة الصهيونية بالعنصرية في مؤتمر ديربان عام ٢٠٠٢. وهذا يُضخّض بعض أهداف هذه المنظمات وأولوياتها. كما أن بعض قادة المنظمات الممولة أجنبياً سمحوا لأنفسهم بأن يكونوا أداة دعائية في يد مسؤولين في الإدارة الأميركية التي تُنتهك حقوق الإنسان في العراق كل يوم - وفصائح أبو غريب ما زالت ماثلة في الأذهان.

ولا بد أن نشير أيضاً إلى أن التمويل الأجنبي الذي لا يتميز بالشفافية أو الحاسبة المالية للجاندة يُفتح المجال للانصراف المالي، فضلاً عن أنه يتيح الفرصة للاجتهاد المالي لشخصيات معروفة بوصفهم مستشارين وغير ذلك، وإلى دعوة أعداد أكبر لحضور مؤتمرات عامة يسمى إليها البعض بدعوى الوجود على الساحة - وبذلك يُعطى التمويل الأجنبي مصداقية زائفة لهذه المنظمات.

ثم إن أحد أهداف العمل الأهلي هو بناء

السيطرة المالية واليد العليا في تمويل المنظمة هو الذي سيُفرض أولوياته واجندته على نشاطها، مهما كان دهاً وحسناً نوايا القائمين على تلك المنظمة. وقد لا يكون ذلك بصورة مباشرة أثير أو بدرجة كاملة، وإنما سيجيء الوقت الذي تصبح فيه أجندة الطرف الممول في قائمة نشاط المنظمة. وبذلك تُضيق القضايا الملحة التي ينبغي أن يدير حولها نشاط المنظمة، وتُضيق النشاط أولويات هامشية - بل ربما يتحول النشاط إسقاطاً من مجتمعات أخرى ذات ظروف وأولويات مختلفة.

وقد ظهر هذا الخطر جلياً في نشاط بعض جمعيات حقوق الإنسان الممولة أجنبياً، إذ اتّحمت على المجتمع قضايا تُعتبرها المجتمعات الممولة مهمّة، بعكس مجتمعاتنا، مثل حقوق المثليين. كما أنها تناولت قضايا أخرى لا شك في أهميتها مثل حقوق المرأة، ولكن من منظور ضيق اختزالي، بدلاً من اعتبارها جزءاً من قضية مجتمع يعاني كل أفراد من انتهاكات خطيرة لحقوقهم المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية إن خطورة هذا النهج تكمن في تفتيت قضايا المجتمع بعيداً عن المعالجة الشاملة، وبذلك تهب جوانب أساسية مثل المسار الاقتصادي أو نهج التبعية لقوى الهيمنة الأجنبية. كما تكمن في تشتيت



حاولت بعض المنظمات المؤكدة
أجنيباً تعويق مساواة الصهيونية
بالعنصرية في مؤتمر ديربان

في المرحلة الانتقالية بعد انهيار الاتحاد
السوفييتي وفي بورما وجنوب أفريقيا
والصين والتاييب وشمال كوريا
والبلقان... ويعد ذلك قامت الـ NED
بمعونة عدد من المجموعات المدنية، بما
في ذلك تلك التي لعبت دوراً أساسياً
في الانقلاب الانتخابي في خريف
٢٠٠٠. ومؤخراً، بعد سبتمبر ١١،
رُصد تمويلٌ خاصٌ للدول التي تمتوى
كثافةً سكانيةً مسلمة في الشرق
الأوسط وأفريقيا وآسيا...

خاتمة: دور الحكومة

لكل هذه الأسباب مجتمعة، فإنّ جمعية
انصار حقوق الإنسان بالإسكندرية
ترفض أيّ تمويل أجنبي، وتضع العبء
الكبير في هذا الموضوع على الحكومة
لا على المظنّ للتمويل الأجنبي وحدهم.
فوزارة الشؤون الاجتماعية تستطيع
بسهولة منح إعانات مناسبة للجمعيات
الأهلية من ميزانية الدولة التي يساهم
في إيراداتها دافعو الضرائب من
الشعب، دون أيّ شروط أو قيود سوى
الرقابة المالية لضمان الشفافية
والأمانة.

الإسكندرية

الصندوق القومي للديموقراطية: مقتطفات

والآن نعلي بعض المقتطفات من موقع
«الصندوق القومي (الأميركي)
للديموقراطية، NED» دون أيّ تعليق،
علماً بأنّ هناك معلومات بدأت تتراكم
في هذا الصدد سنحاول جمعها حتى
تكون مزيداً من الحقائق في متناول
الجميع.

«... بعد الحرب العالمية الثانية، واجهنا
تهديداتٍ لحلفائنا من الدول
الديموقراطية، فلجأنا إلى طرقٍ مقبّعة
وذلك بأنّ أرسلنا - سرّاً - مستشارين
وأجهزةً وتمويلًا لدعم صحفٍ وأحزاب
تحت الحصار في أوروبا. وعندما
عُرف في الستينيات أنّ بعض المنظمات
الخاصة الأميركية تُحصل على تمويل
سريّ من المخابرات المركزية الأميركية
لشنّ حملات فكرية في الحاصل الدولية،
فُرضت إدارة الرئيس جونسن إنهاء
هذا التمويل، وأوصت بإنشاء الـ
خاصةً وعلنيةً لتمويل نشاطاتنا وراء
البحر... وفي عهد الرئيس كارتر
أصبح الاهتمامُ بحقوق الإنسان
محورياً في السياسة الخارجية

الأميركية... وفي نهاية السبعينيات
اقترح... إنشاء منظمة غير حكومية
شبه مستقلة هدفها نشرُ حقوق
الإنسان، وإنشاء مؤسسة حقوق
الإنسان والحرية لتقديم المعونة المالية
والتقنية للمنظمات غير الحكومية في
الخارج، مثل مؤسسات الـ *stiftungen*
المُلقبة بالأحزاب الألمانية... وفي عام
١٩٧٩، في عهد الرئيس ريجان،
أنشئت المؤسسة الأميركية السياسية
لنشر الديمقراطية في العالم... واقترح
إنشاء الـ NED لتمويل ونشر
الديموقراطية في العالم ودُعيّ حوالي
٣١ مليون دولار لهذا الغرض، وكان
التسيق مع وزارة الخارجية والوكالة
الأميركية للتنمية البشرية - ومن
أهدافها تشجيع تنمية الديمقراطية
بالتناسق مع مصالح أميركا
والمجموعات التي تُحصل على المعونة.
وقد دُعيّ الكونجرس الأميركي تمويلًا
خاصًا للـ NED للقيام بمبادرات
ديموقراطية، بما في ذلك في بولندا عن
طريق منظمة التضامن العمالية Trade
Union Solidarity وشبلي
ونيكاراجوا... وشرق أوروبا للمساعدة

مأزق الحركة الناصرية السورية

من أجل قاعدة تفكير وعمل جديدة

. علي العبد الله *

التأسيس باقر

ما تزال الحركة الناصرية السورية تحمل سمة التأسيس. فقد وُلدت ونمت بالامتياز إلى الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في خلافة مع حزب البعث العربي الاشتراكي أواخر أيام وحدة ١٩٥٨، ومع نظام البعث في مفاوضات ١٩٦٣، وبعثت عند تلك المرحلة، ولم تضيف شيئاً ذا بال. وهذا ما جعلها، بعد غياب نالوم (عبد الناصر)، عرضةً للضعف والتآكل والتلاشي، فالذي لا يزيد - كما يقال - يُفقد. وقد ترتب على ذلك أن الحركة الناصرية السورية تواجه مأزقاً فكرياً وسياسياً.

فقد صوّرت الناصرية عن اجتماع ثلاثة عناصر: الرجل (عبد الناصر الذي يمتد، إلى جانب الصفات الشخصية، موقفاً صلباً من قضايا وطنه وعصره)، والبلد (مصر، أكبر قطر عربي، ويقع في قلب الوطن العربي)، والحرب الباردة (صراع الكتلتين الرأسمالية والشيوعية، وما فُرتة الكتلة الشيوعية لعبد الناصر من غطاء وإمكانات سياسية على التخلص من مشكلات كبيرة واجهته). وقد أحدثت الناصرية تأثيراً كبيراً في المحيط العربي، وكان من مترتبات ذلك

التأثير ظهور التيار الناصري في البلاد العربية، والذي تجسّد فيما بعد في أحزاب سياسية كـ «الاتحاد الاشتراكي العربي في سورية».

نشأ الاتحاد الاشتراكي العربي في سورية على مراحل، فظهرت نواته الأولى عام ١٩٦٢ بمبادرة من عدد من الشخصيات الوطنية التي أصبحت ناصرية مثل عبد الله جسومة وأحمد عيد العظيم. وفي المرحلة الثانية عام ١٩٦٣، تشكل «اتحاد القوى الحادية»، بانضمام «الجبهة العربية المتحدة» إلى «حركة الحاديون الاشتراكيين» - التي نشأت آنذاك من بعثتين تركيا الحزب احتجاجاً على موقفه من الوحدة والانفصال - والاتحاد الاشتراكي العربي. وفي عام ١٩٦٤ تأسس الاتحاد الاشتراكي العربي الثاني عبر مؤتمر ضمّ التنظيمات السابقة بالإضافة إلى حركة القوميين العرب وشخصيات ناصرية مستقلة في سورية بعد أن أعلنت حلّ نفسها وانتمائها في إطاره. ويُمكن تقدير طيبة الموقف والعلاقة بين الاتحاد الاشتراكي هذا وقيادة عبد الناصر من خلال قرار المؤتمر الثالث، حيث تبكّى البنية التنظيمية للاتحاد الاشتراكي في مصر وأخضع اللجنة المركزية ومكتب الأمانة العامة

ورئيسها في الداخل للأمانة العامة في الخارج (القاهرة). وكان تبرير ذلك هو «ضمان وحدة التنظيم لأن قيادات الداخل لم تصل إلى وحدة الفكر والتنظيم والسياسة، ولأن الأمانة العامة في الخارج لها صلات مباشرة مع الجمهورية العربية المتحدة (ج.ع.م.) وتستطيع إيجاد الصيغة الملائمة للتسيق معها». واعتبر المؤتمر الثالث «القيادة الحادية ل.ج.ع.م. هي المؤهلة لأن تضع استراتيجية للفضال العربي، وأن الاتحاد يجب أن يؤسس مواقفه بالانسجام مع خط ج.ع.م. وأن يجد صلات مباشرة تتأكد بها رابطة العمل الشوري الواحدة؛ ذلك لأن الاتحاد «قام على أساس أن يكن نواة الحركة العربية الواحدة في الإقليم السوري، ولأن قيادة ج.ع.م. هي المؤهلة لوضع منهاج هذه الحركة وتحديد معالمها على الصعيد العربي»^(١).

الإخفاق أمام الاستحقاقات

إلا أن هذه التركيبة، وهذا النمط من التعاطي مع الواقع السياسي، بالإضافة إلى طبيعة التجربة الناصرية باعتبارها لحظة نضالية ارتبطت بظروف محلية وإقليمية ودولية جعلتها في حالة صعود

* كاتب سوري. وهذا المقال أرسله الكاتبُ الصديقُ قبل فترة من اعتقاله في القطر السوري. وفي هذه المناسبة، نضمُّ أحرارنا إلى المطالبين بالإفراج الفوري عن هذا الكاتبِ الوطني الديموقراطي الشريف. (الأدب)

١ - بيان المؤتمر الثالث، أيلول ١٩٦٦.



يوسف غيباب الناصر،
تعرّضت الحركة الناصرية السورية
للضعف والتآكل

الناصر، دون أن تقوم بمراجعة بسيطة تميّز فيها بين ما يُمكن أخذه من التجربة وما يُمكن وضعه جانباً لارتباطه بشروط سياسية مصيرية. فالحال إنّ ما صدر عن الرئيس الراحل هو ابن حالة مختلفة: ابنٌ بلرله مواصفات وخصائص محدّدة، وابنٌ نظام له صفاته وظروفه وحساباته - وهذا قد يجعله غير مناسب لحالة أخرى، أو لا يتفق بالضرورة مع احتياجات حركة سياسية خارج السلطة في بلرله خصائص مختلفة. كما لم تستطع الحركة الناصرية السورية التمييز بين استراتيجية الرئيس عبد الناصر من جهة وأهدافه من جهة أخرى؛ ذلك أنّه لا يمكن تبني استراتيجية معدّدة إلا بشروط محدّدة^(٦)، بينما يُمكن تبني أهداف

عام ١٩٦٨ إلى جناحين (الجراح والأتاسي)؛ وفصل كوادرات الجهاز السياسي عام ١٩٧٢؛ ثم الانشقاق إلى جناحين (الأتاسي والكيالي - صفوان القدسي الآن) عام ١٩٧٣ على خلفية البقاء في «الجبهة الوطنية التقدمية» أو الخروج منها؛ بالإضافة إلى فصل عشرات الأعضاء على خلفية تفاعلهم مع حوار فكري هدّاه إقامة تنظيم عربي جديد نادت به حركة أنصار الطليعة العربية^(٧)، وترافق ذلك مع ضعف سياسي وتنظيمي، حتى قال الأمين المساعد الأسبق إنّ عدد أعضاء التنظيم بلغ حتى سبعينيات القرن الماضي ٢٦ إلى عضو، بينما انخفض عام ٢٠٠٤ إلى أقلّ من ذلك بعشرات المرات.

لقد تبنّت الحركة الناصرية السورية بدايةً كلّ ما صرّح عن الرئيس عبد

وهبوط وفق التوازنات التي أحاطتها في مراحلها المتعددة... أقول إنّ ذلك كلّهُ وُضِعَ الحركة الناصرية السورية أمام استحقاقات كثيرة وكبيرة، وعلى رأسها: تصليب التركيبة؛ وإغناء التجربة بالأسس النظرية التي تحرّرها من نقاط الضعف البنيوية مثل منهج «التجربة والخطأ» الذي اعتمده الرئيس عبد الناصر في مشروعه (وهو منهج جعل التجربة دون أساس نظري محدد يحدّها من ضيق ممارستها وتطوير خياراتها، ودون مستقبل واضح). ولما لم تنجح الحركة الناصرية السورية في أداء تلك الاستحقاقات، لقد دخلت في نفق طويل. وهكذا انسحبت حركة الوجدانيين الاشتراكيين عام ١٩٦٤، وبحركة القوميين العرب عام ١٩٦٦، كما حدثت انشقاقات مثالية: انشقاق

١ - فكرة طرّحها د. عصمت سيف النولة عام ١٩٦٨، في وثيقة أسماها «بيان طارق»، وحدّد فيها أسلوباً لإقامة تنظيم قومي يبدأ بمراحل تحضيرية يُتّسم فيها النشاط على الحوار الفكري من أجل تحديد أساس نظري للتنظيم، واختيار الأشخاص في ظروف العمل الجماعي، وممارسة السياسة في التنظيمات السياسية القائمة ویشا يقوم التنظيم القومي.

٢ - كان لتغيير استراتيجية عبد الناصر بعد هزيمة ١٩٦٧ دوراً مباشراً في الانشقاق الذي حصل عام ١٩٦٨ في الحركة الناصرية السورية ذلك لأنّ اللواء محمد الجراح لم يستطع التكيف مع شعار عبد الناصر «إزالة آثار العدوان، لكونه شعاراً يستدعي التصالح والتعاون مع نظام البعث في سورية» وأما الدكتور جمال الأتاسي فقد قبله، غير أنّه انطلق في عملية إعادة نظرٍ فيها بين عبد الناصر الثوري ونظامه البيروقراطي - وهذا أمر عصي على التصور - فاستمرّ في ولائه للول ولانتقد الثاني، وأضاف إلى بنيتهِ الفكرية الأفكار الماركسية التي راجت آنذاك حول البرجوازية الصغيرة والجبهة الوطنية التقدمية. دون أن يُعَدّ إلى تعارض ذلك مع البنية الفكرية السياسية للتنظيمية السائدة داخل حزب الاتحاد الاشتراكي العربي؛ وهذا أكرز حالة تفسّر تنكّرنا بقصة الغراب الذي أراد أن يقدّم مشية الطاووس: إذ قدّم كوادرات الحزب توازنهم بسبب الإضافات التي لا تنفق مع الجذر الفكري والسياسي الذي لم يتم التقطع عنه، ولم تدر الخيارات الإضافية بعد إعادة نظرية جديدة بل نتيجةً للانحياز إلى مناخ فكري سياسي سائد بفعل عوامل غير فكرية (هزيمة حزيران، وثمّ نسخ التجارب الخارجية.. إلخ)، فما حصل من تغيير ليس وليد العودة إلى الواقع واستنطاقه على ضوء الظروف المحلية والإقليمية والدولية، وإنما إجراءً مرةً ثانية إلى معطى خارجي يشكل من التشكّل.

أدى الفكر النظري الذي تعيشه الحركة الناصرية السورية إلى فقدان فرصة شق طريق جديد نحو المستقبل

في مصر، عن القيام بهذه المراجعة
المصرية على طريق فتح التجربة على
المستقبل بأسس نظرية وحلول عملية
جديدة (٢).

ولكن هذه ليست كل عناصر اللزق
الذي تعيشه الحركة الناصرية
السورية. فهناك الموقف السياسي
الذي تتبناه هذه الحركة وتمارسه، ذلك
أن النظام الذي أقامه عبد الناصر في
مصر اعتمد الأسس السياسية
والعملية عينها التي قام عليها نظام
البعث في سورية (خاصة في مسخته
التصحيحية): التركيز على دور القائد

أجوبة صحيحة ومعدة عن الأسئلة
التي طرحتها المتغيرات الدولية
الصاعدة والحاسمة في ظل عصر
الاتصالات والمعلومات، والاعتماد
المتبادل بين الدول، واقتصاد السوق...
إلخ. كما لم تسمع ظروف الصراع
العربي - الإسرائيلي والمتغيرات
الإقليمية والدولية للرئيس عبد الناصر
بمراجعة أسس مشروعه العملية
والنظرية، الأمر الذي أحال هذه التجربة
والوطنية الهامة إلى تجربة متراجعة. وقد
زاد من قتامة مستقبلها عجز الحركة
الناصرية السورية، بعد سقوط التجربة

عامة قد تصلح لأكثر من بلد عربي
بسبب مساحة التشابه. كما تجاهلت
الحركة الناصرية السورية أثر وفاة
الرئيس عبد الناصر في مستقبل
التجربة، وفي العلاقة بها (٣).

لقد غدت الحركة الناصرية السورية،
بعد غياب بطلها وأنهايار النظام
الناصري في مصر، دون مركز ودون
موجة. وأدى الفكر النظري الذي تعيش
في إسماره إلى فقدان فرصة شق طريق
جديد نحو المستقبل (٤). وهذا ما أوقفها
في ارتباك شديد حال دون صياغة

١ - رأى الأستاذ منير شفيق (وهو مفكر فلسطيني)، في حديث مع كاتب هذه السطور، انتهاء الناصرية «لأن لا ناصرية دون عبد الناصر» - وهذا الرأي
مرتبط بقرارة الأستاذ شفيق لطبيعة التجربة وارتباطها بطبيعة عبد الناصر الفكرية والنفسية. ورأى الدكتور عصمت سيف الدولة «أن الناصرية،
كانت ثورية، أصبحت بعد وفاة الرئيس عبد الناصر، وبعد أن تخلصت من العامل الذاتي في صياغتها، ممكنة، لكن بشروط هي: عملية جرد وفرض
تأمين أولاً بأن مستدعيات الثورة ومستدعيات الدولة في خطوات وقرارات الرئيس عبد الناصر، وبين الثابت والمتغير في هذه الخطوات والقرارات
والأسس النظرية التي استندت إليها، ثم أخذ الأفكار النظرية في آخر صيغة طرحتها، وبعدما أخذ بمنهج تفكير وصياغة وتركيب العناصر
للمستخرج من عمليات التجربة.»

٢ - في إطار التعليق على ضخامة المستوى الثقافي للناصرين راجت نكتة تقول: «تأخر ماركسي وناصري، مقال الأول للثاني إن عبد الناصر ليس أكثر
من برجوازي صغير، فرة الناصري بصيغة: «عبد الناصر برجوازي صغير» عبد الناصر برجوازي قد ركبناه»

٣ - جرت محاولة لمراجعة وتطوير الأسس النظرية للناصرية. فقد قام عصمت سيف الدولة، بالاتفاق مع القيادة الليبية، ومع السيد شعراوي جمعة (أحد
رجال عبد الناصر)، بوضع مشروع وثيقة فكرية بعنوان «نظرية الثورة العربية» تُعتمد على كل القوميين من الدارسين والمثقفين في البعث العربي
لئبثوا إراهم فيها مكتوبة خلال مدة معينة، فيقوم جهاز خاص بتلقي الردود وإعادة صياغة المشروع الأول على ضوء ملاحظات القوميين، ثم يُرجه
إليهم دعوى لعقد مؤتمر تسميهم يتم خلاله دراسة وإلوة وصياغة الوثيقة الفكرية لتعبر عن المبادئ التي يلتقي عليها القوميين ويتبنونها بها عن
غيرهم من القوى، ثم يضع المؤتمر لوائحه الداخلية التي تُكفل أن يكون التنظيم فوق قياداته في كل الظروف، ويتخبط القيادة، ثم تبدأ المسيرة. وقد
صدر مشروع الوثيقة بعد التغييرات التي حصلت في مصر (انقلاب السادات ١٩٦٥/٥)، واعتقال السيد شعراوي جمعة، ويوقف القيادة الليبية
مع السادات في خلافه مع القيادات الناصرية) باسم مؤلفه تحت عنوان «نظرية الثورة العربية». فوفد الدكتور جمال الاتاسي مؤلفاً سلباً من هذا
الكتاب وصاحبه، ورفض تقيمه بعد طبعه، وضيّع على كادر حزب الاتحاد الاشتراكي العربي فرصة المشاركة في حوار مهم كان سينقلها إلى سورية
فكرية أصق (راجع: د. عصمت سيف الدولة، عن الناصريين وإلهم (تونس: دار صامد، ١٩٨٩، ص ٥).

الفرد وصفاته الاستثنائية، احتكار الفصل السياسي، تلميم الدولة والمجتمع، إلغاء الحريات، فرض حالة الطوارئ والأحكام العرفية والمحاكم العسكرية والاستثنائية وأمن الدولة... إلخ - وهي متردبات نظام يُعتمد المركزية السياسية، وإمساك دُخْبِ وطنيته وتقدميته بإدارة السلطة سياسياً واقتصادياً بدلاً من القوى السياسية والاجتماعية. والحق أن هذه السياسة قد استعارها الرئيس عبد الناصر من التجربة السوفياتية أو اليوغوسلافية، فراح يركز السلطة في يده وحواله: فحسبُكَ الإدارة (تُضَعُ ضَبْطاً في الوزارات والمؤسسات والمناطق وفي إدارة شركات القطاع العام)، وحق الأحزاب^(١) وتبني نظام الحزب

الواحد. ولم يقلل من خطورة نظام الحزب الواحد تبنيّه لصيغة «تحالف قوى الشعب العامل»، واعتبار الاتحاد الاشتراكي تنظيماً جماهيرياً مفتوحاً^(٢)، فالإغاء الأحزاب الغي الحياة السياسية، وأخرج السياسة من المجتمع، وحول السياسة الرسمية المُقيمة إلى طقوس هزلية لتمجيد القائد وتكريس السلطة. وقد حوّل ذلك كله للنظام السياسي الناصري إلى نظام وطني تحكمه أجهزة أمنية وبيروقراطية أبعدته عن جماهيره وعظه الشعبي. ومع ذلك لم تستطع الحركة الناصرية السورية رؤية الخطورة الكامنة في قرار حل الأحزاب، وأراحت ضميرها بأن تبنت مقولة «فسساد تلك الأحزاب»^(٣)

إن قبول الحركة الناصرية السورية ممارسات النظام الناصري، وتمجيدها والدفاع عنها، ومعارضتها في الوقت نفسه للنظام في سورية مع أن هذا الأخير كان أن يكون نسخة كروية عنه، إنما تنكس عجزاً فكرياً وسياسياً^(٤)، وهذا يقود إلى ضرورة تحرد الحركة الناصرية السورية من هذا التناقض بالتحسّر من الولاء للنظام الناصري، وخلق قاعدة تفكير وعمل منطقيّة ومتسقة مع احتياجات الإصلاح والديموقراطية وإدارة معركة ناجحة ضد العدوانية الإسرائيلية - الأميركية ومواجهة المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

- ١ - لا يغسر فساد الأحزاب قبل الثورة قرار حلّها. ففي النظام الديموقراطي، ليس إصلاح الأحزاب من مهام السلطة، بل تقوم بذلك اليّة عمل النظام الديموقراطي على طريقة الإصلاح الذاتي؛ ذلك لأن صناديق الاقتراع تُجبر الأحزاب على إجراء تعديلات وإعادة نظر دائمة. وإن كان الفساد هو سبب حلّ هذه الأحزاب لسبب بتشكيل أحزاب جديدة، وهذا ما لم يحصل.
- ٢ - أوّل من ابتدع صيغة «تحالف قوى الشعب العامل» هو القائد الشيوعي الألباني سلطان غالي عام ١٩٢٧، وذلك في محاولته احتواء اضطراب الصيغة الطبقية الجامدة للحزب الشيوعي السوفييتي.
- ٣ - أكدت الخبرة العربية والدولية استحالة إنهاء الظواهر السياسية الحزبية الحقيقية. فقد شهّد كاتب هذه السطور إعادة تشكيل حزب البعث، بعد ربع قرن على حله، عام ١٩٧٧؛ وسمِع خطاب «الباشا» فؤاد سراج الدين، وفتاحات آلاف المحاضرين الذين حضّروا للناسبة في مقر نقابة المحامين في القاهرة، فبدت مصر وكأنّها في عام ١٩٤٥ كما أكد زلزال العراق صحة هذه الأطروحة. إذ تلا سقوط النظام الديكتاتوري في بغداد بروز أكثر من ٨٠ حزباً سياسياً. كانت أحزاباً دائمة القمع الدمي، ولكنّها عادت إلى العمل العلني بعد أن تبيل الظروف السياسي في البلاد.
- ٤ - وحده حزب الاتحاد الاشتراكي العربي، الذي يقوده السيد صفوان القديسي، تحرّر من هذا التناقض بالتحالف بالنظام في سورية في إطار «الجبهة الوطنية للتقدمية»، ووضعه في مرتبة مساوية للنظام الناصري إن لم يُقَفَّ. وهذا لا يعني بأيّ حال صحة هذا الموقف.
- ٥ - لم يرفع محازبو «الاتحاد الاشتراكي العربي الديموقراطي» في تطاهرهم لنص الانتفاضة الفلسطينية صور عبد الناصر وحده، بل بصورة الدكتور جمال الاتاسي أيضاً.

قبول الحركة الناصرية السورية
ممارسات النظام الناصري، ومعارضتها
في الوقت نفسه للنظام في سورية،
يمكن أن صجراً فكرياً وسياسياً

متطلبات فكرية للتغيير

ولكنّ ذلك ليس بالأمر السهل أو الممكن ما لم تتغير الثقافة السياسية السائدة في أوساط الحركة الناصرية السورية، حيث ما تزال الأولوية تُركّز إلى «القائد» و«القيادة» والولاء للزعيم على حساب العمل الجماعي والديمقراطي (٥) وقد كان لأتقاً ربط البرنامج السياسي الذي أصدره «حزب الاتحاد الاشتراكي العربي الديمقراطي» تراجع القدرة العربية على مواجهة الأخطار «بافتقار القيادة للرجعة

الجماعة»... كل هذا في زمن انهيار شرعية أنظمة الحزب الواحد (فما بالك بنظام الزعيم القائد الملهم الخالد!)، وفي زمن الانحياز إلى الديمقراطية التي تعني الاحتكام إلى الشعب في تحديد السياسات الاقتصادية والاجتماعية في ظل التعددية وتداول السلطة والحصول للسلطات بل إن الحزب المذكور لم يزل ضيقاً في تبني مقولة «قيادة الحزب للدولة والمجتمع»، شرط أن يأتي هذا الحزب إلى السلطة عن طريق صناديق الاقتراع

إن ثقافة سياسية يكون مركز تنبؤها شخص القائد لا أفكاره، ويكون منطلقها الولاء لهذا القائد لا للوطن والأمة، لا تستطيع إلا شخصنة السياسة وربط المستقبل بالقائد، وإن بقاء نمط تفكير كهذا لا يجعل تحقيق الأهداف صعباً فحسب، بل يجعل قيام تحريك سياسي فاعل ومثمر مستحيلاً أيضاً؛ ذلك لأن تفكيراً كهذا لا يمكن أن يفسر إلا العطالة والتواكل والدوران حول الذات.

دمشق

رابطة الكتاب العربية الأميركية تمنح الجيوسي جائزة إدوارد سعيد للتميز

منحت رابطة الكتاب العربية الأميركية د. سلمى الخضراء الجيوسي جائزة إدوارد سعيد، التي هي أرفع جائزة للرابطة، وذلك في أول مؤتمر للرابطة عقدته في مدينة فينيويورك (٣٠/٥/٢٠٠٥)، لتمييز د. سلمى في أبحاثها وكتاباتها ومستواها الأدبي ونشاطها. وقد قامت بتسليم الجائزة للفايزة السيدة مريم، أرملة المرحوم إدوارد سعيد، التي أقت كلمة في الحفل تكلمت فيها عما كان إدوارد سعيد يكتبه من إعجاب بكامل أعمال الأستاذة سلمى، وخاصة مؤلفها

التميز باللغة الإنكليزية حول الحصار العربية في الأندلس، The Legacy of Muslim Spain (إرث إسبانيا المسلمة)، الذي لم يترك جانباً من هذا الحصار لم



يأت على نقاشه وشرحه. وقالت السيدة مريم إن زوجها الراحل كان يقول دائماً إن مثل هذه الكتب هي التي تستطيع محاصرة المتحاملين عليها وتكتميم أفواههم وقد حصر الحفل العديد من الشخصيات المرموقة. كان منهم الدكتور كلوفيس مقصود.

من بسم أبو غزالة

إرث ياسر عرفات

على مساحك النخلة

بسام أبو غزالة *

الصراع مع العدو الصهيوني، وبطبيعة الحال، تَهْدُ الطامعون في خلافته، على اختلاف مشاربيهم ومبادئهم وأهوائهم، بالسير على دبريه وحمل مبادئه، أي «إرثه» الذي تركه بعد موته. وهذا تصرف متوقع، أكان المتكلمون صادقين في ما تصحّحوا به أم مُطْلَقين قعقعة جوفاء لا تصدّر عن طعن. فنحن ذا الذي يحاسبني سياسة العالم الثالث إن شطّحت السنخُتهم في الليل ومما شططتها النهار؟ وليس لنا إلا أن ننظر يوم ياتينا بالأخبار من لم نُبْعْ له بنائاً ولم نُضْرَبْ له وقتٌ موعد. فنحن كان يُسمّى أن يَخْلَفَ عبد الناصر نقيضه الذي كَسَنَ لآلات الضغوط التي كان سلفه الصالح من ورائها؟ ولا شك في أن وفاة عرفات أثارت كثيراً من العاطفة لفيما فيها من ناحية، ولأن المتوفى، من ناحية أخرى، كان قعيد حصار ضربه العدو على مقره منذ زمن، لا يُسمع له أن يخرج منه إلا منقياً عن أرض الوطن. ولعلّ العواطف تأجّجت أكثر حين أُصِيع أن موته كان يفعل سمّاً بطريفة أو بأخرى. لذلك لا مناص لبطانة هذا الزعيم المتوفى من أن تتعهد بحمل «إرثه» والصعود عليه، كما هتّدت صاحب الإرث في الحصار، ولم يبرح مقره إلا «شهيداً»، شهيداً، كما كان يركّذ يوم خروجه.

فيهم الشجاعة إن كُروا، والحصافة إن فُروا. وهم جميعاً فوق القانون، الذي لم يُشرع أصلاً إلا لنعماء العامة. في هذا المناخ ظهر الزعيم الفلسطيني الراحل ياسر عرفات، وفي هذه البيئة ترعرع وكبر شأنه، حتى جعله اتباعه ومريدوه رمزاً مقدساً للقضية، ووالداً للكثير منهم وللصغير - وهو بهذا لا يختلف عن غيره من زعماء العالم الثالث. فإذا حانت الساعه التي اختاره فيها ربه إلى جواره، بات أهل فلسطين إيماناً لا راعي لهم! فالحصابت المستيريا الكثيرون منهم، شأنهم شأن بقية شعوب العالم الثالث يوم يغيب الموت زعماءها الخالدين. لكن سنة الله ألا تتوقف الصبابة بموت أحد من البشر؛ وقد مات سيّدنا محمد، عليه السلام، فلما هاج الناس وماجوا صاح فيهم عمر بن الخطاب: «من كان يُعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يُعبد الله فإن الله حي لا يموت». فتاب الناس إلى رشدهم. وإن افاق الاتباع والمريدون من صدمتهم بموت الزعيم الفلسطيني، شَرَعُوا في الحديث معاً اسمه الصحافاً «إرث عرفات». وليس المقصود هنا، بطبيعة الحال، ما ذكره وراه من إرث مالي ضخم كان تحت تصرفه وحده لا شريك له، بل المقصود إرثه للبلد الذي استندت إليه سياسته في إدارة

الزعماء عندنا وعندهم

يُقسم العالم الثالث بنزعة إضفاء القدسية على زعمائه، وهي نزعة تجاوزتها الدول الصناعية المتقدمة منذ زمن طويل، فلم يعد في تلك الدول زعماء بل رجال دولة؛ والفرق بين التعبيرين واضح، فرجل الدولة - أرحل - كان أم امرأة - يتولى منصباً محدّد الصفات والمهام والمسؤولية، لمدة زمنية يحددها الدستور أو القانون، فلا يتجاوزها أبداً؛ فإن حاول القفز على حدود منصبه لم يلحق على نفسه من المساءلة القانونية التي قد تكلفه ذلك المنصب. وقد رأينا كيف جرّ القضاء الرئيس الأمريكي السابق، وُششارد بركسون، من رئاسة الدولة لصلووعه في فضيحة ووترغيت الشهيرة. ورأينا كيف خُلّق القضاء أيضاً مع الرئيس الأمريكي السابق، بِل كلنتر، في فضيحة الفتاة اليهودية، مونيكاً لوفنسكي، لبيدته أو يبرّكه من تهمة الكذب تحت القسم؛ ولو دُيّن القاضي كذبة لجرّته من رئاسة الدولة أيضاً. أما العالم الثالث، الذي نحن العرب بعض منه، ولعلنا خير من يعلمه فإنّه، من هذا المنظر، عالم آخر دونه والعالم المتقدم «بيد دُرْته بيد». فزعمائه جميعاً أبطال تاريخيون ملهّمون، تتقلّد من أفواههم الحكمة إن تكلموا، وتتجسّد

♦ كاتب فلسطيني.

يَتَسَمَّ الْعَالَمُ الثَّالِثُ بِغِيَابِ الْعَمَلِ
الْمُؤَسَّسِيِّ وَيَتَعَمَّدُ السُّلْطَاتِ الْحَاكِمَةِ،
وَضِمْنَتَهَا السُّلْطَةُ الْفَلَسْطِينِيَّةُ، تَغْيِيْبُهُ

عرفات وفتح: البدايات

حتى يُدْعَمَ المرَّةُ «إرث عرفات» لا بدَّ له من متابعة نشأة هذا الإرث تاريخياً، والمبادئ التي حكمت نشأته وتقلُّبَت متألِّفةً بالمتغيِّرات التي أُلْثَتْ بواقع الحال السياسي - فلسطينياً وعربياً وعالمياً.

كان ياسر عرفات الرجل الذي أسَّسَ «حركة فتح» عام ١٩٥٧، وصدر البلاغُ العمكري الأول في بداية ١٩٦٥ معلِّناً انطلاقاً الثَّوْرَةَ الفَلَسْطِينِيَّةَ المسلَّحةَ (١). أما البَدْءُ الإنْسَاسِي الذي قامت عليه الحركة فهو الكفَّاحُ المسلَّحُ لتحرير أرض فلسطين المحتلة. والمقصود بالأرض المحتلة طيِّباً تلك التي احتُلت عام ١٩٤٨، لأنَّ قيام «فتح» سَبَقَ هزيمة حزيران ١٩٦٧. وللترويج لهذه الحركة طَرَحَ مُؤَسَّسُهَا ضرورةَ غَضِّ النظر عن الخلافات اللَّبَنِيَّةِ أو تَاجِيْلِهَا، والتَّركِيزَ على هدفٍ واحدٍ لا يَختلِفُ عليه اثنان، ألا وهو تحرير فلسطين. ولقد استقطبت أفكارهم هذه الكَثِيرِينَ من أصحاب العقائد المختلفة. وبذلك تأسَّست «فتح» على ثلاثة مبادئ هي: (أ) تحرير فلسطين، (ب) الكفَّاحُ المسلَّحُ (أسلوباً) للتحرير، (ج) الاستقلالية التنظيمية عن أيِّ نظام أو تنظيم عربي أو دولي. (٢) ولم يطرأ فيما بعد أيُّ تغيير جوهري على

مبادئها حتى ٢٠ آب ١٩٩٣، يوم وقَّع بالأحرف الأولى في أوسلو وقد منَّظمة التحرير الفلسطينية (م. ت. ف.) الاتفاقُ المسَمَّى باسم هذه العاصمة النرويجية (٣). أمَّا التوقيع الرسمي في البيت الأبيض، المسَمَّى «إعلان المبادئ» يوم ١٣ أيلول من العام نفسه، والذي تولَّاه محمود عباس بحضور ياسر عرفات، فقد كان الزُخْرُفُ الشكليُّ للتوقيع في أوسلو. وإذا قلنا إنَّ المفاوضات في أوسلو كان وقد مَتَتْ، فإنَّ ذلك لا يغيِّرُ شيئاً من حقيقة أنَّ م. ت. ف. هي في الجوهر «فتح»؛ ذلك أنَّ الفصائل الأخرى والمستقلين في المنظمة لا يحرِّكون ما لا تريد «فتح» تحريكه، ولا يسكنون ما لا تريد «فتح» تسكينه. ولعلَّنا نقول أيضاً إنَّ أعضاء «فتح» لم يكونوا ليجرِّدوا ما لا يريد زعيمها التاريخي تحريكه، ولا ليسكنوا ما لا يريد هذا الزعيم تسكينه. لذلك نقول إنَّ «فتح» بقيت على مبادئها الثلاثة حتى توقيع اتفاق أوسلو، فتخلَّت بَعْدَهُ عن مبدأ تحرير كامل التراب الفلسطيني، واكتفت بالتفاوض على الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧. كذلك تخلَّت عن مبدأ الكفَّاح للسَّحْبِ وأرست قاعدةَ التفاوض، وإنَّ كان تفاوضاً أبدياً لا تُرَوَّحُ له نهاية. أما الاستقلالية التنظيمية فهو المبدأ الوحيد

الذي بقيت «فتح» متمسكة به، بل حصَّره في شخص الزعيم الذي كان مسؤولاً وحده عن كل شيء، مستغلاً فيه حتى عن أعضاء تنظيمه.

اتسمت بداية «فتح» بتقيصٍ كبيرة مازالت تجرُّ نفسها، كثيراً أو قليلاً، على مسيرتها إلى يومنا هذا. وبك هي اعتماضها بالإعلام المبالغ فيه، ولأسوأها في ما يخصُّ الأعمال العسكرية التي ينقُذها مقاتلوها في الأرض المحتلة. ولعلَّ مؤسسي الحركة ظنوا أنَّ ذلك يجلب الناس إليهم - وقد كان ظنُّهم هذا صحيحاً إلى حدٍّ كبير، لأنَّ العامة كانت متعلِّشة إلى قتالٍ من اغتصب أرضها وبيارها بعد أن تساللت عنها النظامُ الطُّرُقي العربي الذي لم يكن ليحسم نفسه أصلاً. وللأسف فإنَّ «الدهلوه» أصبحت سَهْ الكَثِيرِينَ من أعضاء هذه الحركة، رغم أنَّنا لا نُكْثِرُ طيِّباً إنَّ من بين أعضاء هذه الحركة الكَثِيرِينَ ممن كانوا جاثين في نضالهم.

وشمة عيب واضح آخر في هذه الحركة، وهو الاختلاف الحاد بين أعضائها. والغريب أنَّ هذا الاختلاف مازال موجوداً إلى يومنا هذا. ففي مقابلة مع فضائية الجزيرة في ٢٠ كانون الأول ٢٠٠٤، مثلاً، صرَّح طارق القدومي،

١ - ٢ - الموسوعة الفلسطينية (مشرق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٨٤، ج ١، ص ٢٠٤ - ٢٠٥).

٣ - محمود جاس، طريق أوسلو (بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٩٤)، ص ٣٦.



«فتح» بقيت على مبادئها في تحرير فلسطين وانتهاج الكفاح المسلح والاستقلالية التنظيمية، حتى توقيع أوسلو

واللجنة التنفيذية هو موقع ودور م.ت.ف. في المفاوضات، والخوف من تحول الوفد الفلسطيني إلى قيادة بديلة حتى لو لم يكن أي من أعضاء الوفد مستعداً للتفكير في هذا الموضوع؛ فالأمور ليست بالنوايا وإنما بالنتائج^(١). وقد أصّر أبو عمار على متابعة المفاوضات التي أعقبت احتفالات مؤتمر مدريد متابعة حثيئة، دافعاً الوفد الفلسطيني إلى تعريف نفسه بأنه وفد م.ت.ف. وأنه يتلقى تعليماته منه ويلتزم بها - وهو ما كان خطأً. كذلك كان يتكلم الوفد إلى التصلب في مواقفه، لا لنيل أكبر مكسب من المفاوضات، بل لإفشالها مادام رعاها قد تجاوزوا المنظمة وقيادتها. وفي الوقت نفسه، كان أبو عمار يبحث عن قناة سرية مباشرة للتفاوض مع العدو الصهيوني. وقد أخذت فرصة هذه القناة السرية تتعاطف بخروج الليكود من السلطة وفوز حزب العمل في انتخابات عام ١٩٩٢. وبعد جهش ومناورات وصلت رسالة أبي عمار إلى مسامع رئيس الوزراء الجديد، يتسمحاق رابين، ووزير خارجيته، شيمون بيرس، وبمساعدة حكومة الزويج وعمايتها، بدأت اهتمامات وفدي المنظمة والدولة الصهيونية في أوسلو. وبعد «مرحلة فائقة تصل حد

الإدارة أساساً لا بد لكل عمل ناجح من أن يبنى عليه.

«اختراق» أوسلو

أما قصة ما سُمي «اختراق أوسلو» فمعروفة نوافئها، مهما ألبست من سندس وإستترق. فمن المؤكد أن الأمة العربية عامة، ومسيرة التحرير الفلسطيني خاصة، انتكست بكنسة العراق في حرب الخليج الثانية، حتى أصبح الفلسطينيون في أضعف حالاتهم، ويات الأمريكيون متحكيين بمصير المنطقة العربية. يومها قررت إدارة بوش الأول حل القضية الفلسطينية كخطوة في سبيل إقامة ما أسموه نظاماً عالمياً جديداً، فسعت إلى عقد مؤتمر مدريد (١٩٩١/١٠/٣١)، واستطاعت أن تجر إليه الدول المعنية مباشرة بالصراع العربي - الصهيوني. وقد فرضت أميركا على حكومة شامير الليكودية أن تتفاوض مع العرب للوصول إلى حل للصراع القائم. وإذا اختير الوفد الفلسطيني للمشاركة من أهل المناطق المحتلة برئاسة د. حيدر عبد الشافي، أحسن أبو عمار بأن البساط يستب من تحت رجله وأرجل قيادة م.ت.ف. التقليدية. يقول ممدوح نوفل: «كان الهمم الطاغى على تفكير أبي عمار وعدد كبير من القيادة الفلسطينية

أخذ مؤسسي «فتح» والذي أصبح أميتها العام، أنه لم يكن أبداً موافقاً على اتفاق أوسلو. ويعل بعض قادة «فتح» اختلاف آراء أعضائها بالقول إنهم اتفقوا على أن يختلفوا ولا يتفرقوا. ولا شك في أن الاختلاف سبب الصياغة، وليس هناك تنظيم لا يختلف فيه أعضاؤه، لكنهم كلهم يلتزمون بما تتفق عليه الأكثرية، وبعد ذلك لا يستمع لصاحب الرأي المختلف بأن يظهر برأيه على الناس.

وكانت الفوضى أيضاً سمة من سمات المقاومة الفلسطينية عموماً، خاصة في بداياتها. لكن «فتح» وهي كبرى منظمات المقاومة، كانت أكثرها تسليماً وأقلها انضباطاً. وقد تجلّى ذلك أيام كانت تنظيمات المقاومة تعمل في الأردن، وحين ذهبت إلى لبنان نقلت معها أخطاءها ذاتها، وكأنها مصممة على ارتكابها. ولكن هريحين: لقد كانت التنظيمات الأخرى تشكو من انكباب قيادة «فتح» على تفسيرها بدل توجيهها في جبهة واحدة. أما «دولة الفاكهاني» التي روي عن أبي عمار رحمه الله، أنه استشهد بها ليدل على قدرته على إدارة الدولة الفلسطينية العنيدة، فحدث ولا حرج عن حال الفوضى فيها. ولا حاجة لنا هنا إلى التأكيد أن الانضباط والنظام وحسن

١ - ممدوح نوفل، قصة اتفاق أوسلو (عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩٥)، ص ٣٢.

كان وقد أوصلو من «السخاء» بحيث
وصف بيرس سهولة المفاوضات بقوله:
«كنا نظن أننا نفاوض أنفسنا»

وادي عربة عام ١٩٩٤، رأينا وسمعنا
رايين يصيحُ لأحد الصحفيين قائلاً
بوضوح: «إننا لم ننسحب من أي جزء
من المناطق [يعني غزة والضفة]، بل
أعدنا انتشاز الجيش». والسؤال الموجه
إلى القادة الفلسطينيين هو: إذا اتفقت
على الانسحاب، فلمَ لم تكذبوا أقوال
رايين المتكررة وتحثوا لدى مفارضيكم
بأنهم يصرون بخلاف ما اتفقت عليه؟
تعتقد أن هذه الحقائق، الصغيرة
شكلاً، تضي لنا بدهى تهاون المفاوض
الفلسطيني ومن وراءه. وهذا لتسالم:

أكان مرء هذا التهاون إلى أن الهدف
كان سلطة الحكم (وعلى الوطن العطاء)،
لم إلى عدم أهلية المفاوضين؟ أم مرءه
إلى التفكير الفهولي ثانية، بحيث تلعب
مع العدو لعبة الورقات الثلاث، تُدفعه
بها وتُسحب الوطن من بين أسنانه وهو
غافل عنه؟

أما إذا اتفقتنا إلى الحقائق الكبيرة،
مثل المستوطنات والقدس وسودة
اللاجئين وإنشاء الدولة، فإننا نرى
تناقضاً واضحاً بين ما تدعيه السلطة
وما يملكه العدو. فيعبد توقيع اتفاقية
أوسلو، صرَّح رايين في مقابلة مع
صحيفة «هافار الإسرائيلية»
(١٩٩٣/٩/١٩) أن «القدس ستظل
دائماً موحدة تحت سيادة إسرائيل،
وموقفنا يعارض إقامة دولة فلسطينية

الفصائل الأساسية (الفصائل العشرة)،
التي أصدرت بياناً من دمشق بتاريخ ٢
أيلول ١٩٩٣ اعتبرت فيه اتفاق أوسلو
«الصيغة» كاملاً للمقترحات الأمريكية -
الإسرائيلية. لقد تركنا، إذن، إلى هاية
التسلط التي يُدَّعى فيها النظامُ القُدريُّ
الصربي عامةً، بعد أن ظنَّ بعضنا أن
الديموقراطية في الساحة الفلسطينية
ستكون نبراساً للأمة العربية كلها!

ما تدعيه المنظمة (والسلطة) وما يدعيه العدو

نعم، تكلفت جهود قيادة المنظمة بنجاح
بأمر في اقتناص فرصة التفاوض مع
العدو. وقد اتفقت معه على «العودة» إلى
الضفة الغربية وقطاع غزة لإنشاء ما
أسمته «السلطة الوطنية الفلسطينية»،
في حين أن الاسم الرسمي المُتفق عليه
في المفاوضات كان «سلطة الحكم
الذاتي». وإلّا القارئ محوٌّ إن لم يُضغِر
كثيراً من الأهمية على التسمية، لكنَّ
الإشكال هو في محاولة الحصول على
المكاسب بالفولة - حتى في ما يتعلق
بالاسم. فلماذا لم يُصر المفاوضون على
الاسم الذي يُزعمون فيه ماداموا لا
يريدون تعبير «سلطة الحكم الذاتي»؟
وقد أظننت القيادة أن خروج جيش
العدو من المناطق التي أنيطت بالسلطة
إنسا هو انمساب، بل تحصيل. وفي

الاستعداد لتقديم التنازلات، للعدو،
حسب وصف مدوح نوفل، مقابل
تشهد الوفد الذي يرأسه حيدر عبد
الشافي بتعليمات من أبي عمار^(١).
اقتنعت حكومتنا رايين بأن استثمارها
في قيادة المنظمة لجدى لها من وفد
مديره. لذلك «نجحت» مفاوضات
أوسلو وتم الاتفاق على إعلان المبادئ،
كما ورنَّ أعلاه. ولقد كان وفد أوسلو
من السخاء بحيث وصف شيمون
بيرس سهولة المفاوضات بقوله: «كنا
نظن أننا نفاوض أنفسنا!»

ما يهيننا من هذا العرض التاريخي
الموجز هو السخاء الكبير الذي قُدمته
قيادة م. د.ف. للعدو في أوسلو في
سبيل إتجاح المفاوضات وفي سبيل
بقائها، وعلى رأسها أبو عمار، متمتع
بسلطة الملل الشرعي والوحيد للشعب
الفلسطيني، ذلك الشعب الذي لا يُظلم
شيئاً عما يُفعل له، و«السخاء» هنا تعبير
ملفَّف عن «التنازل». كذلك يجب أن
نشير هنا إلى الحافطة المرة المتوقعة في
تسلط قيادة م. د.ف. على المنظمة،
خاصةً حين تُتخذ مثل هذا القرار
التاريخي الذي يهبط بالفصائل العربية
الفلسطينية مائة وثمانين درجة دون
استشارة أحد من أعضاء المنظمة. وقد
رأينا الضيق الذي أحدثه هذا العمل،
والقطيعة بين تلك القيادة المتسلطة وبين



حين سُئل پيرس عن القدس قال:
«عرفات في حديقة البيت الأبيض
لم يَذكر القدس!»

الأوراق التي تصل إليه ... وثمة ظاهرة أخرى لا تقل خطورة عن ذلك، هي نشوء أزمات ومراكز مربوطة بكتيب الرئيس، لا بمجلس الوزراء، أي أن المسؤول عنها مباشرة هو مكتب الرئيس، وهي أشبه بممالك أو إقطاعيات صغيرة.^(١)

قد تُحدث معجزة وتغيّر القيادة الفلسطينية نهجاً. لكننا لسنا في زمن المعجزات. لذلك لا نتوقع من خلفاء أبي عمار أن يخالطوا النهج الذي انتهجوه منذ زلت أقدامهم في مستنقع أوسلو، إن لم يكن قبل ذلك. وهذا، باستقراء المواقف والأحداث، يعني ما يلي:

● الاعتراف لدولة الاغتيصاب الصهيوني بأن لليهود الآتين من كل بقاع الأرض حقاً في فلسطين يُقوّ حَقُّنا فيها. فعاداموا يحتلون ٧٨٪ من فلسطين، ومادمنا نعتزف بهمهم في هذه النسبة مكتفين بنسبة ٢٢٪ من التراب الفلسطيني الباقي لنا، فهذا يعني أن حقهم في فلسطين التاريخية يُقوّ

الثالث إلا بالبالغة في تغييب المؤسسات والعمل المؤسسي. كان أبو عمار، رحمه الله، كما وصفه عزمي الشعبي، عضواً المجلس التشريعي الفلسطيني، «يُلفض بصورة واعية التعامل مع المؤسسة بأي شكل من الأشكال، ولا يتعامل إلا مع الأشخاص. ورسائله كلها، بما فيها الموجهة إلى المجلس التشريعي، موجهة إلى (أشخاص).»^(٢) وحين قُدم يوماً بعض الوزراء، ومنهم حنان عشراوي، هريضة يطّلون فيها عقد اجتماع مجلس وزراء السلطة، كان جسواه أن لا داهي للاجتماع كجلس، وإن كانت عنده مشكلة فليراجعها بها. وهكذا، ألغى عملياً مجلس الوزراء كمؤسسة. وأدى هذا إلى نتائج مدمرة، أقلها غياب التخطيط والعقل الجماعي.^(٣) لقد «صار مكتب الرئيس هو المرجعية بدلاً من مجلس الوزراء، ونشأ مركز ثقل ونفوذ جديد اسمه «العاملون في مكتب الرئيس» - وبعضهم أهم من كثيرين من الوزراء بسبب قريه من الرئيس وتحديد

بيننا وبين الأردن.^(٤) وفي مقابلة مع الصحيفة نفسها (١٩٩٣/٩/٢٤) وصف شيمون پيرس الدولة الفلسطينية بأنها «قصاصة من ورق.»^(٥) وحين سُئل عن القدس قال: «عرفات، في كلمته في حديقة البيت الأبيض، لم يَذكر القدس. وقابل ذلك بكلمة الرئيس المصري السادات في الكنيست ... فقد تحدث السادات في الكنيست من القدس، [ولكن] عرفات في البيت الأبيض لم يتحدث عنها.» والسؤال هو: لم لم يتحدث عرفات عنها؟ أمرٌ باب المناورة، أم لإيماناً بعيشة المطالبين بها؟ رحم الله فايز الصايغ يوم كان يحضر «مناظرة» الحل السلمي من إشفاق باب التحرير في وجه الأجيال القادمة!

غياب المؤسسات

يُسمّ العالم الثالث بغياب العمل المؤسسي ويعتبر السلطان الحاكمة تفقيبه. ولا تختلف السلطة الفلسطينية في هذا عن غيرها من دول العالم

١ - نُشرت ترجمة المقابلة في مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ١٦، خريف ١٩٩٣، بيروت، ص ٩٤. كذلك يورد إسرائيل شاحاك في كتابه الاسرار المفضوحة (لندن: مشهور بلوتو، ١٩٩٧)، ص ١٦٢، تصريحاً لرايين نُشرتها جريدة يدعوت احرونوت بتاريخ ٧ ايلول، يؤكد فيها أيضاً ما زُيد امله، بالإضافة إلى تكيده التمسك بالسلطة على المستوطنات، وإعادة انتشار الجيش (لا انسحاباً) من «مواقع نحددها نحن وحدنا» بكلمات رايين. كذلك أكد راين لعضو الكنيست نتتياهو في حوار جرى بين الرجلين في الكنيست حين طلبت حكومة رايين مصادقة الكنيست على الاتفاق في ٢١ ايلول ١٩٩٢. وقد نُشرت ترجمة الحوار في كتاب حصن الشلبي وعدنان السيد حسين، سلم أوسلو (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٩٥)، ص ١٣٦ - ١٢٨.

٢ - ٣ - ٤ - ٥ مجلة للدراسات الفلسطينية، مصدر مذكور، ص ٩٨، ١٠٠، ١٢١، ١٢٢. للتفاصيل راجع في هذا المصدر ندوة عزمي الشعبي، ص ١٢٨ - ١٣٦.

على السلطة أن تعيد لمنظمة التحرير
أمر تمثيل الشعب الفلسطيني في
الداخل والخارج

الدولة الصهيونية - من رابين وبيسر
عقب توقيع اتفاق أوسلو إلى شارون في
مؤتمر هيرتسليا الأخير - يصرون على
ما يلي: لا لتقسيم القدس؛ لا لعودة
اللاجئين؛ لا لدولة فلسطينية بين الدولة
الصهيونية والأردن؛ لا لإخلاء
مستوطنات الضفة الرئيسية.

مرة أخرى سيقول قائلهم: ماذا نتوقع
من شارون، المعروف بطرفه بل
وإجرامه؟ وهذا يفتح لنا باب العجب
من تلك اللهجة المتمسكة التي اتبعها
الناطق الرسمي باسم السلطة الذي لا
يكل ولا يمل من ترديد القول أننا دعاء
سلام، وهم لا يريدونه! ما هذا
الاستبداء الذي لا يليق إلا بالشاء
والثمة (كما قال المتنبي)؟ ما الذي خيّر
لغتنا، أعني لغة المنظمة وفتحنا اللتين
كانتا أيام العنقوان مُمَثَرخان عالمًا
بأننا سنقاتل وإن نستسلم حتى تحرير
فلسطين؟

بعد عرفات

بعد وفاة عرفات بدأ العالم يتحرر، وكل
يقتفي على ليلاه، ومامننا تنكمن عن
الإرث، فكل من له علاقة يتهافت عليه
كما تهافت الفلكة على قصبتها، إلا
هذا الشعب اليتيم. قيل: «لا بد من
الانتخابات»، فجزر الانتخابات البلدية
فعلًا، وبمستوى يليق بهذا الشعب

بعودة بعض اللاجئين لا كلهم، ويعترف
بأن الدولة الصهيونية يجب أن تبقى
دولة يهودية».

● التخلي عن القدس الشرقية للدولة
الصهيونية... هذا إذا سُمح لنا بالصلاة
فيها، على أن نحافظ على أبنائنا وحسن
تصرفنا، ومادامت الدولة غايثًا المقدسة،
فما المشكلة في دولة بلا قيس؟ ليست
الولايات المتحدة دولة عظمى رغم أن
القدس ليست عاصمتها؟

● القول بعدم تفكيك المستوطنات الكبيرة
ويضئها إلى سلطة الدولة الصهيونية،
في سبيل عدم تعويق الاتفاق، خاصة أن
العدو على استعداد لمنحنا أراضي من
صحراء النقب تعويضًا عن الأراضي
الخضراء التي صادرها!

إن كل ما ورد أنما ممكن جدًا لسبب
بسيط، هو أن العدو قُرئ سلطانًا - وقيل
للمفاوض الفلسطيني قراره - أن يؤجل
القضايا الكبرى إلى آخر المفاوضات،
معطيًا نفسه الحق بالاحتفاظ بمواقفه
بالنسبة إلى الحل الدائم^(١) وقد لا تنتهي
المفاوضات قبل خمسين عامًا، بل أبداً،
كما صرح شامير في مؤتمر مدريد،
وعندها يأخذ المفاوضات الصهيونية ما
يريد بحكم التقادم والأمر الواقع. ونحن
نقضي قولنا هذا على استقرار تصريحات
القادة الصهيونية وتصرفات المسؤولين
في السلطة. فمنذ توقيع أوسلو كان قادة

حقًا! وهذا يقودنا إلى سؤال يُبرك في
النفوس المرارة: إذا كانت م. ت. ف.
أخذت شرعيّتها من تصريح كامل
التراب الفلسطيني، وإذا قامت «فتح»
على مبدأ الكفاح المسلح لتحرير كامل
التراب الفلسطيني، فهل تبقى
لوجودهما شرعية حين تتقلمان إلى
استجداء الفتات من أرض الوطن؟

● شطب حق عودة اللاجئين. ذلك أن
الملح على أحاديث أعضاء القيادة فيما
بينهم يُعلم أن المتفكرين منهم غير
مقتنعين بإمكانية عودة اللاجئين،
وطبيعي أن من لا يقتنع بفكره، لا
يُحسم الدفاع عنها. أضف إلى ذلك ما
صنّ من بعض المسؤولين من اعتراف
صريح بيهودية الدولة الصهيونية، أو
بعدم واقعية المطالبة بعودة اللاجئين؛
وأخر ما صدر في هذا الصدد مشرورع
اتفاق جنيف، الذي آتانا به ياسر عبد
ربه بالاشتراك مع «صديق العرب»
يوسي بيلين. وما كان لسعد ربه أن
يُدخل في مثل هذه الشرايع بدون
موافقة عرفات؛ ذلك أن هذا الأخير
أظهر تأييده لبادرة جنيف بأن أرسل
مندوبه، د. منويل حساسيان، إلى مكان
الاحتفال في جنيف حيث التي كلمة
السلطة. وقيل أن يكون الحوك على هذه
الافتقائية، صرح الرئيس الراحل المندوبي
جريدة هاريس (٢٠٠٤/٧) بأنه يُقبل

١ - الحوار بين رابين ونيته في التكتيت بتاريخ ٢١ أيلول ١٩٩٢، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ١٦ خريف ١٩٩٣.



لا نتوقع من خلفاء عرفات أن يخالفوا نهج في الاعتراف بـ «إسرائيل» وشطب حق العودة والتخلي عن القدس الشرقية والقبول بعدم تفكيك المستوطنات الكبيرة

لزاماً على السلطة أن تُثقف أموال الشعب الفلسطيني على البنية التحتية والخدمات، في حين أن ذلك واجب مفروض على الاحتلال. ولم يعد ذلك بخير أفضل على الشعب؛ فالضرائب الريفية لم تخف، إن لم تزد، بل صوّرت على أنها واجب وطني، وتُعدّ المتخلف عنه خائناً لوطنه؛ والخدمات لم تتحسن، إن لم تُسوّ؛ وجردان الفساد تناسلت وسمنت.

وهذا يقودنا إلى الدعوة إلى الاكتفاء بانتخابات المجالس البلدية، وإلى أن تُخسر السلطة عملها بالإشراف على البلديات، وأن تُفكّض يدها من السياسة، وتعيد لمنظمة التحرير أمر تمثيل الشعب الفلسطيني في الداخل والخارج تمثيلاً سياسياً. فهذا من شأنه ألا تكون المنظمة، معطلة بالسلطة، تحت قبضة الاحتلال، ويُنَادى كل نقاوض حول القضية بالمنظومة لا بالسلطة.

ولكن ينبغي الاعتراف بأن المنظمة في بنيتها الحالية ليست أحسن حالاً من السلطة؛ فلا بد لها من أن تعاد هيكلتها وتحسن إدارتها ويوسّع نطاق تمثيلها. ولا شك في صحة ما يريده الكثيرون أننا ما زلنا في مرحلة تمرير، لا في مرحلة بناء دولة. أما المتهافون على الدولة فليترسّوا قليلاً، لأن الوطن والأرض أغلى من الدولة وأغلى من جواز السفر.

لهم سلطة في الضفة وغزة، خاصة أنه لم يُصنر عنهم تصريح واضح ببلين موقفهم المهدّد من هذه المسألة.

وأما تجرية السلطة في الضفة وغزة فتستدعي ملاحظتين: الأولى، صفّة الفساد والمحسوبية وبسوء الإدارة، والثانية، عجز السلطة في ظل الاحتلال عن فعل أي شيء، مؤثّر منذ أوسلو. ولعلنا نسال في هذا المجال: ألم ترد في زمنها وتيرة الاستيطان؟ ألم يقوّر الاحتلال بنيته التحتية حين اشتدت الانتفاضة؟ ألم يحاصر رئيسها في مقره حين لم يعجبه التعامل معه؟ وهنا يجب ألا ننسى أن لانتفاضة الأقصى تفهّرت بسبب استقراء الاستيطان وتكالب الاحتلال على الأرض، فكانت دليلاً واضحاً على فشل أوسلو وفشل السلطة التي خرّجت من رحم أوسلو. لكن قائلهم يزعم أن اللّعة هي في عسكرية الانتفاضة.

لا يا سيدي؛ لو أن اتفاق أوسلو أعطى ولو بصيص أمل لهذا الشعب المنكوب، ولو كانت السلطة خاتمة حقيقية لشعبها، لآ قامت الانتفاضة، لا بشكلها السلمي ولا بشكلها العسكري. أضف إلى ذلك أن وجود السلطة جَبَل العالم ينظر أن هناك دولتين تتقاتلان على أرض «مستنزّعة» عليها، لا شعباً مغلوباً على أمره يؤثر على الاحتلال. كذلك أصبحت سلطة الاحتلال في جزء من مسؤولياتها القانونية تجاه الشعب المحتل، فأصبح

المكافح، ولكنّها لم تكن الأولى كما يُزعمون. فقد كانت هناك انتخابات بلدية حرة أثناء الاحتلال، إذ تحولّت البلديات آنذاك إلى حكومات محلية، فكانت الاحتلال، الذي حلّ المجالس المنتخبة في سبعينيات القرن الماضي، بل حاول اغتيال بعض رؤساء البلديات (بسام الشكعة، كريم خلف). ولا شك في أن انتخابات المجالس البلدية أمر مستحسن، لأنّه لا بدّ من وجود هيئات تسيّر أمور الناس اليومية لكنّ المشكلة هي في انتخابات رئاسة السلطة؛ إذ كيف يكون لهذه الانتخابات أهمية وطنية في ظل الاحتلال؟ وهذا يقودنا إلى الحديث عن امرئين: (أ) تمثيل السلطة جزءاً من الشعب الفلسطيني دون الجزء الأكبر؛ و(ب) تجرية هذه السلطة السلبية منذ قيامها في الضفة وغزة.

فأما الأمر الأول فيطرح بدوره امرئين: (أ) مَنْ يمثّل فلسطيني الشتات؟ و(ب) ألا يؤدي ذلك إلى تجميع حقهم في العودة - ولا نتكلم هنا عن الحق القانوني الذي لا يصحح بالقديم، بل بالإهمال وفرض الأمر الواقع؟ وكلنا على علم بما تراجعه الدول المضيفة للاجئين من ضغط لاستيعابهم، وبإغراء شباهم بالهجرة إلى دول غربية بفتح أبواب العمل لهم. ولكن وأضحى: إن قادة المنظمة قد أداروا ظهورهم لفلسطيني الشتات يوم تفعّلوا اتفاق أوسلو وأقاموا

الأرقام الهندية

بين العربي واللاتيني

. شريف يحيى الأمين *

الحساب الهندي بين العرب والمسلمين. ذلك لأنه كان منقطعا إلى خزنة الحكمة للمؤمن ومشجعه على تأليف هذا الكتاب كما ذكر. وقد ألف هذا العالم المسلم كتابا كثيرة يبين فيها الأرقام الحسابية بما فيها الصفر، ويشرح في كتبه كيفية إجراء العمليات الحسابية بتلك الأرقام شرحا علميا شمله العديد من الأمثلة. وبذلك أصبح من السهل الجمع والطرح والضرب والقسمة باستخدام هذا الحساب. وعاد الهنود، مع الفتوحات الإسلامية، فتعلموا استخدام الأرقام والصفر مرسوماً نقطة. إذ إنهم لم يكونوا قد استفادوا من الأرقام التي وضعوها ولا من الصفر الذي أوجدوه، وبمهمتها الأرقام العربية، كما أوضح ذلك الدكتور عمر فروخ، علماً أن الأرقام والصفر ظهرت في كتب عربية ألفت منذ سنة ٧٧٤ هـ قبل أن تظهر في الكتب الهندية.

وقد أحسن العرب والمسلمون استخدام الأرقام الهندية، ونشروها في كل بقاع المسلمين، وبعد ذلك انتشرت في كل أرجاء المعمورة. وهم لم يتسبوا هذه الأرقام إليهم، بل إن السعدي يؤكّد تسببها في الهند في ما رواه من أن علماء الهند أخذوا من جملة ما أخذوا من العلوم - زمن أول ملوكهم، وهو

الدولة الأموية لتسليمهم التدوين والكتابة إلى الأعاجم، حتى قام عبد الملك بتعريب السجلات - ولكن من حيث اللغة فقط، أما من حيث الحساب وعملياته فقد أبقى على الحروف اليونانية.

ولما شيد المنصور بغداد، أفضى يؤم هذه المدينة كثير من الناس من مختلف البقاع والطبقات، وكان من بين هؤلاء هندي أسسه كنكة، عالماً بالفلك والحساب، ومعه كتاب يبحث في أصول الحساب والأرقام، فأعجب به المنصور، وطلب من إبراهيم حبيب الفزاري (توفي سنة ١٦١ هـ) نقل هذا الكتاب إلى العربية، وعُرف باسم سند هند، ومعناها «دهر الدهور» كما يوضح المسعودي. وقد يكون هذا المعنى للامزمة الحساب والأرقام للدهور، ولأهميتها لكل العصور والأزمنة. وعُرفت هذه الأرقام منذ ذلك الوقت بالحساب الهندي، وسازلت كذلك حتى يومنا هذا، ولكنها كُتبت بخط يوافق ويحاكي الخط العربي في مختلف مراحلها وعصوره.

وقد أخذت هذه الأرقام أهميتها العلمية الحقيقية على يد محمد بن موسى أبي عبد الله الخوارزمي (توفي سنة ٢٢٢ هـ)، مخترع علم الجبر والمقابلة، ومنبع

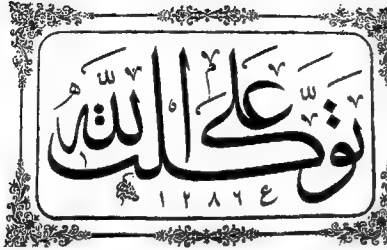
نرجحت معظم وسائل الإعلام العربية على استعمال الأرقام الحسابية العديدة لترقيم الصفحات وذكر التاريخ وأرقام الهواتف ودرجات الحرارة بالخط اللاتيني: 1, 2, 3... متوهمين أن هذه الأرقام عربية، بدلاً من الأرقام ١ - ٢ - ٣... المكتوبة بالخط العربي.

ويظهر أن جامعة الدول العربية، كما علمت، أصدرت في أواخر القرن الماضي تعميماً رسمياً تطلب فيه استعمال هذه الأرقام. ولا ندري على ماذا اعتمدت حتى طلبت مثل هذا الأمر؛ ولعلها هي التي شجعت هذه البدعة.

والواقع أن العرب لم يُعرفوا هذه الأرقام، بل كانوا حتى يعد تعريب الدواوين يُكتبن بالحروف كما يُلغون: مثلاً: ثلاثة آلاف فارس (لا ٣٠٠٠ فارس). حتى إن كبار المؤرخين لزموا هذه الطريقة عند ذكر السنين مثل الطبري والمسعودي وابن الأثير؛ فمن ذلك كتاب الأخير: «وبخلت سنة ثمان وعشرين وستمئة»

ولما كانت أكثر البلاد العربية قبل الفتوحات الإسلامية خاضعة لحكم الرومان، فإن الحروف اليونانية، لغة الحكام، كانت هي المستعملة في الدواوين. وبقي هذا الأمر شائناً في

• كاتب من لبنان.



لنا الأمل الكبير في العودة إلى
كتابة الأرقام بالخط العربي

وأما في الغرب العربي، فإن السبب في استعمال الأرقام والصورف بالخط اللاتيني هو نتيجة للفرنسة، الموازية والمصاحبة للاستعمار الفرنسي. وهم يقومون، بعد نيلهم الاستقلال، بعملية تعريب شاملة. كما أنه لم تختف كلُّ الأرقام العربية فضلاً عن اللغة العربية، كما هو واضح من الصفحة الأولى لجريدة لسان المغرب الصادرة بتاريخ ١٩٠٨ مثلاً.

وقد عُثِر على قطعة نقد من عهد الملك روجر الثاني، ملك صقلية، تحمل تاريخاً مكتوباً بالأرقام العربية ١١٢٨م، ومعها نقش عربي (تاريخ العرب ص ٦٩٤). كما أن المستشرق الإيطالي الدكتور مارتينو ماريو مورينو أفاد في كتابه المسلمون في صقلية (ص ٢٠) أن النقود التي ضربها النورمان سنة ١٠٩١م كانت حاملة - بجانب اسم روبر، أخي روجار - الآية ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الثِّبَانِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾. وكانت السنة المرقومة فيها هي السنة الهجرية.

الخطان في الشكل

وعن المفيد إجراء المقارنة بين الخطين العربي واللاتيني. فمن الواضح أن التشابه الوحيد بينهما هو بين الرقعتين واحد وتسعة. ثم إنه من الممكن كتابة

والمختزعة والمختلفة حديثاً والتي انتشر استعمالها، حسب رأيهم، في الأندلس. وليصح هذا الانعاء أو نفيه علينا أن نعود إلى الآثار الباقية في الأندلس الإسلامية العربية لنرى التواريخ الموجودة من هذه الآثار في الجوامع والقصور والمقابر وغيرها، إن ثبت وجودها ولم تعف آثارها، ووثائق التراث الإسلامي في مكتب الغرب. وقد ورد في كتاب تاريخ العرب (حتي، جرجي، ج٢، ص ٦٥٧) أن الأرقام الفخارية رومانية الأصل، وقد عُثِرَت في إسبانيا قبل مجيء العرب، وأشير في الحاشية إلى مصنفين، أحدهما مقدمة ابن خلدون ص ٤؛ ولكني لدى تفتيشي في المقدمة لم أَعثر على أصل لهذه الرواية، لا في الصفحة المشار إليها ولا في الفصول المتعلقة بالأعداد أو الهندسة أو كتابة الخطوط.

وإلى سؤالي بعض مؤلفي السفارة الهندية في بيروت، بعد أن أطلعهم على صورة الأرقام على أساس الزوايا، أُنكر وجود هذه الأرقام الكتابية، وقال إنهم في الهند حالياً يستعملون اللغة الإنكليزية وأرقامها (لغة المستعمرين)، وإن عندهم أكثر من خمسين عمالة خط - وهذا مشابهاً لما ذكره ابن النديم في كتابه الفهرست بأن في السند (إحدى مقاطعات الهند) أكثر من مائتي قلم أي خط.

البرهن الأكبر والملك القديم والإمام فيها - هذه الأحراف التسعة الصيغة بالصباب الهندي.

لماذا سميت بـ والعربية؟

وأما سبب تسمية هذه الأرقام بالعربية فقد جانا من الغرب، وتأينهم عليها بعض العرب، وروموا أنهم اكتشفوا ما لم يكتشفه غيرهم. والمالة أن الأيايا سلفستر الثاني (٩٤٥ - ١٠٠٣ م) المنذور والصد، والذي نرس في بلاد الأندلس، أخذ من علماء المسلمين أشياء كثيرة، أهمها الرياضيات وعلم الحساب، وألقنها، ولما اعتلى كرسي البابوية في أواخر حياته (٩٩٩ م) أمر بنقل هذه العلوم إلى اللاتينية، ومن ضيئتها كتب الخوارزمي مع غيرها من الكتب، وسميت بعد ذلك بالأرقام العربية (les chiffres arabes) لأنها أخذت من العرب والمسلمين. وأصل الكلمة عربي (مفر)، ومنه صيغت «شيفرة»، ثم عُربت. وقد جُذبت هذه الأرقام بطريقة تناسب الخط اللاتيني وتشاكله وتنسجم معه.

وقد وردت بعض الروايات الحديثة تفيد بأن الهنود كانوا يكتبون بـ برقيتين: إحداهما الخط العربي للشمري: ١ - ٢ - ٣ -... والثانية الفخارية لأن الهنود كانوا يسمونها على مسطحات من التراب الناعم على أساس الزوايا،

الم يبق من عروبتنا
إلا أرقام هندية
بخط لاتيني نتمسك به؟

ونشير في النهاية إلى حساب الجُمَّل، أيّ توين الأرقام والأعداد الحسابية بالأحرف بالإنجليزية. ويبدو أنّ هذا الحساب قديم، وقد أشار إليه الجومري (المتوفى سنة ٢٩٢ هـ) في الصحاح. أما كيفية استخدامه عملياً فليس عندنا من الوثائق ما يبينها بدقة. ولكن يُكثر في عصرنا استعماله عند تاريخ الولاة أو الوفاة، كقول المرحوم الشيخ شهاب المصري يرني إبراهيم باشا ومؤرخاً وفاته سنة ١٢٦٤ هـ:

«هـمضى وقت مؤرخاً: الله يرحم من
مضى

٦٦ - ٢٥٨ = ٩٠ - ٨٥٠

« ١٢٦٤ هـ »

أصلنا الكبير

وبالنهاية فإنّ لنا الأصل الكبير من الجميع في العودة إلى كتابة الأرقام بالخط العربي: ١ - ٢ - ٣ - ٩٠٠، لا بالخط اللاتيني، حتى نكون متسجمين مع أنفسنا وشخصيتنا، وبكأنه لم يبق من عروبتنا إلا أرقام هندية بخط لاتيني نتمسك بها!

جنوب لبنان

النيسابوري يُبين شكل الرقم «ثلاثة» مقلوباً من اليسار إلى اليمين. وقد اتُفحنا يوسف زعلالي في ملحق العربي صوراً نادرة عن الأرقام بالشكل الهندي والعربي وبنوعين وشكليّين من الخط اللاتيني، ويتبين أنّها ليست على نسق واحد، ولمّعه حصل عليها من بعض الموسوعات العالمية والفرق بين الخطّين العربي واللاتيني واضح ومختلف كلياً: فالصفر بالعربي نقطة، وباللاتيني دائرة؛ ثم إنّ الكتابة بالخط العربي تبدأ من اليمين إلى اليسار، وباللاتيني تبدأ من اليسار إلى اليمين. أما بالعربي فإنّ النطق يبدأ من اليمين إلى اليسار، ولكنّا الآن نُلَفِّظ من الواحد إلى المئة بصورة صحيحة فنقول مثلاً: ثلاثة وعشرون وتسعة وتسعون؛ وإذا زاد العدد عن المئة فيبدأ الخط، خطأً، من اليسار إلى اليمين، مثلاً: ١١٩٧٣: فبالأصل أنّ نقول ثلاثة وسبعون وتسعمائة وأحد عشر ألفاً، أيّ كما هو مكتوب ويشقّ واحد، أما حالياً فنقول أحد عشر ألفاً وتسعمائة وثلاثة وسبعون.

الأرقام بالخط العربي على أساس الزوايا دون أن يعني ذلك شيئاً خاصاً: فقد تغيّرت كتابة الخطّين العربي واللاتيني وفقاً للخطاطين والتفنن في الخط وتزيينه وتحسينه وفقاً للذلات المستعملة في كتابته. ثم إنّ الخطّ اللاتيني اقرب إلى الهندي لأنّ الأصول متقاربة بين الشعوب الهندو - أوروبية.

أما بالنسبة إلى الخط العربي فإنّه بقي محافظاً على كثير من شكله، ما عدا الرقمين ٤ و ٦. إنّ أنّ الإيرانيين، وهم يستعملون الأحرف العربية للغة الفارسية، مازالوا يكتبون بالطريقة القديمة للأرقام.

ومع أنّ الأستاذ حسن قاسم حيش الببائي في كتابه الرائع والمتعنفالاس الخطّ العربي لم يتحدّث عن كتابة الأرقام، فإنّه نُفِصَ صور بعض الخطوط للآيات والأحاديث والأدعية، وكان بعضها مزيّلاً بالتاريخ بالأرقام. وفي إحدى وثائقه يظهر خطان مزيّلان، الأول بتاريخ ٤٠٨ والثانية بتاريخ ٤١٤. كذلك نُفِصَ صورة عن الخط

مَغْنَجُ... اسْمُهُ الشَّعْرُ

. عماد فؤاد *

كلُّ ليلةٍ،

مَكْمَنُ القنصرِ،

وَيُسَكِّرُهُ لِيَبْدُنَا المَعْتَقُ.

يَقْفُ تَحْتَ رَحْمَةِ السُّوءِ المَوْشَى

وِغَزَالَةُ الشَّاطِرِ.

لَكِنَّهُ كُلَّمَا شَرَبَ،

بِالظَّلَالِ.

كَانَ يَكْتُبُ لِيَمْحُو،

بِحُبِّ العِثْمَةِ،

♦ ♦

مَلْعُونٌ

وَيَعُو لِيَكْتُبِ.

حَامِلُ الحَرَرِ

يَمْشِي سَاحِبًا خَلْقَهُ مَرَبًّا مِنَ اليَوْمِ،

يُمْسِكُ بِيَدَيْهِ خَنَاقَ جِثَّةِ اسْمِهَا

مِنَ النَّحْلِ،

المَعْنَى،

أَمَكُرُ مِنْ ذَنْبٍ فِي الخَلَاءِ،

مِنَ مَلِكَاتِ النَّحْلِ.

يُمْسَحُ بِكَرَامَتِهَا الأَرْضُ

نَاهِيَّةُ:

أَمَامَ عِيُونِنَا

وَاخْفُ مِنْ رِيحِ

جِرْحِهِ المَفْتُوحِ عَلَى وَقْعِ الحُطَى.

وَيَضْحَكُ،

عَلَى أُرَاقِ الشَّجَرِ.

يَحْطُ قَدَمًا فِي الهَرَامِ،

رَافِعًا رَايَتَهُ الحِمْرَاءَ فِي نَدَى اللَّيْلِ،

وَأُخْرَى عَلَى الأَرْضِ.

كَأَنَّهُ امْتَلَكَ اللَّعَاتِ

♦ ♦

تَعْرِفُ،

لَيْسَ بِرَاقِصٍ،

أَوْ وَرَثَ اخْتِمَاهَا.

لَكِنَّهُ غَنَدُورٌ.

لَكِنَّهُ يَتَخَفَى فِي سَمْتِ الفَرَسَةِ.

يَقُولُ:

مَغْنَجُ ابْنِ اللِّفِيمَةِ،

حَاقِلُنَا صِيدُهُ مَرَارًا.

يَمُرُّ عَلَى الصَّبَايَا فِي النَّهَارِ

كَمَا تُعَدُّ لَهُ شِرَاقِنَا فِي الفَجْرِ،

وَيَهْمِسُ لَهْنٌ فِي خُلُوةِ اللَّيْلِ:

نَسْنُ سَكَاتَيْنِ وَرَثَتَاهَا عَنْ جَدُودِنَا

« يَا شَقِيقَاتِ رُوحِي

المَلِيَّتَيْنِ.

لَا سُلَالَتِي أَجْمِيتُ غَيْرِي،

فِي اللَّيَالِي الَّتِي لَا يُنِيرُهَا قَمَرٌ

وَلَا رَفَعْتُ مَحَبَّتِي البَيضَاءُ

فِي الشَّجَرِ. »

نَفْرَشُ طَرِيقَهُ بِالْفَخَايِرِ،

عَنْ أَبْدَانِي المَخْلُصِينَ.

♦ ♦

كَمَا نَفْثُهُ عَرَبِيدًا

وَنَقُومُ مِنْ نَوْمِنَا كُلِّ صَبَحٍ

وَأَنَا أَنَا

يَدُوحُ مِنْ كَامِرٍ

لِنَرَاهُ يَدُوسُ عَلَى عَشْبِ الأَرْضِ،

ابْنُ لِلْمَصَادِفَةِ،

♦ - شاعر مصري مقيم في بلجيكا. أصدر ثلاث مجموعات شعرية.

فَتَصْلُحُ أَجْرَاهُ الْمَعْلُومَةُ فِي ثِيَابِهِ
لَتَخْتَبِي فِي جُحُورِهَا كَلَابُ الشَّوَارِعِ
وَتَصْرُخُ فِي الْبَرِيَّةِ
بَنَاتُ آوَى.

♦ ♦

مَا مَتَّعَنَا عَنْهُ

لَيْسَ الْحَوَافِ

وَلَا رَهْبَةٌ أَنْ يَكُونَ فِي حُوزَتِنَا؛

لَا ذَهَبَ الَّذِي يَمُمِي عِيُونَنَا؛

وَلَا لَقَمَتُهُ الْمَغْمُصَةُ فِي مِلْحِ التُّشْرُدِ؛

لَا لَفِصَّتُهُ الَّتِي تَبْرُقُ فِي الْأَمْسِيلِ

الْغَرِيبِ،

وَلَا ثَوْبَهُ الْمَهْلُوهَ الَّذِي يَجْقِفُهُ

عَلَى فُرَاعَةِ الطُّيُورِ فَوْقَ الرَّابِيَةِ.

لَكِنَّهُ شَيْءٌ بِهِ،

لَوْ مَسْكَنَاهُ مَرَّةً

فَقَطْ،

لَوْ أَا

♦ ♦

مُخْفُورًا بِأَسْرَابِهِ،

بِصَلِيلِ أَجْرَاسِهِ،

بُتُورٍ عَيْنِيهِ اللَّتَيْنِ تَتَسَمَّانِ،

بِرَمَّةٍ شَعْتِيهِ الْعَاضِيَتَيْنِ،

كَأَنَّ يَحْشُرُ بِقَدَمَيْهِ الْحَافِيَتَيْنِ فَوْقَ

ظِلَالِنَا

فَنَشْعُرُ بِخَفَّةٍ خَطْوِهِ الْهَشِّ

فَوْقَ صُدُورِنَا،

وَعَيْنُنَا رَفِيفُ أَجْنَحَةٍ غَامِضَةٍ.

♦ ♦

ابْنُ الْحَرَامِ

يُظَلُّ بِدُورٍ عَلَى عَقْبِيهِ أَمَامَ عِيُونِنَا

هَازِنًا مِنْ تَخَاذُلِنَا،

مِنْ رُؤُوسِنَا الْهَنْئِيَةِ فِي مَذَلَّةِ

الْخُسْرَانِ،

مِنْ دُورَانِنَا وَنَحْنُ عَالِدُونَ

فَارِغِي الْأَيْدِي،

لَيْسَ سِوَى

كَدْمَةِ زَرْقَاءَ فَوْقَ شَفَاهِنَا

مِنْ عَضَةِ النَّدَمِ

مِصْر - بَلْجِيكَا

قصائد من العراق

. سامي مهدي *

أبناء إبننا

هي جمعة في الأرض فارقت السماء
وآثرت هذا المكان

داراً لها، واستوطنها وهي تفتش الجنان
وتقول: يا خيل الزمان،

ها نحن نبدأ؟

فالسبابة من هنا، وهنا ساعطي
الصولجان،

فيكون من ولدي ملوك،

ويكون كهان تساويهم شكوك
من قرط تقواهم،

وبناؤون باليد والبصيرة واللسان.

يكر هي الأشياء تحلم أن تكون

فتكون بالاسماء ينطقها البنون

ويستقون لها الصفات

ويزينون بها الحياة

ويكلمون الله دون تلقى، أو شفعة،

وكانهم أبناء للتألهون،

ويعمرن الأرض فهي بما بنوا فيها بلاد:

مدن، وآلهة، وكهان، وأبطال شيداد
ومواطون

«سود الروس» مهذبون

ويعون أكثر من رؤى كهانهم
وأبر منهم عندما يتعبدون.

مدن، وكل مدينة حلم بالف غدا
سعيد

ويكل ما تهب المواسم من حصيد:

ذهب مصقى في الحقول،

وغلال من فضة في الليل تفتشر
للماعي والسهول،

والزروع انضرم ما يكون،

والضرع اغدق ما يكون،

ولكل مجتهد نصيب في الحصاد.

مدن كنار

ومراقى اكتظت بما جلب التجار

من لازورد، أو عطور، أو نضار،

ويكل ما حملوه من خشب ومن
حجر ليزدهر الديار:

فسفان تأتي إليها من «ملوخا» أو
«مكنا»،

وقوافل تترى عليها من بعيد من بعيد

تما وراء الشمس والافق المروق بالوعود.

والكون، بعد، طراوة وعدوية تحت

اللسان

«ذو الروس السود» منهمكون
في تدوين تاتاة الزمان
شعراً، وتنظيم الوجود،

ولكل مجتهد نصيب في الخلود.

لكنها، وا ويلها،

مدن مسورة،

وكل مدينة تحذت لها ملكاً تجبر
وادعي أن الإله

هو من حباه للملك، فهو مفوض في
ما حباه

وغلا، فأعلن أنه «ملك الملوك»

ولا ملوك لهم سواه.

مدن مبعثرة،

وكل مدينة تبغي على الأخرى،

وتؤثر نفسها بجميع ما طمحت إليه
من أراض أو مياه،

فإذا «الروس السود» يلعن بعضها
بعضاً،

ويقتل بعضها بعضاً،

فلا السهلاء يرتدعون،

لا الزهاد يقتنعون،

♦ - شاعر ونائد من العراق الحث.

لا الحكماء يحتكمون،

كلٌ يذبح وصلًا بليلى،

وفي جارية تولولُ في حماه،

مدنٌ تلُوب

من الشمالِ إلى الجنوبِ

فالمرت داخلها وخارجها يصول،

كالغولِ يلتهمُ الفرائسَ في البيوتِ

وفي الدروبِ.

مدنٌ يحاربُ بعضها بعضًا فهلكها

الحروبُ

وتدكها دكا، فلا عمرانٌ فيها،

لا معابد، لا مدارس، لا مراتع، لا حقول.

وليس ثمة من عزاء

لمُشرّديها الهائمين سوى التفجّع

والبكاء.

أرايت شعبًا وهو يتخذُ البكاءَ

طقسًا،

ويبحث عن قتيلٍ

يكيه في كلِّ لواسمٍ والفصول؟

أرايت شعبًا وهو يُبدعُ للعمويلِ

فنا،

يسميه «الراء»؟

هو ذلك الشعبُ المذنبُ لا سواءَ من

الشعوبُ

سَلْ «أور» عنه وكم لها في ما رثاها

من نصيبٍ

وسلَّ الطُفوفَ وكم بكى فيها على

ذكرى شهيدٍ

فكانه نذرته «إيننا» لكي ينمى،

وكي يلدَ النعاةُ

جيلًا فجيلًا، ثم ينتظر الطغاةُ

أو الغزاةُ

كي يحملَ البلوى وينمى من جديدًا

أفما لهذا الشعبِ من ثوبٍ جديدٍ للحياة؟

انظُرْ فقمضهُ طواحينُ الحروبِ؟

أو ليس للأحياءِ من ربي سوى ريقِ

النعاة؟

أيظلُّ هذا السوسُ يَنخرُ أكبدَ الباكينَ

جيلًا بعدَ جيلٍ؟

أو ما هنالك للمحيّةِ من سبيلٍ

غيرَ التفجّعِ في المقابرِ والبكاءِ على

الطلولِ؟

تَمُوزُ مات؟

أجل، ولكن الربيعُ

يأتي إلينا كلَّ عامٍ

ويفضُّ أختامَ الصروعِ،

ويربُّ بالضحكاتِ اتساعَ الزروعِ،

ويضيءُ بالاقتمارِ اكتشافَ المعابرِ

والدروبِ،

فتخفُّ أجنحةُ الحبيبِ إلى الحبيبِ،

ولا ملام.

تَمُوزُ مات؟

أجل، و«إيننا» قضت،

والعالمُ السفليُّ غصَّ بمساكنيه،

فقيمُ ندفعُ بالزيد؟

إنّا هنا الأحياءُ، نفعلُ ما نريدُ،

ونستطيعُ،

إن كانَ فينا من يحنُّ إلى جديدٍ،

غيرِ الأذكاراتِ الحروبِ،

وغيرِ انقاضي الكلامِ.

فهلمْ ننفُضْ ذلكَ الإرثَ الجديدُ

عنا، ونمسخنَ القلوبَ بما تؤمِّلُهُ

القلوبُ،

ونعيدَ تشكيلَ الحياةِ بما تريدُ لنا

الحياةُ

كي نكتبَ الفصلَ الأخيرَ

بغيرِ ما اعتدناهُ من رغوِ الختامِ.

وادي الذموع

سوف لا اكتب إلا ما أراه

سوف لا أمحو سوى فاصلة ما بين
صوتي وصداه

وأرد القول بالقول على نفسي

إذا ما غمغت: واضيعة!

سرقت في الليل «الواح القدر»

سرقت، فاضطرب الكون ومادت
بالبشر

مرء الأرض، فعضف وكسوف،

وعزتها من قراري العالم السفلي آلاف
الشياطين

صفوا فصفوف،

ولسنت فيها الطواعين فصرعى بالآلوف،

ومياه الأنهر اسودت بما ألقت به سود
الحفوف،

وطنى الموت فما عاد أحد

يسأل العابر عن أم له لم يرها، أو عن
وكد

ضاع في الموتى،

ولم يبق شجر

ثابتاً في أرضه،

أو حجر بين الحجرج

فهو موت متقن الصنع، وقتل عبقري
في زمر.

وقف الناعي على الاطلال واستسقى
الغمام

ورثى الاموات والاحياء،

حتى صددت كل مراتبه واعياه الكلام

فبكى، واستغفر الله، واقعى في
الظلام.

ما الذي يعطيه للموتى وللأحياء
نوح وعويل

غير ما يعطي دليل لدليل؟

من ترى يفتح أسوئاً بأن الموت برة
وسلام؟

من ترى يفتح أحياء بأن العيش في
أقبيع الوحل اكتمال وانسجام؟

أيها الموتى،

انلتم ما أردتم من سلام في القبور؟

أيها الأحياء،

هل أبقى لكم من سرقة «الالواح»
شيئاً لقد غير القشور؟

صمت الأحياء والموتى،

وكان الصمت ناقوس الختام.

أبداء، لن تحبل الأرض بشيء أو شجر.
أبداء، لن يصفو الماء، ولا الزهر يضيوع،
أو ترق الرياح، أو تندى الضروع.

أبداء، لن تحسب الأموات في وادي
الدموع.

أبداء، لن يرقص الأحياء في ضوئ
القمعر،

أو يغنوا تحت زخات المطر،

أبداء، لن يهدأ الأموات، أو يتزين
الكون،

و«الواح القدر»

في يدي تبين هذا العصر،

يلهبها ويطويها كما شاء، ويلهو
بالجموع كيفما شاء: دمي دون خطراً

فمن الصنديد؟

من يصطاد هذا الوحش؟

من يريده؟

من يسترجع «الالواح»

كي توقد في أعراسه كل الشموع؟
لم يزل في الحفر السوداء نبض ودبيب.
لم يزل في دارس الاطلال جمر ولهيب
يتثران الشرر المضمر ورداً في الدروب
ويضيغان لمن يأتي السبيل.

لم تزل ترمضُ في أقصى المدارِ

لجمة خضراء كالعشبِ وترنو في
انتظارِ

لحظة المسرى إلى الوادي،

وتلويح الدليلِ.

لم يزل لُمةً من يقرعُ بابَ الصمتِ

في الليلِ الطويلِ.

لم يزل لُمةً من يبحثُ عن مختطفِ

«الالواح» و«الالواح»

في جوف البراري والسهولِ.

لم يزل لُمةً من يعرفُ إلا مستحيلًا

اصحاح الرادي على قرع طبول؟

أُننادٌ صباح في الأحياءِ والموتى وما

أسمع رجيع من نداءه؟

سوف لا أكتبُ إلا ما أراه.

سوف لا أمحو سوى فاصلة ما بينَ

صوتي وصداهُ

وأردُ القولَ بالقولِ على نفسي

إذا ما رُئمت: يا فرحته!

شكرًا

إلى شاعرٍ غير عراقي يقترح على شعراء عراقيين
أن يشكروا المختلن!

منقولها :

«شكرًا»!

وماذا بعد؟

هل تصفوكَ للأشياءِ أو تجلو، بها؟

وهل الجسدُ سوى غبارٍ كان في

جيب القدمِ؟

فكيف تطلبُ أن ينبعَ دمُ البلادِ بدمعها؟

لسنا من الغيمِ المُحْمَلِ بالضفادعِ

والوحوّلِ،

ولا من التطفُّلِ المُدنَّسِ الهجينةِ.

نحنُ غُرَّتُها، البلادُ،

فكيف تطلبُ أن نخالطَ في معبثها؟

الأننا، كلاماً، نقرحُ الحياة،

وكالرياحِ نُذيبُ ثلجَ الليلِ؟

أم تخشى أصابعنا التي تفتضُ

اختتامَ البراكينِ الحبيسةِ؟

ذهك من حلكِ النكايةِ، فهو مرٌّ،

والثيابُ ثيابنا،

وخيوطننا أولى برزقِ خسوفِ أولها

وأخبرها،

وأما أنت فاستغفر لنفسك عُثرها.

ما كنتَ يوماً كاتباً في «نفر»

أو راعياً في «بابل».

ما كنتَ إلا ذلكَ المنفرجَ الأعشى،

فكيف ترى، إذن، ما يصيغُ الأشياءُ

بالدمِ والدخانِ،

ويطعمُ الغريانَ من لحمِ الأودمِ؟

ذهك من سَمِّ الوشايةِ،

فالوشاةُ هنا جرادٌ،

لا مزبدٌ على تنطعهم،

وقد فاضتْ بهم سوئُ العمالةِ

والبطالةِ.

فانتحلْ لكِ حرفةً أخرى،

إذا جاوزتَ سبيلَ الشعرِ،

وانقطعَ البريدُ

بغداد

أسرار حروف أحمد ياسين ♦

• صالح الرجال ♦•

حرف الألف	اصطفاه،	العرء.
اصطفى الله أحمد ياسين،	وإن ينشر الحق من جسد مُقعد،	فقامت على أربع، فانتشين، لترفع هذا الدعاء:
فاصطبأ ملائكة العرش،	فانتشر...	
والنبيون كلهم حول نعشه قائمون.	وكان الإله الرحيم القدير السميع	«إلهي القدير العلي،
تهلل حشد النبيين،	العظيم العز	سدوم ذككت حجارته،
قال الذي عن يمين السماء:	يتميم في ذاته:	أرضها أصبحت قاع بحر ^(١) قتيل
هو الغيث يصب هذي البطاح،	أحمد ياسين هذا رضى، روضة،	من الملح،
ولا غيث إلا إذا اختلط العظم باللحم،	سيرة للبشر.	قام على كل كل الجرمين،
والماء بالثراب،		فابعثن - سيدي - صاعقه،
حرف الحاء		آية حارقة.
وانسربت قطرة ها هنا في عروق الصغور.	حمد الحاكم العربي إله الجنود،	يهودا، الذي مدّ روعي على خشية الصلب،
اشربوا - أيها الحشد - هذا التبيد الإلهي،	وقدم كل الأماني المبررة	يصليني من جديد.
كأساً على يوم مولده،	للقائد العسكري وقد جرحته إصبعة،	ويهوذا المرائع
وكاسين يوم آتته البلايا،	وكان يجرب بارودة الصبيد،	ما زال، والعسكر القادمون من الغرب
وخافية حين استوى بيننا في السماء.	يضغط فوق الزناد	بأثمرون على إرث هذي البلاد،
وقال الذي عن يسار:	ليفتح نافذة في دماغ الصبي محمد.	ويدعمهم من هنا فاجر،
حرف الميم		
كأنني وقد طال مكث الحقيقة في الجسد الاحمدي،	مرم هذا المشهد البربري:	من هناك سليل النبوات والهرطقات،
دعوت له الله أن يصطفيه،	احترق وحرق وتحريق أوصالهم في	يقولون: إن المسيح المسيح

♦ - استشهد في ٢٢ آذار من العام الماضي. (الآداب)

♦♦ - شاعر من سوريا.

١ - هو البحر الميت أو بحيرة لوط، وكان قاعه أرضاً تقرى لوط وقد غطاهما هذا البحر المالح بعد فساد أهلها وغسف الأرض بهم.

قادم، قادم فوق هذي الجبَّت.

يا مسيح السلام الحبيب،

يهودا الذي باعك الأُمس

يُرفعك الآن في هذه اللحظة الفاصلة

مُعلماً للحروب، وموتاً لهذي البلاد،

وسيقاً لرب الجنود.

فأعلن أي شيء يُعيد النقاء السلام،

إلهي، إلهي .

حرف الدال

دُمهُ أَحْمَدُ صَبَاحٌ وَشَمْسٌ

وَنَسِيمٌ وَسَلْسَلٌ وَابْتِهَاجٌ.

أَحْمَدُ، أَحْمَدُ، حَنَانُكَ مَهْلًا

لَا تُغَادِرْ، يَا إِيَّاهُ الْمَرَاجُ.

فَحُسَيْنُ (السَّبْطُ) الشَّهِيدُ حَزِينٌ

وَحَزِينٌ صَدِيقُهُ الْحَلَّاجُ.

إِنَّهُ ذَلِكَ الْجَسَدُ الْأَحْمَدِيُّ،

تَوْضَعُ قَبْلَ الصَّلَاةِ الْآخِرَةِ،

يَدْخُلُ الْآنَ مِحْرَابَهُ، فَيُصَلِّي،

وَيَقْرَأُ قِرَاءَةَ الْفَجْرِ شَاهِدًا وَشَهِيدًا:

﴿عَلَهُ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾

وَيَقْرَأُ، يَقْرَأُ حَتَّى يَرَى النُّورَ،

وَالنُّورُ يَدْخُلُ كُلَّ خَلَايَاهُ فَاصِلَةً

فَاصِلَةً،

وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا السَّقَرُ.

وَيَعْرِفُ شَارُونَ ذَلِكَ الظُّلُومَ الْغُشُومَ،

وَقَدْ عَدَّ أَنْفَاسَهُ وَالرِّجَالَ الْمُحِيطِينَ،

أَدْخَلَ فِي الْمَقْعَدِ الْمَعْدِنِيِّ إِشَارَةً قُتْصِرَ

الْجَسَدُ،

لِكَيْ لَا تَضِلَّ الصُّوَارِيخُ وَالطَّائِرَاتُ.

صَوَارِيخُ تَسْقُطُ

مِنْ طَائِرَاتِ الْإِهَاتَشِيِّ

عَلَى رِجْلَيْ مُقْعَدٍ، يَا إِلَهَ ۞۱۱

كَأَنِّي أَرَى الْأَرْضَ - قَارَاتِهَا السَّبْتُ -

شَوْهَاءَ، شَوْهَاءَ،

لَا عَدْلَ، لَا أَنْبِيَاءَ ...

حرف الياء

يَفْتَحُ الْآنَ ذَلِكَ الدَّمُ الْعِرَاقِيُّ صَبِيرُهُ

لِبِلَادِ الْمَيَاهِ الْحَزِينَةِ، لِلرَّافِدَيْنِ.

وَكُنَّا - عَلَى مِلَّةِ الْحَافِقِينَ -

يُقُومَانِ فِي حَرْثِ تِلْكَ الْبِلَادِ،

وَإِخْصَابِ تَرْبَتِهَا بِالنَّبَاتِ وَالْأَلْهَةِ،

فَ «إِنْلِيلُ»، «مَرْدُوخُ»، «عَشْتَارُ» (١)

كُلُّ يَقْدَمُ طَقْسًا،

شَعِيرَةٌ عَشِقٌ لِتَرْبَتِهِ الْفَاتِنَةِ.

وَكُنَّا أَنْ ابْتَشَقْنَا مِنْهُمَا فِكْرَةً هَا

هَنَا،

وَكِتَابَ هُنَاكَ، وَدَسْتُورَ حُكْمٍ،

قَوَانِينُ،

حِينَ كُنَّا الْوَادِيَّ فِي الْأَرْضِ

يَقْتَعِدُونَ الْفِرَاقَ.

بِدَاهَاتِ أَنْسَنَةِ الْكُونِ،

إِطْلَاقِ اسْمِ صَرِيحٍ هُنَاكَ لـ «لَزْقُورَةُ» (٢)

فِي أَعَالِي السَّمَاءِ.

وَلَكِنْ ذَلِكَ الْقَسَقُ،

قَاتِلُ، طَاحِنُ لِلْعِبَادِ،

يَجِيءُ عَلَى فَرَسِ الْبَحْرِ أَسْحَمَ

كَالْمَوْتِ،

يَقْتَاتُ عَظْمَ الصِّغَارِ وَدَمْعَ الْيَامَى،

١ - كلمة رافدينية.

٢ - الزقورة: كانت شعيرة لدى باتات ما بين النهرين، إذ إنَّها كانت تُبنى كما بُنيت للمذبح الإسلامي لاحقاً ولكنها أكثر ارتفاعاً، وكان الكاهن الموكلاً بها يصعد إلى أعلاها ليقود قرباناً من إله في السماء.

يقول: أنا الحق،

يُرفع تابوته والكواكب رابطة
والوصول،

ويقول: ...

يريدُ يُبرمجُ هذي البلاد،

على زعمه في يسوع،

على زعمه في وصايا الملوك^(١)

وإن بداياته من هناك؛

فهو أور^(٢) هي للمعلم الأولي،

لمولد آتائه الأولين.

وليسَتْ هي المعلم والحكمة للترفة،

واسطورة ورهباً يقاوم سيف الفناء

وقال، وقال: ...

حرف الألف

العراق الحزينة،

كل العراق على ألف عام والغين،

كانت مكاناً لتجربة الخلق الفد في

الخلق،

كانت مكاناً انكسارات تلك العصور،

وكانت مرور المغول التتر،

وكانت مع الحاضر الليلي هذا الدمار

العميم،

فيغداً يُبعثُ خلاجها، والتنجف

يقومُ الحسينُ على فرس من دماء،

يقومُ كتموز حين احترق

وكان الشقائق من دمه والفلق.

العراق الحزينة، كل العراق

الشعوب، البلاد، المياه، الاناجيل

والمصحف للمصطفى

يقول: كفى ...

ليس شعب على الارض يعرف حزن

العراق

ودمع العراق وتُكل العراق.

وحيداً يلدود، وحيداً يموت،

وحيداً يقوم من الاحترق

يقوم، يقوم كمنقاة قائمة من رماد

الاضاحي

على تلة من غموض جميل،

وحيداً يُدغدغُ هذي الاساطير،

يبعثها في الحضور القليل،

فيخصب، يُرع، يأتي إلى الموسم،

ليظهر سعدي وبدر^(٣)

وكل الحضور وكل الغياب،

ويبدأ فصل جديد بهذا الكتاب.

حرف السين

سلاماً لِسلمى التي حرّكت باب

صدري،

وكنّت انتظرتُ السنون الطوال

قبالة شباكها المُلقى،

سلاماً لها ولها، لحاجبها، للعيون،

لتفرّج كما الفسق،

سلاماً من الحرّف هذا الذي لا يبوّج

فكل اللغات تنوء بقيّد الموازين،

كل اللغات لها (فاعِلن، فاعلاتن)

وكُهاُنّها القاتلون.

١ - يشرح والمذكّر: أكثر الاسفار في العهد القديم فدكاً وتديجاً للفلسطينيين.

٢ - أور: المدينة الرافدينية التي يُظنّ أنّ ابراهيم الخليل وليّ فيها.

٣ - سعدي: هو الشاعر العراقي سعدي يوسف ويقيم حالياً في مغتربه (لندن). بدر: هو الشاعر العراقي بدر شاكر السياب، وقد توفي عام ١٩٦٤.

يقولون: هذا نشاز، وذلك قساة،
إذا لم تُرجع حواجيبها والعيون.

يقولون: إنَّ الصَّورَ

هي المصطفى في القصيد،

البلاغة روح،

المدارس دُرب،

الطريق القويم هي السير خلف
السلف...

فأرسم الآن يا واحدِي دريكَ الواحدة
صراطاً تكابده تصطفيه،

وتعصي على نشوة الشفرة الفاضمة.

تقرأ الإرث، تفهم روح العصور،

وتفهم كل التجارب كانت

مُلازمة عصرها، ومُشبعة روحه
والجسد.

ولئلا، لئلا دنيا

عليها من الاقدمين الخطي والمصير،

فصبرك أنت الذي يبتنيك،

وعصرك أنت الذي يبتنيه،

وتبني على قارعات الطرق

شواخص أقدامك الموغلات؛

فكل زمان له شعره والجمال الذي
يرتقيه،

وكل قصيد لها شأنها وطقوس
ولاداتها،

شكّلها، تعاريجُ بنتها،

ومعارجها والوضوء.

توضأ بسين السماء البحيرات،
بالهطل منسرباً،

داخلاً كلَّ الأدمي وكن شاعراً

تحمل القبل،

ماضيكَ، ماضي الشعوب، الطقوس،

الحضارات، كل القصائد

في روحك المقعّم،

وانت تخط القصيد الجديد،

وضع أنت لحنك، إيقاعَ روحك،
شكلَ الصور،

وما ترتقي من مجازٍ جميل

يناسب هذا السقوط وذلك الصعود.

سلاماً إذا،

وسلاماً لسلْمى التي ما تزال

وردة المستحيل البعيد

وذلك الهلال.

حرف الباء

يعرفون ما لا أعرف،

فيقومون خفاً،

ليلهم نهار،

وسيرهم، سيرهم عفاريت

تخرج من «فاكس» يرسل قصيدة

إلى عاصمة هناك.

وأعرف ما لا يعرفون،

فأقوم سكران، صاحباً، وحزيناً
حزين،

أمزج الليل بالنهار كما يمزج الحمار
الحمر بالماء،

فتنبعث رائحة الأنتى.

يا إلهي... أنتي!!

من أنا لكي تزورني فتخرج لي من
كاسي هذا؟

فأشرب، أشرب، أشرب

ولا أرتوي.

فمن يرتوي من الأنتى ملعون،

ومن لا يعرف كيف يشربها ملعون،

ومن يشربها شرية واحدة ملعون،

وأنا لا أحب أن أكون لعيناً لعين.

حرف التّون

نوتني هي التّونُ التي خَتَمَ اللهُ بها
فِعْلَ الكُنْ،
فَكُنْتُ،

وكان زماناً بهيماً وشقيماً ومليناً

بما لا يُحصى من الفرح،

وما لا يُحصى من الحزن،

وما لا يُحصى ...

وإذا ...

سلاماً لياسين الذي كان بيننا

سلاماً لبغداد الجريحة، للنهر

سلاماً لأننى الماء، للبحر^(١) الذي

يَهيمُ بها، للضلع يَخْرُجُ منْ صدري

سلاماً لمنْ يشقى يَدُوبُ رَوْحَهُ

يُقَدِّمُها في الحُلُوِّ يوماً، وفي المُرِّ

وبعضي إلى ذاك المصير مُعبأ

بطلقاتِهِ القُصوى، بأفعاله الغُرِّ

وأطفاله في البيت يَكْبُرُ بعضهم

على رحمة الإيثارِ والحُلُقِ العطرِ

وبعضٌ يرى هذي الحياة غنيمةً

وقتلًا وفحشًا للأُناسِ وللطيرِ؛

فكلُّ ذباناتِ السماءِ رحمةٌ

إذا شِقتْ، أو حُرِبَ ضُروسٌ على
الغَيرِ

وكلُّ يُسامِرُ ذريته ومصيره؛

فبعضُهم خيرٌ وآخرٌ في الشرِّ.

سلاماً، سلاماً مثلما مرّ من هنا

أخو سَقَرٍ يوماً وغاب عن السَقَرِ.

(دلب (سوريا)

١ - يُقال إنّ زيوس، كبير آلهة الإغريق، زار الحسنة الإمبرطية «ليدا» على شكل طائر البجع، واختلى بها، فأنجبت منه التوامن كليتمسترا وميلين. وهذه الأخيرة كانت أجمل نساء الأرض، وقد اشتعلتْ حربٌ طروادة بسببها عشرة أعوام. وهناك لوحة للفنان ديورا بعنوان «ليدا وطائر البجع»، وهي موجودة في متحف لوكسمبورغ.

محررو لبنان الجدد:

ميشال عون واللوبي اللبناني - الأميركي

سماح إدريس*

هل انتهت «انتفاضة الاستقلال» التي تفجرت تظاهرات شعبية مطالبة بمعرفة حقيقة مَنذَرِ اغتيال الرئيس رفيق الحريري، وبانسحاب الجيش السوري واستخباراته من لبنان؟ من المؤكد أنها تمانى مصاعب جمة، ولا سيما بعد تشردم قيادات المعارضة عقب عودة العماد ميشال عون من منفاه الباريسي إلى أرض الوطن في ٧ أيار، وبعد الانتخابات النيابية التي شهدت معارك طاحنة بين تلك القيادات. لكن التأكيد أن ثورة الأرز، لم تنته بعد!

ولقارئ الذي لا يعرف الفارق بين انتفاضة الاستقلال وثورة الأرز، حسبنا أن نقول إن المصطلح الأول، وشعاره 05 Independence، وفولاره، الأبيض والأحمر، كلها من إنتاج المعارضات اللبنانية بعد ١٤ شباط... مع تأثير بخيرة بعض الناشطين في مجال الدعاية^(١)، وانتفاضات شعبية عارضة تلك التي شهدتها أوكرانيا وجورجيا^(٢). وأما المصطلح الثاني، ثورة الأرز، فقد أطلقته السيدة هولا دوبريانسكي، نائبة وزيرة الخارجية الأميركية كوندوليسا رايس في ٢٨ شباط، وما زال بانتظار تحقيق كامل أهدافه، التي لا تقتصر على «استعادة سيادة لبنان، من الهيمنة السورية، بل تتعدى ذلك إلى استعادة لبنان إلى حظيرة الطاعة الأميركية، ونزع سلاح حزب الله، وإفحام أي دعم حالي أو محتمل للانتفاضة الفلسطينية ولمقاومة المرافقة، وإرساء سلام، جديد مع الكيان الصهيوني يتنكر لحق عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم ويتنكر لاستكمال ما لم يُنفذ في القرار الدولي ٤٢٥ نفسه: من استعادة مزارع شبعا، وعودة الأسرى من السجون الإسرائيلية، وبسط لبنان سيادته على مياهه المسروقة حتى الساعة، ووقف الخروق الإسرائيلية المتواصلة لبره وجوه، وكشف مواقع الأنغام المتبقية على حدوده مع فلسطين المحتلة... فضلاً عن نيل التمييزات الهائلة عن الخصائر التي تكبدها منذ عام ١٩٤٨».

هذا المقال سيركّز في قسمه الأول على دور العماد ميشال عون، أحد أبطال انتفاضة الاستقلال (وربما ثورة الأرز أيضاً)، في حث الولايات المتحدة والمجتمع الدولي، على مطالبة سوريا بسحب جيشها واستخباراتها. وأما القسم الثاني فيتناول دور بعض المنظمات والشخصيات اللبنانية - الأميركية في تلك «الانتفاضة» أو «الثورة».

♦ - رئيس تحرير مجلة الآداب.

١ - على دعة واشنطن بوست (١٧ نيسان ٢٠٠٥)، فقد اكتشف سكوت أسون وباتيل ويليامز أن الشعار والألوان هما من براءات الفكر السيد سميد فرسيس ورفيقه من وكالة ساتشي اند ساتشي للإعلانات. وتذكر المقالة أن فرسيس وروني كامل وآخرين (من شركة كولانتوم كومينيكايشن) كان على مرصع مع السيد وليد جنبلاط ليُعرضوا عليه إعلاناً تلفزيونياً ممنوعاً لحزب عراقي على أبواب الانتخابات العراقية، رفقة جريمة اغتيال الحريري، وألقي الموضع لكن حملة الإعلانات صُتبت في صالح انتفاضة الاستقلال بدلاً من الانتخابات النيابية اللبنانية، وأمرت السيدة نورا جنبلاط بصنعها. ٤٠ ألف دولار باللونين الأحمر والأبيض.

٢ - تذكر واشنطن بوست (راجع الهامش السابق) أن المثال الأقوى لانتفاضة الاستقلال اللبنانية لم يكن العراق بل أوكرانيا وجورجيا. وتُستشهد على تلك بالكتور رومان كولتشيوسكي، استاذ العلوم السياسية في الجامعة الأميركية في بيروت، الذي زار كيف في تشرين الثاني الماضي عندما اندلعت الثورة البرتقالية فحين عاد، حاضراً عن مصادره هناك أمام طلابه، ومن بينهم ناشط في التيار العوني (من آل لطيف) جاء مع صدقاته إلى كولي تشيوسكي ليُلقون مشورتاً بعد اغتيال الحريري: فقلب منهم من يقدّوا الشباب الأوكراني، وأن يُقروا ثروتهم «مسلمة» ويحفظوا التكوين والثارة الشاكلي في ما بينهم، وأن ينجسوا في ساحة الشهداء من أجل إبقاء الانتداب مسلطاً عليهم «ويحذّر» إذ تُنقل لتخصيص ما ذكره مراسلا واشنطن بوست، فإننا لا ندعو بالضرورة إلى تبليغ (وبتلي حسنة للامراتي، بعض الشيء)، وإنما إلى وضع «انتفاضة الاستقلال» اللبنانية في سياق ثقافي عالمي ورفض نظرية «الصداقة»

١- الخطاب العوني في الخارج

رجوع العماد ميشال عون إلى لبنان نتيجة لما يراه البعض «صفيحة» بينه وبين الرئيسيين لحدود والأسباب^(١) وهو لا يكف عن ملء الدنيا ضجيجاً حول إيمانه بـ «العلمنة، والمواطنة» وتجاوز الخطاب الطائفي» وبأن نزغ سلاح حزب الله شأن داخلي، ولكن هل كان ذلك حقاً ما تَصَنِّع به خطاباً في الخارج خلال الاوضاع السابقة؟

إنّ محاولتنا البحث في تَقَلُّبات الخطاب العوني قبل العودة وبعدها لا تُهْدِف إلى التشهير بصاحبه على حساب أكثرية الزعماء اللبنانيين الآخرين، وإنما إلى إعادة موضعتَه في مكانه الحقيقي: بوصفه إنساناً سياسياً يسعى إلى النصر (وربما إلى رئاسة الجمهورية)، بغض النظر عن كلّ زعم مجابتيّ وخلاصيّ ونبيّ^(٢) كالذي يعبّر عنه خطاباً أمام أهالي جبيل في ٣٠ أيار: «اتبعونا وعلينا مسؤولية، لأن لم تتيمونا فلا نستطيع أن أقول لكم أي شيء. أنا ألتكم على الطريق إذا أردتم سلوكها تخلصون أنفسكم ولبنان. وإذا تركتم فإنّ ما يحصل هو كالسرطان الذي ستكتشفونه في وقت متأخر، لكنّ بعد فوات الأوان.»^(٣)

١- **عون والطائفية.** لو عدنا إلى خطب العماد عون، التي كان يورّعها انحصاره من مناه على شبكة الإنترنت، فسيبدو لنا كثيرٌ مما يتناقض وخطابه «المواطني» و«العلماني» المنتشر في وسائل الإعلام اللبنانية اليوم. ففي خطاب في ١٣ تموز ٢٠٠٣ مثلاً يؤمّن «المصلحة الشخصية استهافت المسيحيين» [اللبنانيون] بشكل خاص، مهذّبة إياهم في وجودهم ذاته... «وإن السوريين زسّخوا في أنهار اللبنانيين» أنّ فكرة الخلاص لا تأتي إلا بطاعة سوريا. ويتبنّى التفتّح - وهي إغراء له لدنياته أو معتقباته في أوقات الشدة أو في مواجهة الخطر.^(٤) فهل «المسيحيون» [اللبنانيون] بشكل خاص هم فعلاً مهثون من قبل السوريين؟ وهل عليهم أن يمارسوا التفتّح خوفاً على ديانتهم من السوريين؟ أم أنّ الوجود العسكري السوري في لبنان لم (يكن) يميّز بين اللبنانيين بحسب انتماءاتهم الدينية بل

بحسب تبعيتهم له؟ ليس هناك الكثير من «المسيحيين» اللبنانيين الذين تباهاً أيام الوجود العسكري والاستخباراتي السوري بينهم (إن لم نقل بطائفتهم) ما داموا راضين بذلك الوجود، بل وجنّوا للنافع منه. وهل المسيحيون في لبنان كتلة واحدة أصلاً؟ الأرجح أنّ عون في خطابه ذلك، كما في خطب أخرى، مستحدث عنها للتوّ. كان يتعلّق الحساسيّة «الغربية» ويتلاعب بمشاعر الغرب «المسيحي» الذي يرى في المسيحيين العرب - أسوة باليهود العرب - أقلية مضطهدة من طرف المسلمين.

قبل ذلك الخطاب، أي في ١٧ أيلول ٢٠٠٢، أجرى أحد عُضاة الأصولية المسيحية في أميركا، واسمه بات روبرتسون، مقابلة مع الجنرال عون.^(٥) ما يلفتنا هو أنّ الأخير لا يُبَيِّن ببساطة أمام أُنّاع الأول أنّ لبنان «كان بلدًا مسيحيًا في الأساس» وأنّ المسيحيين «مواطنون من الدرجة الثانية ولا يتمتعون بالحريّة ومهثّون»، مع أنّه كان من المفترض بأنّ يتبنّى خطاباً وطنياً جامعاً في وجه «الحلّ السوري» أن يشكّد على أنّ لبنان بلدٌ لجميع أبنائه وأنّ مواطنيه جميعهم من الدرجة الثانية إلاّ من ارتضى العمالة للحلّ!

وفي ٢٠٠٣/٧/٢٠ ألقى عون محاضرةً في واشنطن دي. سي. أمام «مؤسسة الدفاع عن الديمقراطية» ومعهده «مُسن» يستند فيها جملةً من المخاوف والمواطف لدى الأميركيين الصهاينة والإسرائيليين. وسكوتنا لنا وقف مطوّلة عند هذه الملاحظات لاحقاً، لكنّ حُسننا هنا أن نشير إلى مغالطاته المسيحية. فعون يبدأ بالحديث عن وقوع لبنان منذ نهاية الستينيات ضحيةً للإرهاب، ووقوعه منذ أوائل الثمانينيات ضحيةً للأصوليين الإسلاميين، ويصل إلى أنّ سوريا شجّعت المنظمات الأصولية الإسلامية التي «واصلت جرائتها الطائفية ضدّ المسيحيين وضدّ غيرهم ممّن يعادون الفوضى». «اللائق هنا هو الأمانة التي يشردها عن رجلي هذه الجرائم الطائفية سنة ٢٠٠٢: الأولى هي قتل ثمانية أشخاص في صندوق ضمان المعلمين في ٣١ تموز ٢٠٠٢ على يد مجرم يوحى الجنرال أنّه من المخيمات

- ١- تتبى صلاحيات الصلابة المُتَرَفِّعة في الأمور التالية (١) على الرغم من إدانة عون للتاريخية للقضاء اللبناني بوصفه ضامناً للمحتلّين السوريين (راجع مثلاً خطاب في ٢٢/٨/٢٠٠٢ على www.nalm.org). فقد نراه هذا القضاء قبل يومين من رحه (خلاً للأعراف القضائية المعمول بها) من جرائم القيام «بمصارف وخطر لم يُجرأ» الحكومة ومن شأنها تمكين مصاريف لبنان بدولة شقيقة وإذاعة أخبار كاذبة بعد إيلائه عام ٢٠٠٣ بشهادته أمام الكونغرس بُحِث في قانون مصاصية سوريا. (٢) إسقاط القضاء اللبناني معنى الحقّ العامّ وعن رفاقه الضباط قبل يومين من رجوعه، في ما يصف «الاعتداء على أمن الدولة الداخلي» الناتج من اغتصاب سلطة سياسية... (٣) رفض عون مهاجمة الرئيس لحود ورفضه المطالبة بإقالته قبل أن يُظهر مجلس النواب «الجدية» في ذلك (٤) مطالبة عون بوقف الخطاب العدائي تجاه سوريا بعد انسحابها من لبنان (السفير، ١٣ أيار). ويبدو لنا أنّ الزيارة التي قام بها إلى سوريا أحد عناصر اللوبي اللبناني - الأميركي المؤيّد لعون (غابرييل عيسى) واجتماعه بوليد المعلم (نائب وزير الخارجية السوري) قبل عودة عون إلى لبنان.
- ٢- يُكرّر روبرت فيسك (الأنفجحة، ٨ أيار ٢٠٠٥) أنّ عون كان في التسعينيات يقارن نفسه بالمسيح، ويُقارن أعداءه ببلاطس ويهوذا!
- ٣- السفير، ٢٠٠٥ أيار ١٣ والأرجح أنّ «السريوان» يُحيل هنا على ما يراه عون من تفلّط البترودولار الحريري في انتخابات كسريان - جبيل النيابية.
- ٤- استند على المصوص الإنكليزية لثني ورّعها عون (واتصاره) باسمه الشخصي على شبكة الإنترنت. والخطاب أعلاه هو بعنوان «Dhimmitude Dissimulation (أي «الدُمَيَّة والتخفيّة)». راجع موقع الحركة اللبنانية - الأسترالية المتحدة www.nalm.org.com
- ٥- قناة CBN، ضمن دناي لا... ٧.٠٠.



أيّ عون تصدّق: عون الولايات المتحدة
وفرتسا في ٢٠٠٢ و٢٠٠٣، أمّ عون
«الرابية» في ٢٠٠٥



الإرهابية^(١٦). وهذا ما يُتّهم بهات روبرتسون بعد مقابلة عون إلى أن يُطلب من الرئيس بوش (مروو للمسيحي المعادي للإرهاب) أن يَدْعِم مشروع «قانون محاسبة سوريا واستعادة سيادة لبنان».

وفي ٢٠٠٣/٧، يقدّم عون أمام «مؤسسة الدفاع عن الديموقراطية» ومعهد هنسون» في واشنطن دي. سي. رؤية تاريخية شاملة للصراع الكوني لا تُختلف قط عن رؤية بوش المانوية لمعسكرين قطبيين:

«فهي جانب، يلق الإرهابُ مغطاً بالنظام السوري، والمجموعات الفلسطينية المسلحة، والمخيمات الفلسطينية حيث «ترتّب النظماتُ الأصوليةُ الإسلاميةُ وتتواصل الجرائمُ الطائفية ضدّ المسيحيين...» و«الثوراتُ الواحدة» و«الديكتاتوريات المهيمنة في المنطقة» و«الأنظمة غير الديموقراطية التي تعلم الناس الكراهية والقتل وتُعقِّم على العمليات الانتحارية...»

«وفي جانب آخر، يلق «العالَمُ بقيادة الولايات المتحدة» ويقف «الغرب»، ويقف ضحايا الإرهاب الآخرين، وعلى رأسهم: (١) لبنان الذي كان سويسرا الشرق، ومثالاً للاعتدال والتسامح [وسط] صحراء بشرة تحيط به» وجسراً للقاء بين الشرق والغرب» وغير ذلك من التلميحات التي تُؤلّف من معجم استشرافي نادر. (٢) إسرائيل التي «بِقَعها» تسليح سورية للمجموعات الفلسطينية في لبنان إلى أن تجتاح هذا الأخير (وكان لا أهداف أو أهداف إسرائيلية في لبنان)، ثم قامت سوريا بنقض «السلم» الذي أرسّته إسرائيل مع لبنان في ١٧ أيار ١٩٨٣. أما الضحية الثالثة للإرهاب فعمقوا الغرب في لبنان، مثل السفارتين الأميركية والفرنسية اللتين استهدفهما الإرهابيون المدعومين من سوريا مرتين، ومثل الوحدات الأميركية والفرنسية العاملة ضمن نطاق القوات المتعددة الجنسية (يا مساكين)، ومثل مبشر أميركي قُتل «الأصوليون» في صيدا في ٢٥ تشرين الثاني ٢٠٠٢.

ولمزيد من دغدغة عواطف الأميركيين اليمينيين يُختم الجنرال خطابته السيمادي بطائفة هؤلاء إلى أن تحرير لبنان (من سوريا والإرهاب

الفلسطينية حيث يرتّب «الإرهابيون وإبطال الجريمة للمنظمة والمنظمات الإسلامية الجذرية». والثانية طاولت مبشراً مسيحياً أميركياً في ٢٥ تشرين الثاني ٢٠٠٢ في صيدا (ولا بد من ثم أن يكون القائد مسلماً أصولياً). والثالثة تتّ في ٢٠ كانون الأول ٢٠٠٢ على يد مجلّد لبناني «كان يداوم على حضور مادة دينية في مدرسة قرآنية داخل أحد المخيمات حيث تعلم» كما يُزعم - أن قتل المسيحيين واليهود سيضعه على طريق الجنة. لاحظوا كيف يُخصّص عون الجرائم بترك التي يدّعي أنها ارتكبت ضدّ المسيحيين واليهود لأهمّ ذلك، وكيف يُربطها بالتربية الإسلامية نفسها («مدرسة قرآنية») وبالمخيمات الفلسطينية^(١٧).

قد يقول قائل إن خطاب عون المسيحي في الخارج يُهدف إلى تحرير كلّ لبنان عبر استنارة حيّة المسيحيين (واليهود) الغربيين، والتلازم بالتميمات (stereotypes) للعادية للإسلام والعرب والفلسطينيين والأصوليين. ولكن ذلك غير مبّر أصلأ بالنسبة إلى مَنْ يزعم العلمانية والمواطنة، فضلاً عن أنه يسيء إلى مفهوم تحرير لبنان، لأنه يُربطه بالمال في مساعدة أميركية - تبشيرية لن تكون بالضرورة أقلّ ضرراً على لبنان من الوصاية السورية والأصولية الإسلامية.

ب - عون والإرهاب. طوال الأعوام التي سبقت عودة ميشال عون إلى لبنان وهو لم يكفّ في الخارج عن اتهام سوريا وحزب الله بالإرهاب، إضافة إلى إحدى عشرة منظمة فلسطينية على أساس أن هذه جميعها تقع ضمن قائمة الولايات المتحدة للمنظمات الإرهابية^(١٨). حتى لو لم يُبث بعضها (بحسب مثلاً «إرهاباً» في لبنان. أمّا الحل الذي يقترحه لحل مشكلة الإرهاب فليس العمل على علاج أسبابه، كما قد يتوقّع من شخص لبناني عربي مثل الجنرال عون شهيد مأساة الشعب الفلسطيني والحصان على العراق والاحتياخ الإسرائيلي للبنان، وإشما الحل الذي يقترحه عون لا يختلف البتّة عن ذلك الذي يُطرحه «مصفوقُ البنتاغون» دقرلة الأنظمة الإرهابية، كالنظام السوري، المنتجة للمنظمات

الأصولي والفلسطيني والقاعدية...) سيؤدي إلى «عودة الصورة الحقيقية للولايات المتحدة الأميركية. وهذا سيهدد حقبة إجلال حقيقة إلى ذكرى الضحايا الأميركيين الذين وثقوا حيواتهم من أجل الدفاع عن الحرية والديمقراطية في لبنان. فلقد جاء هؤلاء إلى لبنان من أجل السلام، وعلى السلام الحقيقي أن يتحقق».

وفيما بهتلك اللدغة ما يُمكن اعتباره تعليقاً في خطابات عون الغريبة لمشاعر اليهود والصهيانية من أجل حق الولايات المتحدة على إنهاء «الإرهاب السوري». تصوراً مثلاً أن يفعل الجنرال في تلك القطب أي ذكر للإرهاب الإسرائيلي، بل هو يصنع (كما رأينا) إسرائيل في صف المحققين عليه من طرف المجموعات الفلسطينية المسلحة وهزب الله في صراع العالم الحر (بقيادة الولايات المتحدة) ضد الإرهاب. وتصوراً أيضاً أن يقول في خطاب ٢٠٠٣/٢/٧ إن لبنان «هو آخر بلد في العالم ما زال تحت الاحتلال، مديناً - بلا شك - أن ذلك تحويل واضح لقول إدوارد سعيد «إن فلسطين هي آخر بلد ما زال تحت الاحتلال» - ذلك القول الذي ألقى سعيد عمره في أميركا وهو يحاول ترسيخه قبل أن يأتي عون (أو «مستشاروه» اللبنانيون - الأميركيون) بما يخلطه.

ج - أيّ عوز، تصدّق؟ بعد ذلك كلّ، وهو غيبي من فيض، من نصلي: عون الولايات المتحدة في ٢٠٠٢ و ٢٠٠٣: أمّ عون «الرابعة (لبنان) في ٢٠٠٥؟

عون الذي يحرّض الولايات المتحدة سنة ٢٠٠٣ وقبلها على إسقاط النظام السوري من أجل تحرير لبنان ومسيحييه والعالم أجمع من سطوة الإرهاب ومن أجل «السلام الحقيقي»: أمّ عون الذي يصرح في ١٢ أيار ٢٠٠٥ بأنّ سوريا انضمت من لبنان [ولذلك] يجب وقف خطاب العدائنة ضدها؟^(١)

عون الذي يدع الولايات المتحدة إلى عدم مهادنة سوريا، وإلى عدم اغترار «بالتعاون» السوري «التكتيكي والمؤقت» في الحرب على الإرهاب، وإلى ضرب البعثات السورية لأنها هي التي تُنتج وتُنشر الأصولية (أيّ الإرهاب) - كما جاء في خطاب للجنرال في ٢٠٠٣/٩/١٨ أمام اللجنة الفرعية للعلاقات الدولية في مجلس النواب الأميركي^(٢) أمّ عون الذي لم يعد يرى بعد رجوعه إلى لبنان أية مشكلة مع سوريا سوى الأسرى اللبنانيين المعتقلين في سجونها؟ عون الذي يدع من واشنطن في ٢٠٠٣/٩/١٨ إلى أن «يتوافق الانسحاب السوري [من لبنان] مع نزاع سلاح كامل لكافة العناصر المسلحة [باستثناء الجيش وقوى الأمن الداخلية]: أمّ عون الذي يقرّ في «الرابعة» تأجيل الحديث عن نزاع سلاح المقاومة إلى ما بعد الانتخابات النيابية؟

ومع ذلك فلا يتوهم أحد أن تناقضات الجنرال تُلغى على مواقفه بين واشنطن/باريس والرابعة، بل هي تمتد إلى داخل لبنان ذاته كلّما اقتضت مصلحة ومصالحة تباركه ذلك. صحيح أنه يُعلن في ١٩ حزيران ٢٠٠٥ من على شاشة LBC، بعيداً هزيمة مرشحيه في الانتخابات النيابية في الشمال، أنه لا يمكن التمسك على شيء فاسد، ولك في معرض هجومه على استخدام خصومه الطائفية والمال الانتخابي من أجل الفوز غير أن منطق ذلك لا ينطبق على تحالفات مع رموز شاع أفعالها بالفساد (ميشال المر)، وبالطائفية والعنصرية (نعمة الله أبي نصر)، وبقبولها بالوصاية السورية (وهؤلاء أكثر من أن يُحصى). فكيف تُبنى العمانية والمواطنة ودولة القانون يمثل هذه الرموز؟ وبالمنطق عيّن، كيف يستند الجنرال إلى خطبه في الغرب، الناضجة بالانتماء والطائفية وتصلّي الصهاينة والقيادة البوشية، من أجل تحرير لبنان؟ اليس التمسك على شيء فاسد أمراً مستحيل، كما قال هو نفسه على شاشة LBC؟

غير أن المشير للإزاج حقاً ليس تناقض عن هنا وهناك، وإنما عدم خضوع ذلك للمحاسبية على يد القيادات الوطنية والفرعية واليسارية، مع أن بعضاً منها (مثل الرئيس المص) يُنتك اللغة الإنكليزية وله مستشارون وحلفاء يُكنههم استخدام الإنترنت للحصول على خطاب عون في الغرب. فلماذا الاستخفاف بالثقافة وهو مرض من أمراض الأحزاب اللبنانية اليوم، وبمظهرها «بتميز» بالثقافة provincialism؛ ولماذا لا يسألون الجنرال عون حين يلتقونه، أو على صفحات الجرائد، عن حقيقة ما ورد على موقع www.free-lebanon.com بتاريخ ٢٠٠٥/٥/٢ من أن «أوب قره» (وهو نائب عن اللكود في الكنيست الإسرائيلي) التقى عون في باريس للبحث في عودة عناصر جيش الممحل لحد إلى لبنان؟^(٣) لم أن كل تساؤل من أيّ أمر، حتى لو كان واردة في غير مصدر، يصبح ضرباً من التخوين المرفوض كما صارت الموضة؟

II - اللوبي اللبناني - الأميركي

لم تكن مساعي وخطب الجنرال عون الهادفة إلى «توطيد» الولايات المتحدة والمجتمع الدولي» في استصدار قرار دولي كالقرار ١٥٥٩ عام ٢٠٠٤، وفي استصدار قانون من الكونغرس كقانون محاسبة سوريا عام ٢٠٠٢، لتُنتج لولم تأثر في مساعي جهوز عدد من المنظمات والشخصيات اللبنانية - الأميركية اليمينية. ولعل هذه هي التي قُصّتها عون في المقابلة الهاتفية مع جريدة النهار عام ٢٠٠٢ حين أدّ أن تباركه «وسّع مدى نشاطاته من أجل توضيح قضيتنا، إلا أن العمل

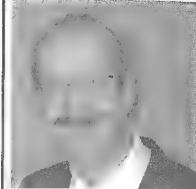
١ - السفير، ١٣ أيار ٢٠٠٥.

٢ - Testimony of PM General Aoun-House Subcommittee on International Relations, 9/18/2003, uam.org.au.

٣ - هذا، وكان قرّة قد أخبر الصحيفة الإسرائيلية هاريس في ٢٠٠٥/٥/٢. بحسب الموقع أعلاه، أنه «يُجرى اتصالات باسم الحكومة الإسرائيلية مع الفرقاء اللبنانيين، من أجل تلك القرّة، وذلك ضمن قانون العفو العام». وهذه الخطوة هي غير تلك التي نفاها الجنرال عن «اتصال ماتني، نظّاه سابقاً من قرّة في إسرائيل.



«صديقاً- لبنان: البوت أنجل وإليانا روس ليثين، راعيا «مشروع قانون تحرير سوريا ولبنان» ومشروع قانون محاسبة سوريا»



قبل التلحق إلى ذلك لا بد من الحذر من أمرين مترابطين. الأول هو المبالغة في تقدير أثر المنظمات والشخصيات اللبنانية - الأميركية الميمية في صنع القرار السياسي الأميركي، وبالتحالف مع عين أو من دونه. والثاني هو المبالغة في إلغاء أي أثر لهم في ذلك القرار. ولعلّ الأصوب هو القول إنّ الإدارة الأميركية تُبرز بعضاً من تلك المنظمات والشخصيات في لمظاهر محدّدة من أجل إضفاء طابع محليّ وأخلاقي، على سياساتها التدخلية الخارجية. وتلك كانت الاستراتيجية عينها التي استخدمتها تلك الإدارة في غير مكان من العالم؛ والمثال الأوضح نصحها له «المعارضة العراقية» قبل غزو العراق عام ٢٠٠٢، وإبرازها شخصيات ثقافية عراقية تُجهر بتأييدها للغزو أمثال كنعان مكّي. بل إنّ الإدارة الأميركية بدأت منذ أعوام قليلة انتهاز الأسلوب ذاته حيال سوريا، وذلك بدعم «حزب الإصلاح في سوريا» ورئيسه فريد الغادري الذي يصوّر بلاده دولة «مُتَمِّمَة الإزهاج في العراق ولبنان» وتُجسّر «الأسس» والكردان والاقليات المسيحية الأخرى على الهجرة^(٦) وليس مصادفة في هذا المجال أن التقت في خريف ٢٠٠٤، وفي مكان ما من الولايات المتحدة، عدّة حركات تُجمّعها «الاضطهاد القومي أو الديني أو السياسي في العالم الثالث أمثال: التحالف الليبي - الأميركي الحر، والتحالف الإيراني - الأميركي، والرابطة الأميركية القبطية، والحركة الأرمنية اللبنانية، والاتحاد الماروني الأميركي، والحركة القبلية الكردية، وحزب الإصلاح في سوريا، والمركز اللبناني للمعلومات (وهو تابع للقوات اللبنانية في الأصل)^(٧) والجمعية الأكاديمية

السياسي الأساسي يُقيم في الولايات المتحدة... هذا رغم إقرار عون بأنّ الأولوية الأميركية آنذاك كانت لعراق همدان، ولكن مع ثقته أيضاً بأنّ الأميركيين لا بد أن يُطلّقوا بعد العراق إلى «مهاجمة الأنظمة الديكتاتورية [الأخرى] والتعريض ضلعاً»^(٨). وفي هذا الصدد كان لافتاً أن يُعزّب الجنرال بعد عودته إلى لبنان عن شكره ووفاته لناشطتي اللوبي اللبناني في الخارج. ففي ١٢ أيار من هذا العام أقام تيّاره مهيّجاً في جيبيل تحت عنوان «العودة واللقاء مع ناشطي التيار العائدين من ديار الاغتراب» وعلى رأس هؤلاء: طوني حداد وغباني عيسى. وفي المهرجان تحدّث اللواء إدغار ملوف، فقال بالنيابة عن عون: «إنّ المغتربين الناشطين في التيار [العوني] ساهموا في رقيّ الوطن التي حلّوا بها... وقد تَخَفَّسُوا الغبار عن الملف اللبناني واستطاعوا انتزاع قرار دولي [يُصَد ١٥٩٥] يُقرّر بسيادة واستقلال لبنان من أعلى المراجع الدولية»^(٩) كما يبدو لافتاً ما قاله عون نفسه على الـ LBC بتاريخ ٥ أيار: «لقد حرّرت لبنان من خلال عمل الشباب في دول الانتشار، ولقد حرّرت لبنان من خلال قرار دولي»^(١٠) وعاد في ٨ أيار حديثاً «الانتشار اللبناني... الذي قام بدورٍ عظيم في رفع الصوت اللبناني الكبير على أرضه وأُصِّلَ القضية إلى أعلى المراجع الدولية، التي تُنتج اليوم استقلالاً للبنان بحرية وسيادة...»^(١١) وأنك من جديد في ٢٦ أيار أنّه «ضدّ التدخل الأجنبي ولكننا [أيّ هو والشباب] مسؤولون عنه»^(١٢) فكيف «حزب» العماد عين وعلنا، ومن هم بعض «شباب الانتشار» الذين حرّرت لبنان من خلال عملهم؟

- ١ - الشهاب، حوار مع هيام القصيفي، ٢٠٠٢، www.tayyar.org.
- ٢ - السفير، ١٢ أيار ٢٠٠٥.
- ٣ - قناة LBC، برنامج «كلام للناس» للمرسل غانم، ٥ أيار ٢٠٠٥.
- ٤ - السفير، ٩ أيار ٢٠٠٥.
- ٥ - LBC، «كلام الناس»، ٢٦ أيار ٢٠٠٥.
- ٦ - من خطاب الغادري أمام لجنة مجلسي الفريجة: راجع وإيد فارس www.defenddemocracy.org ٩ آذار ٢٠٠٥، الذي يُذكر دقائق الجلسة التي جُمِعَتْ إلى الغادري وانقاض قُتِر.
- ٧ - لكنّ السيد ثاجي نجار، كما صدّق، يُقيم رئيس هذا المركز (طوني حداد) بله كان «يمهّد الأرض» للجنرال عون داخل الكونغرس.

وإنما بوقف «دعمها للإرهاب» ووقف «برنامج أسلحة الدمار الشامل السورية» (١٢) ووقف «تسليح الإرهابيين لقتل جنودنا [١] في العراق». ويناشد حداد الإدارة الأميركية أيضاً وقف الحوار مع سوريا وانتهاج سياسة القتل.

وفي ٢٠٠٣/١٠ أصدر مجلس علوي حداد بياناً يُخبر فيه بـ «الدور القيادي» الذي أدّاه من بين المنظمات اللبنانية – الأميركية في طرح مشروع قانون محاسبية سوريا على طائفة الكونغرس. كما يتّجه بدوره العظيم في مشروع قانون آخر «مؤيّد للبنان» لم تتّضح لنا أخطاؤه كاملة بعد، واسمه ASLA، أي «مشروع قانون تحرير سوريا ولبنان»، أو ما تسمّيه إيلانا روس ليثان (وهي أحد راعيه في الكونغرس) مشروع قانون «لا لسوريا لا» ويُسّس هذا المشروع إلى تكثيف العقوبات على النظام السوري من أجل «دعم الانتداب على حكومة منتخبة ديمقراطياً في سوريا ولاستعادة السيادة والحكم الديمقراطي في لبنان». وفي أحد اللقاءات تتوجّه النائب روس ليثان بـ «مليون شكر» إلى «طوني» (هكذا، حافاً) وإلى «كلّ اللبنانيين – الأميركيين المحبّين للحرية الذين تمكّنهم مجموعتك». وفي اللقاء نفسه يذّكر ليثان (وهو الراعي الثاني لمشروع قانون ASLA) فينذكر الحضور بأن حداد «غدّه باتّهامها يومًا ما سينورن معاً لبناناً حُرّاً... وسيأتي ذلك اليوم قريباً». الله يستر!

الجدير ذكره أنّ حداد اعترف في ٥ أيار ٢٠٠٥ في برنامج «كلام الناس» بأنّصالاته (هو وغايي عيسى) بأعضاء الكونغرس من أجل الترويج لمشروع قانون محاسبية سوريا، غير أنّه حاول أن يُطلي المشاهير أنطباعاً بأنّه لا يمكن التمييز في الكونغرس بين يهودي وغير يهودي (١٣) حسناً يا طوني، ولكن هل أنجل مجرّد إنسان «يهودي» لا أحد يطلب منك أن تميّز بين الأشخاص على أساس معتقداتهم الدينية، ولكن هل كنت تُجْهَل – وأنت الضليع الضالّع في شؤون الدملجة lobbying منذ أعوام – أنّ اليهود أنجل هو أحد الرعاة الرئيسيين لقرار الكونغرس اعتبار القدس «عاصمةً موحّدةً لدولة إسرائيل» وهل كنت تُجْهَل أنّه الراعي الأكبر لقرار وافق عليه الكونغرس يميّز عن التضامن مع الشعب الإسرائيلي ضد الاعتداءات الإرهابية المستمرة عليه. «ويقرّ بحقّ إسرائيل في محاربة الإرهاب... بوصف ذلك جزءاً من الحرب الكونية ضدّها»؟ وهل كنت تُجْهَل أنّه يُقْبَل حزب الله وحماسه والجهاد بل وعرفاته (رغم كل تنازلاته أمام العدو) وجيهاً مختلفاً للإرهاب؟ (١٤)

السريانية، وحركة السويديين الجنوبيين (١٥) فالحال أنّ ما يجمع هؤلاء اللذين ليس الاضطهاد أو انعدام الاضطهاد فقط، بل عملهم أيضاً لخدمة استراتيجيّة الإدارة الأميركية، ويتمويل من أجهزةها في الغالب. اللّير للانتباه أنّ اثنين من منظمي المؤتمر هما من اللبنانيين – الأميركيين الذين لعبوا دوراً في إقرار الكونغرس لمشروع قرار محاسبية سوريا، وفي إقرار مجلس الأمن للقرار ١٥٠٩؛ وأعني: طوم حرب (الاتحاد الماروني العالي)، وجوزيف جيجيلي (قوات لبنانية). كما أنّ اثنين من المتحدثين في حفل العشاء الذي أقامه المؤتمر أعلاه شخصيتان لبنانيتان تدينان بالوالد (ويونيفتسهما أيضاً) لجورج بوش الصغير، وهما: وليد فارس ووليد معلوف (الذنان سنفضلك بعضاً ارتكاباتها عمّا قبل).

إنّ، ليس للوبي اللبناني – الأميركي أثر يُذكر في صناعة القرار الأميركي، إلّا عندما يقرّ سنكّ ذلك القرار استخدامه لمؤازرتهم. والملاحظ كما يقول د. داوود خير الله من جامعة جورج تاون، أنّ الجماعات «الضامطة» العربية «لا تُسمّع لها صوت» إلّا عندما تتّماهى أهدافها مع الأهداف الصهيونيّة. (١٦) ولذلك فليس من اللبالغة القول إنّ العامل الأساسي وراء قانون محاسبية سوريا واستعادة سيادة لبنان، والقرار ١٥٠٩، لم يكن «الشباب» الذين يُخبر الجنرال عون بهم، وإنّما هو السيد بوش الصغير.

في ما يلي سنلخص المحدث على منظمّة لبنانية – أميركية واحدة، وتحالف لبناني – أميركي واحد، وبخسبخصيتين من الجانبية نفسهما – والكلّ أشهُم (ولأنّ شكليةً كما نكرنا) في تحرير لبنان من النفوذ السوري كما يقولون.

١ - المجلس اللبناني – الأميركي للديمقراطية L.A.C.D. رئيسه طوني حداد، الذي استضافه الإعلام اللبناني مارسيل غانم على قناة LBC شبيّة عرّة العمد عون إلى الوطن. خطاب حداد ومجلسه يتماهى تماماً مع سياسة بوش الهادفة إلى نشر الديمقراطية على امتداد الشرق الأوسط من أجل أميركا أمّة من الإرهاب، بما في ذلك استهداف سياسة الهجوم الوقائي preemptive strike (١٧) وفي ما يخصّ سوريا تصميّة، فإنّ الأخ طوني لا يختلف البتّة عن أعني المحافظين الجدد في إدارة بوش. ففي مقابلة بتاريخ ٢٠٠٣/١٠/٢ جَمَعَتْهُ مع مارك غينسبرغ (السفير الأميركي السابق في المغرب) وفريد الناصري (أحمد شلبي، سوريا)، لا يكتفي بمطالبة سوريا بسحب قواتها من لبنان

١ - Walid Phares, "A Mid East American Revolution is Coming," Front Page Magazine, Oct. 1, 2004, www.defenddemocracy.org

٢ - المسبق، ١٧ أيار ٢٠٠٥

٣ - من إعلان أصدره المجلس المذكور في شباط، خريف ٢٠٠٤. انظر:

Jordan Thornton "CIA-Sponsored Lebanese Opposition..." 27 Oct. 2004, www.newswire.indymedia.org.

٤ - في برنامج «الانتهاء المعاكس» الذي يُعَدّ، فخيمل القاسم لقناة الجزيرة، قال القاسم (قبل ثلاثة أعوام) إنّ أنجل وغيره هم الذين خضّروا مشروع قانون محاسبية سوريا، وإنّ أنجل استخدّم الجنرال ضدّ سوريا. فردّ عن بأنّ هناك ١٥٧ نائباً في الكونغرس أثّروا المشروع، وأنّه لا يستطيع التمييز بين اليهودي وغير اليهودي.

٥ - www.jewishvirtuallibrary.org، ٤ شباط ٢٠٠٤.



طوني حداد ووليد معلوف: الأول يؤيد الهجوم الرقائني الأميركي، والثاني يردّ لأميركا «الجميل» بدعنها ضدّ الإرهاب!



ب - التحالف الأميركي - اللبناني ALC. هذا التحالف على نمّة د. وليد فارس التخصص بأمور اللوبيات) حصيلة ستّ منظمات لبنانية - أميركية هي: المركز اللبناني للمعلومات (تابع للقوات اللبنانية ويرأسه د. جوزيف جبيلي)، والاتحاد الأميركي الماروني، والتجسّع من أجل لبنان (موال لحزب الوطنيين الأحرار)، والكتائب اللبنانية (مقلّدة بجوزيف الحاج)، والاتحاد الثقافي اللبناني العالمي - فرع أميركا (برئاسة جون حجار)، ومجموعة يمثّلها طوني أبو سمرا (١). وقد ركّز هذا التحالف منذ أوائل التسعينيات على بناء صيالات مع التيارات الأميركية السائدة، ولاسيما «المساندة له كركياً» من داخل الكونغرس. وبلغت تلك الصلّات ذروتها في اجتماع عقّده التحالف المذكور في حزيران ٢٠٠٠ برعاية مجلس الشيوخ الأميركي، وحضّره الكيوت أبرامز (الذي سيصبح مستشاراً الأمن القومي لشؤون الشرق الأوسط أثناء ولاية بوش الأولى). وكان ذلك - في رأي فارس - بداية استراتيجية اللوبي اللبناني الجديدة في شروية التوجّه نحو الحزبين الديموقراطي والجمهوري معاً من أجل استصدار قرارات ثنائية داخل الكونغرس «مصلحة لبنان، شأن «قرار محاسبية سوريا» الذي رعاه أنجل (ديموقراطي من نيوجرزي) وليثان (جمهورية من فلوريدا).

من المثير هنا أن يطالع للمرّة ما يُذكره وليد فارس عن دور «التحالف» في قرار مجلس الأمن رقم ١٥٥٩. فقد نفّذ بالاشتراك مع «الاتحاد الثقافي اللبناني العالمي»، إصدار الأمم المتحدة لقرار جديد يحرّك مكان القرار ٥٢٠ من أجل تحرير لبنان. وهكذا قام وفد مشترك (ضمّ جو بيتي رئيس «الاتحاد»، ووليد فارس أمين عامّ الاتحاد الماروني العالمي، و«جون حجار ممثل بيتي في أميركا، وجوزيف جبيلي من «القوّات» ووليد فارس) بلقاء مع مسؤولين أميركيين رفيعي المستوى، ولكنّ لولا مسؤول أميركي من أصل لبناني، على ما يتابع فارس القول، لما صدّق القرار ١٥٥٩. هذا المسؤول اسمه وليد معلوف، وستحتك عنه بشيء من التفصيل لاحقاً، ولكنّ حسبنا هنا أن نشير إلى أن بوش عبّئ في الوكالة

إنّ هذه هي نوعية الاتّصالات التي يقوم بها رئيس «الجلس اللبناني - الأميركي للديموقراطية»، والتي استحقّ بسببها تكريم العماد واللواء (بلّ الثابّين المتخبّين) ميشال عون وإدغار معلوف في جبيل، وتكريم مارسيل غانم من LBC. إنّ «نجاحه» لا يعود إلى «سنواته الخمس عشرة» التي يقول إنّ «ناضل خلالها فأسقط رهائن أميركا على سوريا كورقة رابعة في لبنان»، ولما يعود إلى «فضائل» الصهاينة داخل الكونغرس ضدّ فلسطين (لا عرفات وحده) وضدّ المقاومة اللبنانية وضدّ سوريا (سوريا الداعية للمقاومة هنا وهناك، لا سوريا النظام الذي يضيّق على المعارضة الداخلية).

ولا بأس، قبل الانتقال إلى الحديث عن طرفيها، أن نذكر في اللوبي اللبناني - الأميركي، من ذكر معلوف يروّجها السيد ناجي نجار، رئيس حكومة لبنان في المنفى، القدس، إسرائيل، بحق طوني حداد. صريح أنّ شهادة نجار لا يُمكن الوثوق بها لكونها صادرة عن لبناني «مقيم» في إسرائيل، إلّا أنّنا نضعها أمام القارئ ليحكم بنفسه على صحتها، ولاسيما أنّها تحاول أن تُكسّف عن علاقة حداد بالجنرال عوين وأنجل وليثان. يقول نجار إنّ حداد مسؤول عن تمويل وتنظيم حملات لجمع التبرّعات لأنجل وليثان لكي يروّجها لمشروع قانون محاسبية سوريا واستعادة سيادة لبنان، وإنّ هذه التبرّعات (من الجالية اللبنانية) بلغت ٢٠٠ ألف دولار جرّعها «مؤيّدو الجنرال عوين» لعدم أنجل شخصياً. ويُرّغم نجار أنّ حداد «يمهد الأرض» لمن في الكونغرس مستخبراً أموالاً خاصة كان الجنرال قد «سرقها» من البنك المركزي قبل أن يغادر لبنان عام ١٩٩٠... وتُقدّر بأكثر من ٥٠ مليون دولار أوّنعها البنوك الفرنسية. نعم، قد تكون هذه المعلومات غير صحيحة، ولاسيما في شقّها الأخير بعد أن صدّغ الفريق نجاح واكيم والرئيس سليم الحصن رؤوسنا بالحديث عن «نظافة كدف الجنرال ومحاربتة للهدر والفساد. لكنّ لوصف الجزء الأوّل من شهادة نجار (أي استخدام المال الانتخابي اللبناني لعدم نائب معروف بصهيونته الفاتحة)، فذلك سيكون من بين «ماتر» طوني حداد ومجلسه وشبابه الانتشار اللبناني»

الأميركية للتنمية البشرية USAID، وكان أيضاً الممثل المناوب للولايات المتحدة في الجمعية العامة للأمم المتحدة في جلستها الثامنة والخمسين مكان السفير الأميركي الدائم جون نيفروبيني، فكان بذلك أول ممثل للولايات المتحدة في الأمم المتحدة يُثلي بخطاب باللغة العربية (أي فخر لحول ولبنان واللغة العربية). وباعتباره مطوف، فإن السفير السوري إلى الأمم المتحدة السيد فيصل المقداد أتهمه بـ «تموير أجندته خاصة به» لكونه من أصل لبناني، لكن نيفروبيني دعم في رسالة إلى المقداد مواقف معلوف بوصفها مميزة عن الموقف الأميركي المؤيد للبنان^(١).

أما كتابه نص القرار ١٥٥٩ تحديداً فتستند، بحسب وليد فارس، إلى أعضاء من الاتحاد الثقافي اللبناني العالمي^(٢) (الذي يزعم فارس أنه يمثل ١٠ ملايين مقرب لبناني، ويؤمن رئيسه جوزيف بيثي أنه يحظى بدعم كامل من وزارة الخارجية اللبنانية بوصفه الممثل الرسمي للجمعية للاتصال اللبناني في العالم)^(٣) وإلى أعضاء من «التحالف الأميركي - اللبناني»، بمن في ذلك محامية لبنانية الأصل من جاكسونفيل (اسمها جوليا فخرى) وبيولوماسي لبناني الأصل (لم يُذكر فارس اسمه). ثم بدأت «عملقة» اللوبي اللبناني - الأميركي مع اللاعبين الأساسيين الذين يخدمهم فارس بالولايات المتحدة وفرنسا والمنايا والمكسيك وأستراليا... وبداً آخرى (٤). ولما كان تأييد فرنسا حاسماً في المسألة فقد «طُعن» وفد لبناني، مؤلف (على دمة فارس أيضاً) من شخصيات ومن فادي برق (٥) ورئيس وأمين عام «الاتحاد الماروني العالمي» سامي خوري و«مهم حرب» ممثلين للدولة الفرنسية إلى «الصداقة المستقبلية والروابط الثقافية الجامعة» بين لبنان وفرنسا؛ هذا وقد لعب الاتحاد اللبناني في فرنسا دوراً في هذا المجال، كما يفعل فارس، وبخاصة بسبب وجود الجنرال عون في باريس.

ج - شخصيات لبنانية - أمريكية. سنقتصر الكلام هنا على شخصيتين بارزتين كان لهما دور شكلي واضح في «تحرير» لبنان، وهما وليد فارس ووليد معلوف، اللذان سبق أن تعرضنا لبعض نشاطاتهما إعلاماً.

أما فارس فاستأذن دراسات الشرق الأوسط في جامعة فلوريدا للانطلاق، ومستشاراً رفيعاً في «مؤسسة الدفاع عن الديمقراطية» FDD في واشنطن، والسكرتير العام للاتحاد الثقافي اللبناني العالمي (سبق ذكره)، وهو ضيف دائم على أبرز للقطات الإعلامية الأميركية، حيث يُطرح نفسه متخصصاً في الإيديولوجيا اللبنانية والأفكار الإثنية وصدام الحضارات...

النساء من بين عشرات الموضوعات الأخرى؛ كما أنه على قائمة «بنابور أسوشيتيس» التي تضم «خبراء» من أمثال: كنعان مكبة (العراقية)، وسعد الدين إبراهيم (المصري)، وريتشارد بيرل (أم. روتنثال (الأميركيين الصهيونيين). وهو على كونه، كما يدعي، «خبير» في الشؤون اللبنانية وعلى ارتباطه بكلما المجتمع المدني اللبناني، فإنه لم يُذكر لبناني منذ عام ١٩٩٦ (وهذا باعتباره الشخصي أمام بعثة هلنسكي في واشنطن)... ولما كان قد حاضراً في بلدان قريبة من لبنان: إسرائيل، وتحديداً: القدس!

يعتبر فارس نفسه أميركياً، لكنه - بحكم نشأته - خبير في عقلية الإبراهيميين الأصوليين. وهكذا يُصمم الأميركيين في ٢٢ ديسمبر ٢٠٠٣ بتشديد الحظر من هجمات قاعدية جديدة لأن بن لادن يريد «الفرار للشرف» و«إثارة زعامة الجهاد» بعد القبض على صدام واستسلام قادته أمام الأميركيين. ونصيحته تلك، كما يُخبر مستمعيه وقراءه الأميركيين، مستندة إلى خبرته بشعوب شهدت الإرهاب «مثل الإسرائيليين والأتراك والمسيحيين اللبنانيين» وما نمتا أثينا على ذكر المسيحيين اللبنانيين الذين يتبارى «شباب» الانتحار اللبناني في الدفاع عن وجوههم المهذبة، فلا بد أن نستطرد في القول إن فارس «وُقي» الناس في الغرب عام ٢٠٠٣ بقضية الذميمة (مطلوماً ذلك العماد عن نفسه، وبما للمصانفة السعيدة)، أي «إساءة معاملة الجهاد (٦) للأقليات»، مضيقاً - من باب تعلق الصهاينة الأميركيين والإسرائيليين بلا أدنى رهيب - أن اليهود هم المؤمنين الذين استطاعوا تحقيق كيان سياسي سيئ في مواجهة التلاسم العربي والإسلامي^(٧).

ومن بين آخر نشاطات د. وليد فارس ترقى في ٧ آذار ٢٠٠٥ «وفداً عالمياً» إلى الأمم المتحدة باسم «الاتحاد الثقافي اللبناني العالمي»، سلك كوفي عنان منغرة طالبه بالتدخل لإلحاحه القوي لاحتلال سوريا للبنان. فلما كان السوريون لم يتجاوبوا بعد مع القرار ١٥٥٩ بحسب زعم ذلك الوفد، فلزم على مجلس الأمن «التصويت على قرار جديد بالانحسار» وتشكيل قوة متعددة الجنسيات لحماية اللبنانيين من القوى الأجنبية المسلحة ولاسيما قوات الاحتلال السوري والمنظمات الإرهابية، بل ووضعت الجيش اللبناني نفسه تحت إمرة تلك القوة المتعددة الجنسيات كما تطالب الخُبرة عنان بتحرير المعتقلين السياسيين اللبنانيين من السجون السورية (لا الإسرائيلية طبعاً)، وبإعادة الممتلكات والأرشفات «التي أخذت» إلى الحكومة اللبنانية الجديدة (لا الآثار اللبنانية التي سرقتها إسرائيل)، وبتقرير سوري كامل عن «المواد العسكرية المخبأة» في لبنان (لا بتقرير إسرائيلي عن الألغام على

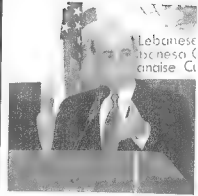
١ - من مقابلة أجرتها مجلة المسيرة مع وليد معلوف في واشنطن دي. سي. في ٤ نيسان ٢٠٠٥، www.al-jazeera.com.

٢ - راجع مقالة فارس المذكورة آنفاً، «The road to UNSCR» ٢٩ تشرين الثاني ٢٠٠٤. أما «بيثي» فمن مواليد شمال لبنان عام ١٩٤٤، هاجر إلى أستراليا عام ١٩٦٦. فعاداً تقول وزارة الخارجية في مَن يدعي أنه يحظى بدعمها، وهو الذي يُطالب أميركا والمجتمع الدولي بدعوة سوريا إلى حلّ الحزب السوري القومي الاجتماعي من ضمن المنظمات التي (اسمها وأشرف عليها جيش الاحتلال السوري)!

٣ - Walid Phares, www.israeloncampuscoalition.org, 2003.



وليد فارس وزيد عبد النور: الأول
«خير» في شؤون لبنان مع أنه لم يزره
منذ ١٩٩٦، والثاني شريك لـ «إيباك»
وصفوق البنتاغون ودانيال بايس!



لخدمة سياسة عون. والواضح أنّ رؤية نجّار إلى فارس وعلوي حدّاد تُستند إلى (وتقدّم في أن واحد) إيمانه الراسخ بأنّ العماد عون حصناً طروادة سمويّ لتقسيم المعارضة (شكائه في ذلك شأن الرئيس لحود وإيلي حبيقة عن قُبْلِهِ كما يقول) من أجل أن يكون رئيس جمهورية لبنان القادم.^(١)

أما وليد معلوف، الذي سبق أن تلقّنا عن وليد فارس قوله إنّّه لعب دوراً حاسماً في تسريع اللغوات اللبنانية بمسؤولين أميركيين وغير أميركيين من أجل إصدار القرار ١٥٥٩، فاصلته من كفرطرا، إلّا أنّه «يُلمّعننا» في مقابلة أجرتها معه جريدة النهار^(٢) إلى أنّه كان قد قرّر منذ البداية أن يكون أميركياً ومنتمياً في المجتمع الأميركي ونظامه السياسي بدل أن يعيش في أميركا وقبْلِهِ وعقله «في بلد الأجداد» - وهذا، في حدّ ذاته، يعني أنّ هُنا الأول هو خدمة أميركا لا لبنان. ويُضيف أنّ أميركا عامّته بصورة حسنة، ولهذا قرّر أن يردّ لها الجميل، وأن يساعد الرئيس بوش على الانتصار في حربه على الإرهاب وتحقيق الديمقراطية في الشرق الأوسط. وهذه الديمقراطية تستند، كما يقول، إلى الدالتر بوش الثلاث: Defence (الدفاع) والدبلوماسية Diplomacy والتنمية Development. ولذلك ارتفعت ميزانية الوكالة الدولية للتنمية البشرية USAID التي عبّثه بوش فيها من ٨ بلايين إلى ١٤ بلايين دولار خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة. بل يُضربنا معلوف أنّ بوش، من فرط حرصه على ديمقراطية منطقنا، أنشأ برنامجين آخرين لذلك الهدف هما «المبادرة المتوسطية المشتركة» والشرق الأوسط الأكبر وإفريقيا الشمالية. لكنّ ذلك لم يكتف كما يبدو، ولذلك يؤيّد معلوف رتيبته في الحرب على العراق والشرق الأوسط: «فالشرق الأوسط أشبه بشجرة بأوطع عتيق كبيرة جداً وراسخة جداً إلى درجة أنّ عليك أن تنهزها من أجل التغيير؛ فالتغيير (في الشرق الأوسط) لن يأتي من الداخل.»^(٣) ولعلّ السّيّد معلوف، بهذا

امتداد الخط الأزرق الفاصل بين لبنان وفلسطين)، ويتشكّل لجنة دولية للتحقيق من «جرائم الحرب» التي ارتكبتها السورويين منذ عام ١٩٧٦ (لا الجرائم التي ارتكبتها الإسرائيليون منذ عام ١٩٤٨، وإنّ ذلك تمّ هذا وكذا... على أساس معاهدة الأخوة والتعاون» المؤقّعة بين لبنان وسوريا عام ١٩٩١، لا على أساس القرار ١٥٥٩. وهذا يعني، في رايه، أنّ بقدر حكومة موالية لسوريا في لبنان في المستقبل أن تُطلب من القوات السورية العودة (إلى لبنان)» عليه، فإنّه يُطالب بإلغاء تلك المعاهدة أصلاً لأنّها «أساس لمشكلة».

قبل الانتقال إلى الحديث عن شخصية لبنانية - أميركية ثانية ساعدت في تحرير لبنان، لا بأس في أن نضع أمام القارئ من جديري ما قاله عن وليد فارس رئيس حكومة لبنان في إسرائيل السّيّد ناجي نجّار، لما قد يُشكّلك من معلومات صادرة عن الاستخبارات الإسرائيلية. فهو يتهم فارس بسرقة ٢٥٠ ألف دولار من خزانة القوات اللبنانية، ويأله راح يمهّد الأرض للجنرال عون في الولايات المتحدة عن طريق «قسمه» المعارض هناك وتسليم زمام أمرها إلى عون. ويُزعم نجّار في هذا الصدد أنّ فارس جُنّد د. جوزيف جيجيلي من «القوات اللبنانية» وأصبحه عدّة مرات إلى فرنسا لغاية عون من أجل «تحييد القوات اللبنانية في الخارج»، وأنّه حطّفت الاسم السياسي للاتحاد القلاني اللبناني العالمي وأخذ يستخدمه أداةً سياسية

١. Walid Phares, "Immediate Attention...", March 7, 2005, www.wlcu.com.

٢. Najm N. Najjar, "Syria and a Confused Administration...", Feb 25, 2005, www.free-Lebanon.com.

٣. النهار ٢٦ أيلول ٢٠٠٤.

٤. Washington Diplomat, 11/10/2004.

التصريح، نسي دالاً رابعة في سياسة يوش ليفرقة الشرق الأوسط هي دالاً «الدمار» destruction أو دالاً «الموت».

د - منظمات وشخصيات لبنانية - اميركية اخرى. يبقى ان هناك منظمات وشخصيات اخرى تُعمل داخل الولايات المتحدة لمصلحة لبنان. ومنها: تنظيم حراس الارز بزعامة اتيان صقر (الملقب بابي ارنز)، صاحب المجازد الشهيرة والاقوال العنصرية ضد الفلسطينيين في تلّ الزعتر وغيره. وتشير الأنباء إلى ان هذا الصقر التقى قادة منظمات صهيونية، واعترف مالكولم هولانين (رئيس مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الاميركية الاساسية) بلغائه من أجل الحديث عن «وضع المسيحيين في لبنان». كما حضر لقاء جمعه (إلى جانب وليد فارس) بالإسرائيلي موشيه بار نيا، الذي يصفه أبو أرز بأنه ناشط مؤيد للصهيونية، شديد التأييد لإسرائيل، شديد التأييد للمسيحيين اللبنانيين. فكّم من الجرائم والخطايا ترتكب باسمكم، أيها المسيحيون اللبنانيون!

ومن المنظمات اللبنانية - الاميركية التي أثبتت بلاً حسناً في تحرير لبنان مؤخرًا (ولكن من وصاية واحدة فقط) ما يُعرف بـ «اللجنة الاميركية من أجل لبنان حر» USCFL برئاسة زياد عيد النور، ابن النائب خليل عيد النور وأحد الدعاة الاساسيين لقانون محاسبة سوريا واستعادة سيادة لبنان عام ٢٠٠٢. حلفاؤه «إيهك» (لجنة الشؤون العامة الاميركية - الإسرائيلية)، والتمحالف المسيحي في اميركا، ومؤتمر رؤساء المنظمات الاميركية اليهودية الاساسية، (وهذه كلها ضيّن الروابط المختارة selected links التي تُصنع منظّمه بمراجعتها، وذلك على موقع www.freelebanon.org). دافعوا منظّمته او ما يسمى بـ «الفائز الذهبية» التيوت ابرامز (مستشار الأمن القومي لشؤون الشرق الأوسط)، وريتشارد بيرل (صقر البنتاغون)، ويولا دوبريانسكي (نائب رئيس وناشط منصف «ثورة الارز» عندنا)، وديانيل بايس (المفتش العام عن الاساتذة المؤيدين لفلسطين في الجامعات)، واليوت انجل (راعي قانون محاسبة سوريا واعتبار القدس عاصمة إسرائيل، وأحد المترجمين بالقر دولار أو أكثر للجنة زياد عيد النور). الجديد نذكر انّ عبد النور وبابيس أمثروا عام ٢٠٠٠ تقريراً مشتركاً يدعو اميركا إلى استخدام القوة العسكرية لطرد سوريا من لبنان ونزع أسلحة الدمار الشامل التي تُشكلها (١٢)، بدلاً من التعامل الدبلوماسي معها. وكان ذلك التقرير، والاتفاقي التي جُمعت في تأييده، من الوثائق التي استُخدمت لإنتاج الكونغرس بإقرار قانون محاسبة سوريا عام ٢٠٠٣. (١٣) والمخيف انّ أكثر المواقع (امثال بيرل وقايت

وايرامز ودوبريانسكي) سبق أن قرعوا طبول الحرب ضد العراق، وهم يُقرعونها الآن ضد سوريا لانفعها إلى الخروج من لبنان فقط وأيضاً لتغيير نظامها أيضاً - وهو ما يذكر بظلم عون في ٢٠٠٢/٨/٢٠ أمام اللجنة الفرعية للعلاقات الدولية في مجلس النواب الاميركي. والحق أنّه يصعب ان تجد وطنياً أو قومياً حقيقياً يُحرص على بقاء أيّ نظام عربي على ما هو عليه، ولكن يصعب أيضاً ان نقنع بأن ما سكتي به اميركا وإسرائيل بديلاً سيكمن أفضل كثيراً من كرازي وعلاوي!

III - خاتمة

كانت إطلاعة سريعة على نشاط وخطب الجنرال عون وبعض الشباب في دبل الانتشار. فلا يغربكم ما يفعله بعض أبنائكم في الخارج، أيها المواطنون القابضون في لبنان. فهم يعملون - أيرون أم لا يُدرون - من أجل وصاية أخرى بديلة عن الوصاية السورية (المرغوبة بديرها طيباً). والاهم انهم يتآمرون على المقاومة، وعلى سلاحها، في الوقت الذي تستمر إسرائيل في خرقها فيه اليومية، وفي احتلالها لمزارع شبعا، وفي احتفاظها بالأسرى وجثث الشهداء، وفي إحصاءها عن تسليم خرائط لحقول اللغام الممتدة على طول الضف الأزرق بنسبة ٨٠٪ ويصمق ١٠ - ٢٠٠ متر (١٤)، وفي منمها لبنان من الاستعادة من كامل حصته المائية من نهري اليرموك والحاصباني، (١٥) وفي منعها الفلسطينيين في لبنان وغيره من حق العودة إلى بيوتهم في فلسطين. ومع ذلك، ليس مُستبعداً ان يعود بعض اللاعنين السياسيين اللبنانيين إلى الحديث عن نزع سلاح المقاومة. فما هو العماد عون يُطلب من حزب الله أن يقاوم «ثقافياً وإعلامياً» فقط (لعل السيد نصر الله يصبح زميلاً لنا في الصحافة عما قريب). وما هو السيد سعد الحريري يصحّر لجنة نيزويك بـ «أنا سننزع سلاحهم» We will disarm them (١٦) وكان في ٢٩ ايار قد قال لـ واشنطن بوست الجملة نفسها. (١٧) وإن كان في الحالين قد أتبع عبارته تلك بالقول: «سنجلس وتحدث معهم وسنصل إلى حل». والسؤال الذي يطرح نفسه: ماذا لو لم تصلوا إلى حل يا شيخ سعد؟

وبالعودة إلى موضوعنا الاساسي عن اللوبي اللبناني - الاميركي، فليُفهم في الضمام التثبيتي إلى وجود مثقفين واكاديميين وناشطين آخرين بجمعيات لبنانية وعربية - اميركية تُدافع عن حق لبنان وحق فلسطين وحق سوريا والوطن العربي عامة في التحرر والسيادة والاستقلال... من كل القوى والأحلاف المتحجرة. ولعلّ هذا ان يكون موضوعاً تطرق إليه في المستقبل القريب.

بيروت

١ - "US Committee for a Free Lebanon," rightweb.irco-online.org.

٢ - العميد أمين حطيط ملحق السفيرة، ٢٥ ايار ٢٠٠٥ (مقال لكامل جابر).

٣ - نصيخ إسرائيل يومياً أكثر من ألفي متر مكعب من الحاصباني وأكثر من (المصدر السابق).

٤ - Lally Weymouth, Newsweek, June 6, 2005.

٥ - Washingtonpost.com, May 29, 2005.



هادي دانيال

حوار مع الشاعر السوري هادي دانيال

حاوره: كمال الرياحي (تونس)

■ هل خان الشاعرُ الطريق؟ ■

«الشاعر يجب أن يتمثّل في شعره إلى حدٍّ ما. فإذا كان شاعراً مُجيداً، فشعره مرآةٌ لنفسه... بحيث تستطيع أن تقرّأ قصائده المختلفة فتشعرُ فيها بروح واحدة ونفسٍ واحد وقوّة واحدة. وقد يختلف هذا الشعرُ شدةً وليناً، ويتباين عنفاً ولطفاً، ولكن شخصية الشاعر ظاهرة فيه، محققة الوحدة الشاعرية التي تمكّنك من أن تقول: هذا الشعر لفلان، أو هو مصنوع على طريقة فلان.»

انبعثت في ذهني هذه العبارة لعلّ حسين وأنا اتحمّس مدوّنة هذا الشاعر الذي راودتني خصوصاً غير مرّة في إحدى المكتبات العمومية في إحدى ضواحي تونس العاصمة التي سمعتُ أنه يقيم فيها منذ سنوات. إنه الشاعر السوري هادي دانيال، من مواليد اللاذقية سنة ١٩٥٦. غادر قريته الصغيرة باللاذقية وهو بعد طفل؛ فقد دفعه جئونه إلى المفامرة مبكراً والمقامرة بفراش العائلة الدافئ ليقتحم برد الخلاء وصقيع المجهول. هكذا عبّر الشاب الصغيرُ حدود سورية ليبدأ رحلة شعر ونضالٍ عجيبة، رحلة تبه بين مدنٍ عالمية كثيرة ترويها هذه الذاكرة المحمومة في هذا الحوار.

لتفكّك طلسم اسمك أولاً: هادي دانيال. فانت الهادي، وهو اسم من أسماء الله الحسنى؛ وانت دانيال، وهو اسم يوحى بعجمة للوهلة الأولى، ولكنه أيضاً اسمٌ نبيّ ظهر في بني إسرائيل. وانت الهادي من «الهدوء» والحال أنك الشاعرُ أبداً. كيف تتعامل مع هذا الاسم؟ وهل أرضى غرورُ الشاعر فيه، الشاعر الذي تنتابه أحاسيس النبوة والألوهية بين اللحظة والأخرى؟

أنا كنتُ اسمي كما يُنحتُ تمثالٌ من صخرة أو جذع شجرة. فقد أخرجتُ هادي دانيال من «عبد الهادي دانيال الوجة». لماذا؟ امتنع الآن عن ذكر ذلك، نقاداً للتأويل السيئ والسلي. لكنّ ذلك حصل لأوّل مرة في بيروت سنة ١٩٧٥، مع الأشهر الأولى من الحرب الأهلية اللبنانية. وقد ارتسم اسمُ

هادي دانيال لأول مرة على الصفحة الأخيرة من مجلة **الصمود**، ثم على الصفحة الأخيرة من مجلة **الهدف**، وهما مجلتان فلسطينيتان: الأولى كانت لسان جبهة الرفض، والثانية لسان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. لكنني تنبّهت في هذه اللحظة إلى أن طريقة تغيير وتحديث اسمي كانت مؤشراً إلى طريقتي في تغيير وتحديث كتابتي الشعرية. فانا في التغيير والتحديث أشدّ وأهدأ وأنتي وأطو، وفي هذا السياق أستغني عن الزائد والفاسد؛ لكنني لا أمتز وأخرّب لأبني على الانقاض، ولا استبدل تراثاً بتراث، أو مرجعيةً بمرجعية.

حُكِّمًا عن أول نصوص نُشرت لك.

القصيد الأولى المنشورة كانت سنة ١٩٧٢، وكنت أخشى أن يُعرف والدي بأمرها لأنه كان يعتقد أن الشعر يدفعني بعيداً عن الدين ومقاعد الدراسة. لذا لم أشعر بمتعة ما في تقبل أول نص شعري لي مطبوعاً في مجلة لاحقاً نُشرتْ صحف ومجلات عديدة قصائدي، ولا أحد تقريباً كان يعرف أنني أناطها؛ حتى إسمائتي وزملائي في «إعدادية الواقدي» بمدقم لم يُذكروا ذلك إلا عندما اتصل بإدارة المدرسة رئيس مجلة جيل الثورة الشاعر بندر عبد الحميد ليؤكد من أن عبد الهادي الوردة، الذي خصّص له زاوية نصف شهرية في المجلة يحزرها بالمراسلة، هو فعلاً تلميذ في هذه المدرسة كما ينبغي. ولاحقاً عندما زرت القرية ذات صيفرقام والذي باقتلاع اسمي من نصوصي المنشورة، مستخدماً بشفرة حلاقة. كما قام بإتلاف كتيبي غير المدرسية، وبطريقة أغاظتني بل قهرتني. وهذا كلّ أنصع قراري مغادرة منزل العائلة نهائياً، فنزلت في البداية ضيفاً مؤقتاً عند الصديقين القديمين الرسام والشاعر السوري زهير غانم والرسّام العراقي صالح الكردي.

والدي اقتلع
اسمي من
نصوصي المنشورة
بشفرة حلاقة،
وأُتلف كتيبي غير
المدرسية!

ولكن قبل ذلك كان صديقي بندر قد دعاني إلى زيارة المجلة وزيارة بيته، وأمدني كتاب **الشعر والتجربة** لـ «ماكليس»، الذي أثار في كثيرٍ، مثله مثل كتاب صديقي إسماعيل رامبو - قصة شاعر مقشود، الذي قرأته مع الإغاني والأعمال الكاملة للسيّاب والبياتي وأونيس وحاجي وعبد الصبور ويوان الشعر العربي لأونيس من مكتبة الصديق محمد خالد رمضان. تحت تأثير كتابي ماكليس وإسماعيل قرّرت ربما لا ترك منزل العائلة فحسب بل وتجاوز حدود بلادي كذلك. وفي تلك الفترة رشّعتني بندر لفخيلة اليد في إنجاز مشروع سدّ الفرات، واستقبلني وزير السد حينها مع مكلفي بقية الصحف ووسائل الإعلام السورية. كانت تلك أول مهمة صحفية أقوم بها، وقد نُشرتْ جيل الثورة ما أنجزته، وهو مجموعة مقابلات عن معاناة العمال المياومين في هذا المشروع أثارت حفيظة الوزير وسخطه. كما نُشرتْ لي مجلة جيش الشعب، التي كان يُشرف على قسمها الثقافي حينها صديقي الشاعر الراحل ممدوح عدوان، قصيدتي التي استوحيتها من تجربتي الصحفية الأولى بعنوان «عندما يُمدد الدم في الشرايين» وهنا أشير إلى أنني في الصيف الذي سبق تلك الفترة التي غادرْتُ المنزل خلالها، عملتُ في الشركة الخماسية للنسيج ثلاثة أشهر أو أقل، وكتبتُ قصيدتي «يوميات عامل في الخماسية».

إنّ لم أعرف بهجة المفارقة بنشر النصوص الأولى، التي لم تضم مجموعاتي الشعرية العشرارة منها، لأنني كنت أخوض حراماً سرياً ليس من أجل الاعتراف بي كشاعر، بل من أجل التحرر من التزامات الدراسة والمجتمع. حتى الشاعر ممدوح عدوان وزميله رياض عصمت كانا خلال فترة مناوبتهما في مجلة جيش الشعب يعطيان دروساً قوية في الإنكليزية والرياضيات للتكمّل من نيل الشهادة الإعدادية. لكن المفارقة أنني في موعد تقديم امتحان هذه الشهادة اخترت الذهاب إلى مدينة الطرقة لفخيلة اليد بإنجاز مشروع سدّ الفرات، فعدتُ عوضاً عن الشهادة بأول تحقيق صحفيي وقصيدتي لحتني بها ممدوح عدوان نفسه عندما نشرها قصيدة العدد.

مضى بدأت حكايتك مع الرحيل؟

بعد قراخي كتابي **الشعر والتجربة**، ورامبو - قصة شاعر مقشود، وربما بعد أن سكتنتي طناً حكايات والتي الباكية حول أخيهما غير الشقيق، الشاعر الزجال الذي غادر إلى بيروت مبكراً، فُكِّرتُ في التوجه صوب بيروت. كنت تحت السن القانونية التي تؤهّلني للسفر بمفردي، فاستغللت سيّارة أجرة إلى الحدود السورية - اللبنانية، وهناك تسكّلت من خلف الموقع الحدودي إلى اللويان

وبدلت الأراضي اللبنانية. وحين استوفقني زجلاً أمن مطار دارن المهريين، اختلقت حكاية مؤثرة زعمت فيها أن والدي طلق والدتي وتركني وشقيقاتي بلا مَيل، فطلبت أمي مني الذهاب للعمل في بيروت عساني أعيلها. نمت عينا الرجلين وأوصلاني إلى طريق شقوره، وهناك استقلت سيارة أجرة لبنانية إلى بيروت. عندما دخلت الأرض اللبنانية شعرت أن للسماء لوناً آخر، أخضر، وانتابني أحلام يقظة استعنتها في بعض قصائدي.

كنت أحمل معي رسالة إلى الشاعر سليم بركات، من صالح الكردي وزهير غانم. وقيل لي أن أسأل عنه في «دار العودة» كان سليم قد سبّقي إلى بيروت بدعوى من أدونيس، الذي أشهد له مجموعته الأولى من منشورات مواقف، وأُمن له عملاً كمصحح في دار العودة التي كانت موافقاً تصنّف من مطابعها. وصلت مساءً إلى دار العودة، فوجدت شاباً أخذني إلى سليم بركات على درجته النارية. فوجئ سليم بي لأنه لم يُعرفني. لكنه تذكر كتاباتي، واحتضني بي أكثر بعد أن قرأ رسالة صالح وزهير. لكنه قال لي بلهجة لم تعجني: «أنت طبعاً تريد أن تقابل أدونيس؟» فأجبته على الفور: «طبعاً لا!» وبعد فترة صمت قال لي: «عدّ إلى دمشق. من الصعب إيجاد عمل هنا عندما أجد لك عملاً أعيذك بأن أرسل في طلبك» سألته: «هل تعرف شريف الربيعي؟» أجب: «طبعاً» قلت له إن معي رسالة إليه، فهل يصلني إليه؟ كان الربيعي مسكرين تحرير مجلة إلى الامام الفلسطينية، وهو شاعر عراقي توفي قبل سنوات في لندن وهكذا نمت أول ليلة لي في غرفة سليم بركات، وفي اليوم التالي التقيت الربيعي في مجلة إلى الامام.

لم ألق سليم بركات إلا بعد سنتين في مجلة الهدف التي كان محرراً الثقافي، وتحدث لأعمل مصصماً فيها. وبعد أشهر توفي ملال رحمة، صديق سليم الذي كان محرراً ثقافياً في مجلة فلسطين الثورية، فغادر سليم الهدف ليحل محله. وحين سألته بسام أبو شريف عن سبب ترك القسم الثقافي في الهدف، قال له: «هادي دانيال»، وهذا ما حصل!

في اليوم الثاني نمت عند شريف الربيعي، وفي الليلة نفسها بدا أنه لم يصدق أنني شاعر، إذ كان يراني مصصم السجّ خجولاً غير جدير بالمصير الذي غمرتني به رسالة صالح وزهير فجاني بحبّ زرقاء صغيرة وناعمة وقال لي «خذها مع جرة ماء، وهذا قلم، وهذه أوراق بيضاء، وأرني إن كنت شاعراً حقاً»، وفجأة، كتلميذ في امتحان، افترشت سجادة على أرض الغرفة وشرعت أكتب، فأنصرفت تصديقتين طويلتين في جلسة واحدة، الأولى هي «قلبي خارطة سوداء» وقد نُشرت في مجلتي الموقف الأدبي والفكر المعاصر ولاقت صدًى رائعاً، والقصيدة الثانية عنوانها «الرقص في غرف الأحلام المغلقة»، فراها شريف وصار من بعدها يُنشر قصائدي بافتخار في إلى الامام.

استقلال الشعراء من كتابة المعنى بدافع الجمالية، يثابني إحساس أن هذه الالكوبة بدأت تصل نورتها لتنهال، وسيُبعث زمن المعنى من جديد، زمن القصيدة المسؤولة فنًا ومعنى. على ضوء ذلك كيف تلقى الشعر العربي المعاصر إلا ترى أن ثقافة اللعب قد أجهزت على شعريته؟

خروج الجمالية على المعنى في الشعر هو خروج على الشعرية ذاتها، فحتي في أقصى الانفعالات الاتجاه التجريدي في الفنون التشكيلية لم يتم التخلي نهائياً عن المعنى، وإن صار التعبير عن أشد نزوعاً نحو الموضوع الذي لا يتخلل دائرة الإيهام؛ ذلك لأنه يدخل كهذا يُمكن الفنان عن عجز بين، وعن تحلل تفشل الزائغ النظرية في تبريره، وإذا تتبّعنا تاريخ الفنون عمومًا فنستلاحظ أن «التهيش» للمعنى كان يتحصل في مراحل تجريبية لكسر النمطية واكتساب مهارات تقنية تُثني الأساليب التعبيرية، لتنت العودة إلى المعنى بقوة. وعموماً لم تُنمّ المراحل التجريبية عن فنانٍ مفرط أو حركة فنية إعمالاً مهمّة استغنت عن المعنى، لكنها أثمرت تقنيات جديدة استُخدمت في أعمالٍ تمتاز بقوة المعنى وقوة التعبير الفني عنه ممّا.

وعندما أعلن الشعر العربي المعاصر خروجه على القصيدة العمودية، أكد أن هذا الخروج الثوري يركز أساساً على الانتقال من وحدة البيت إلى وحدة الموضوع في القصيدة؛ فهو انتقال على مستوى التعبير عن المعنى تعبيراً فنياً وصلّ ذروته في إنجاز وحيد فنيّ شملت الشكل والمضمون في الأعمال الشعرية الأساسية عند شعراء مثل السياب والبياتي وحجازي وحايي وأدونيس والماغيط والحاج ودرويش وعدوان وبنغل والفيثوري.



انتقل سليم بركات إلى فلسطين الثورية، وتسلّمت القسم الثقافي في الهدف مكانه

وأرى أنّ الذي حَصَلَ هو استقالة الشعراء من كتابة المعنى، وبالتالي من الشعرية، وليس استقالة المعنى. والجمالية المزعومة قد تكون ذريعة، لكنها بالتأكيد ليست دافعا حقيقيا. وللاقترب من المعضلة أشير إلى أنّ الخروج على المعنى ليس من تداعيات «قصيدة النثر» مثلاً، بل عرفته قصائد عصر الانحطاط، وهذا اللعب بالألفاظ، وأنكأ النص على «فانتازيا» في تركيب الجمل اللغوية، وسوّق الصور الحانية.. هي كلها من الأمور التي نجدها في الأشكال الإيقاعية للقصيدة العربية المعاصرة كائناً: الشكل العمودي، والشكل الذي يعتمد التقبيلة، والشكل «النثري» أي غير الموزون وغير المقفى. وبغيا ب المعنى غابت وحدة الموضوع، وسادت نصوص تتكوّن من هذيانات إيقاعية ولغوية أو شطايا من فانتازيا الكلام النثري. واعتقد أنّ وراء هذه الكتابة، غير الشعرية أصلاً، بعض المتطلّعين على الكتابة الأدبية، أو بعض الشعراء الذين امتلكوا مهاراتهم تقنيّة لكنهم بلا تجربة ثقافية معرفية وبلا تجربة إنسانية عميقة!

إنّ على الشاعر كي يتجدّد ويخصّب موهبته أن يقرأ ويقامر في الحياة قبل أن يقامر في اللغة. والشاعر الذي لا تملكه أسئلة وجوده كإنسانٍ فردٍ وأسئلة الوجود بأسره، ليس أكثر من تقنيٍّ لغويٍّ لا يشعر بإنسانيته، فكيف يكون شاعراً؟!

اعتقد أنّ ما وصفته بـ «ثقافة اللعب» هي فناء يُثير الشفقة على البعض الذي يحاول أن يُخفي به تملّكه المعرفي والوجداني. وهذا البعض لا يُهّجس بمسؤولية فنية أو إنسانية. فالشاعر عنده لقبٌ اجتماعي، والشعرُ مصدر ارتزاق إضافي أو مطبّع إلى الحصول على بعض مغريات المجتمع الاستهلاكي والتكثيف مع «قيمة» الاستعراضية الخاوية!

■ بغيا ب المعنى، سادت نصوص تتكوّن من

هذيانات إيقاعية
ولغوية أو شطايا
من فانتازيا الكلام
النثري

ما دعنا نحدث عن المسؤولية فلننتقل إلى مجموعتك: راس تدأوتك الشُّبَعات. هل يعني هذا العنوانُ ضمن ما يعنيه، أنّ الكاتب العربي أصبح لا يستقلّ على لونه ولا على اتجاهه، حتى تحوّل إلى شيءٍ أشبه بغانية أو جارية تُعرض في سوق الفخاسة، فيكسوها شاربها بما يشتهي؟

هذه المجموعة أثّرت عني. فقد كثبت نصوصها في واحدة من أصعب مراحل حياتي وأكثرها توتراً وتجرّساً لكؤوس الحظنل العربي الرسمي والثوري وهي أيضاً تُصدّر عن تجربة شخصية إنسانية متميّزة، فجاءت مختلفة عن النصوص التي سيّقتها والنصوص التي تُلّتها. وهؤلاء المجموعة مفتوح على قراءات مختلفة، وبينها قراءتك التي أوحّت بسؤالك القاسي. ومحاولّة مني في إنصاف الكاتب العربي المعاصر، أشير إلى أنّه لم يتوفّر له سرُّ الإبداع الأساسي، أي الحرية، لا في مناخات السلطة الرسمية ولا في مناخات المعارضة. والحال أنّ السلطة الرسمية تُخجّب عنه حقّ النقد، وتقيد حريته في الكتابة أو في الإجهار بما يُكتب وتُشرّه على الملأ. كما أنّ المعارضة الحزبية تريد أن تُثّل عليه كيف يُنتقد السلطة الرسمية ومتى وأين، وتحرّم عليه أن ينتقد ويناقش سلوك هذه المعارضة وأفكارها. ومن ثم يجد للناقد المعاصر نفسه مهذّباً بين إغلاق زنازين السلطة الرسمية عليه، وتخوين المعارضة له! وهذا بلا ريب يجعله كائنًا مشوّشًا، ويصبح مع الوقت عرضةً للوقوع في فخّ النظام العربي الرسمي، الذي كُتبه بربطه بدءاً بصحفر ومجلات البيروقراطية القومية ولاحقاً بإعلام الطائفة الخليجية. ومع انهيار الاتحاد السوفييتي رأينا كيف انتقل كُتّاب ماركسيون إلى منافحين عن السياسة الإمبريالية الأميركية في ذروة توحّشها، مُبرّرين هذا الانقلاب بما يزعمونه من انهيار الإيديولوجيا، وكان السياسة الأميركية التي تُشعل الحروب وتُشكّل الدماء وتُخرّب الأوطان وتُدمّر البلدان لا تُصنّف عن إيديولوجيا يمينية أكثر تحشّشًا وأذى للإنسانية من إيديولوجيا هتلر وموسوليني!

أردت القول إنّ غياب الحرية، والترهيب بالسجون، والتخوين، والترغيب من خلال ربط ضمائر المثقفين بمغريات المؤسسات البيروقراطية وجوازها... كلّ ذلك جعل الكاتب العربي أكثر حريانيّة. وحتى تلك المؤسسة الخليجية التي عُرِفَتْ بمنح جوائزها لكُتّاب مبدعين يساريين أو مستقلين، كحقاً منه وسعد الله وتؤس ومحمود درويش وأدونيس وعبد الرحمن منيف، أعلنت سحب الجائزة التي كانت أسندتها إلى سعدى يوسف لا لآلة طلب من توني بليز أن يأتي بجيشه ويحتل العراق «ليخلصه من صدام حسين» على حدّ تعبير «قصيدته» الشهيرة قبل العدوان الأنجلو - أميركي على العراق في مارس/آذار ٢٠٠٣، بل لأنّ سعدى انتقدت زعيم الدولة التي يُثبّن أحد أمرائها هذه الجائزة. فأيّ استقلالية لهذه الجائزة؟!

لأسف نحن نفتقر إلى المثقف العربي العضوي. ولأننا لم نشهد حركة تنوير أو نهضة عربية معاصرة، فإن المثقف يشعر أن على عاتقه مسؤولية خلق هامش للحرية، يمكن أن يقسم ليشمل للجموع العربي بأسره على الصعد كافة. نحن نفتقد المثقف المؤثر بالأفكار التي يخلقها ويروج لها. بدليل أن هذا المثقف سرحان ما يتخلى عن أفكاره ويخونها عند أول امتحان! حتى أولئك الذين يدعوا ثمناً لأفكارهم إتلاف سنوات من عمرهم في السجون الرسمية سارعوا إلى استئثار هذا الثمن باللاجئ، إلى الأجنبي والاستقواء به على مصالح أوطانهم وشعوبهم انتقاماً من الانتفاضة العربية التي ركبهم سابقاً في سجونهم، أو بتوظيف هذا «الرصيدة» للظهور على القنوات الفضائية المشبوهة في سياق التخريض الصهيوني - اميركي على الاقطار العربية المستهدفة من أجل تحقيق المشروع الشرق الأوسطي. وهدم أولئك الذين تم اغتيالهم، كفسان كنفاني وناجي الطي ومهدي عامل، قسراً ثابتين على مبادئهم اليسارية!

في زمن الجمرة الخبيثة والفتائل العنقودية والأفغام الذكية وأسلحة الدمار الشامل، يكتب الشاعر العربي نصوصاً تقطر عشقاً وشوقاً، ويحلم آخر بالكونية واليوم الذي يكتب اسمه في الموسوعة العالمية. باختصار، هل خان الشاعر الطريق وتامر على أمته؟

في زمن الموت الذي أشرت إليه يُفترض بالشاعر الحقيقي أن يكون أشد ضراوة جمالية في مقاومة بُح أسباب الموت وأشكاله. فإن تقطر النصوص عشقاً وشوقاً إلى الحياة وكاناتها الدمشية الجميلة، وأن يحفي الشاعر بتجليات الحياة في لحظة تاريخية من الكوارث السياسية والعسكرية والطبيعية، وأن تلبس نصوصه حياءً وحناناً وأملًا يتفق عنه يأسه وحزنه النبيلان، فإنه يكون عندئذ وفيما طريق الشعر الأصلي ولا يتأمر إلا على الحقد والبغضاء وتقيحات الروح ليفتح كوة في الجدار الذي يُلصق الأمة عن تقفها نحو المستقبل.

لقد قُمنا لن الشعر العالمي أكثر من نموذج، أحبها إليّ مفخرة تشيلي بالبو نيرودا الذي مكن تشييده الشامل عناصر الحياة، ودان مظاهر الموت وأسبابه، وكتب بلغة شفيفة أجمل قصائد الحب وأعذب نصوص السيرة الذاتية. ولقد تشرقت جائزة نوبل بان مكنت نفسها لنيرودا لتتزين به، بينما يتدلل بعضُ شعرائنا الآن ملطماً بأن تُوزج أسماؤهم في سجلات نوبل، ومنهم من لا بالصمت إزاء معاناة شعبه من الاحتلال. هذا البعض من الشعراء يُهزني حقاً. ومثلما تعلمتُ منه وهو يعلو بالقصيدة العربية وتعلو به، أعلمُ منه وهو يسقط بها ويسقط به إلى رداءة لا ينجبها تراكم التقنيات الباهتة!

في ديوانه، في مهبط الرغبات، تنعطف الكتابة عنده نحو الإيروسى وكتابة العشق الصافي، بعيداً عن الإيديولوجيا التي كانت تُرسم ملامح نصك الشعري. وقد انفتح ديوانك بقصيدة حملت عنوان «وداعاً»، فهل يعني هذا أنك ودعت محرك نصك الشعري القديم وأعلنت إفلاساً؟

قصائد في مهبط الرغبات تمرّ عن تجربة حبّ عنيفة استغرقت سنوات من عمري في التسعينيات، لم انقطع خلالها إلى الكتابة الإيروسية والعشق الصافي. فإلى جانب هذه القصائد، بموازاتها أو تداخلت معها، نصوص لن تكون دقيقين إذا قلنا إن الإيديولوجيا كانت مُحركها، لأنّ الصحيح هو أنها كانت تُعنى بالشان العام، تستويحه وتكتبه شعرياً، تعيد صياغته من زاوية رؤية أكثر إبداعاً وإحساساً إنسانياً وإمساكاً بنضج الحدث وحسماً بالآفاق التي تتجه إليها حركة الحدث. لقد كان العدوان على العراق والحصار الوحشي الذي تلاه وتداعياته في فلسطين هي عناوين الشان العام، لكنّ المهم عندي كشاعر أنني كنت أستويحه وكتبته شعرياً بعد تحوّل عندي إلى شان خاص أيضاً، مثله مثل تجربة الحبّ الحارة التي ابتدا كتابها بقصيدة «وداعاً»، التي ربما كنتُ بها أروع هذه التجربة. لتبدأ حياة أخرى معه لحظة استقرتُ بين غلافَي كتاب.

إنّ الشان العام سيبقى بعد تحوّل إلى شان خاص متراكماً مهماً لنصّي الشعري، ولكن نصّ شعريّ يعتمد على الوضع البشري في لحظة تاريخية يحولها الشعر إلى لحظة أدبية يتلمّس الرموز فالشاعر يحول الإنسان في الشان العام إلى عمل فنيّ خالده، تاماً كما يُستخلص الذنب الخالص من التبر ويُصاغ في أشكال فنية جميلة، بغض النظر عن وظائفها الاجتماعية والاقتصادية والدينية وغيرها. وإنّ الإيديولوجيا الوحيدة التي تبقى مرجعية لكل عمل فني حقيقي، في كل زمان ومكان، هي إيديولوجيا



وهدم أولئك الذين تم اغتيالهم، كفسان كنفاني وناجي الطي ومهدي عامل، قسراً ثابتين على مبادئهم اليسارية!

المقاومة، مقاومة الشرّ والقيح، مقاومة الظلم وسلب حقوق الشعوب واحتلال أوطانهم واستباحة كرامتهم وهدر معهم وقيمهم، وأيضاً مقاومة الرداءة والتصلّب الوجداني والمعرفي والأخلاقي. هذه الإيديولوجيا لن تُفلس، رغم أنها قد تتعرض للتزوير أحياناً كما يحصل لها اليوم على أيدي وسائل الاتصال العابرة للقارات التي تسيطر عليها الصهيونية العالمية وتديرها الليبرالية للتوضّح.

أنت من الشعراء المُتهمين بالبيكائية. والحقّ أنّ الشعر العربي وكُدّ في بركة من الدمع، وفي حظة بكاء كان امرؤ القيس والخنساء يتناويان فيها على إدارة أوركسترا النواحي حسب رايته، لماذا صورة المظلوم تمثّل القُتر الذي يحاصر الشاعر - فهو المترك والمحرور من الحبيبة ومن العذبة، وهو المُبعد من النُجج ومن الوطن؛ إلا ترى معي أنّ الشاعر العربي كان هو المتسبّب في مصيره هذا عندما اختار أن يكون تابعاً أو مداحاً للحبيبة أو للقبيلة أو للدين أو للسُلطان أو للثورة؟

لا! امرؤ القيس كان يبكي مُلْغاً، والخنساء كانت تبكي أخاً، ولكنّ يجب ألاّ يُقوّنك أنّ الأحزاب «الليبرالية» والدينية» واليسارية الديمقراطية» هي التي تستقوي الآن بالروم المعاصرين على أوطانها وتُعرض ظهورها على الأجنبي ليمتطّيها كاحصنة طرادة جديدة لاحتلال العواصم العربية بغداداً بعد بغداداً صحيح أنّ سعدي يوسف فعلاً مكرراً جدّه امرؤ القيس وهو ينادي توني بليركي يخلّص من صدام حسين، لكنّ يجب ألاّ تُلقَى بالروم على الشعراء وحدهم، بل علينا أن نتذكّر النقاد وخصوصاً الذين يُقدّرون أن لا يُنتهوا عن شيء ويأتوا مبعّثاً، ولناخذ هنا مثلاً محمد لطفي اليوسفي، الذي كنت أحسبه الأكثر جدية. فكيف تنفهم أن يُقارن أحد شعراء البلاطات العربية بهول إيلوار شاعر الحرية؟ كيف لا نُلمّ نافذاً أكاديمياً وهو يُشرح شاعر بلاط، بينما تُستهمل لوم الشعراء على امتداد الحبيبة والثورة؟

حالّ الأمة والوطن، وحالّ مَنْ يُدعون أنّهم نخبة السياسية والثقافية، هل يُزيق بها غيرُ الهجاء المرّ والبيكا، الأمر؟

ومع ذلك فانت أولّ مَنْ يُزعم أنّي مُتهم بالبيكائية! فالحرز الذي يجعل شعري بين الهجوع والانكفام المتوحد نحو العائلة للصغرى، كما يقول محمد علي اليوسفي، ليس غريباً من البيكائية. وأن أبوء شاعراً مقاتلاً يتخطّى بالنبل في أقصى حالات الانتقام ويُسْتخدمُ لغاً خاصةً تغازل أو تعاقب بالمفردات العذبة، كما قال أحمد مطر عن شعري أيضاً؛ وأن يأتي حزني وانكفائي وقبالي الذليل بمفردات عذبة «ضمن إيقاعية على جانب كبير من الهدوء والرقّة»، كما قال الراحل الكبير بلند الحيدري... إنّ ذلك كلّ لا يستقيم مع هذا الاتهام غير الموفّق بالبيكائية.

أما إنّ كنت أمتدّح في شعري فممدوحى هو التجلّيات الفاتنة لحماية الإنسان كقيمة عليا في كل زمان ومكان - هذه القيمة التي يدوسها الغرب اليوم تحت شعارات فرض الحرية والديمقراطية بالآليات المجزّعة والقاذفات المجتّعة.

يعيش هادي دانيال من الكتابة، وهي معشوقته الأولى. اليس صعباً أن تُعشق الشيء وتبغيه؟ إلا ترى معي أنّ إيجار الكاتب على العيش من قلمه يُخمل نيةً سيئة للإجهاد على ملكة الكتابة عنده، فتكتسّر أقلامه على أبواب أفران الخبز اليابس؟ وهل أثر نشاطك الصحفي في نتاجك الشعري؟

أنا لا أعيش من الكتابة الإبداعية، بل من «التجبير» على هامش الكتابة، من مهارات تقنية تكتسبها بسرعة من خلال مغامرة الكتابة الإبداعية. لكنّ كي نعيش، فإنّنا لا نحتاج إلّا إلى توظيف هذه التقنيات في كتابة خبر أو تقرير إخباري لوكالة أنباء، كما هو حال اليوم.

لقد كنتُ محظوظاً، أو سيّئ الحظّ، لأنني في سنّ مبكرة (الثامنة عشرة تقريباً) اتخذتُ الكتابة مهنةً ووسيلةً لتسالي في آن. بدأتُ لأوّل مرة أنقاضي مركباً شهرياً عن عملي محرراً ثقافياً في مجلة الصمود، لسان حال «جبهة الرفض الفلسطينية»، وكان معلّمي وصديقي في هذه الفترة الأستاذ مؤيد الراوي، حينها كان عبّاس بيضون، مثلاً، مناضلاً في حزب العمل الاشتراكي العربي، وهو الجناح اللبناني للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ويكتب من الجنب لمجلة الحزب: الثوري. في تلك الفترة كنّا يومياً نُسهر حتى الفجر منتقلين بين الفدائين الذين يقومون بواجبات الحراسة الليلية: نخبّن، ونشرب الشاي، ونثرثر ساخرين من بيروقراطية قيادات الثورة، ونشعل فضاءات شوارع منطقة الفاكهاني بقهقهاتنا الصافية. وفي حين كان مؤيد تروتسكياً نشيطاً، هو أبنيّ المفضّل شق

الفصائل اليسارية. كنتُ ما أزال أقرأ المادبةً الديالكتيكية والمادبةً التاريخية بإشراف صديقي الكردي الأردني سيف الدين بدرخان الذي كان ملاكماً وقيّاً يحميني بقبضته القوية حين يحاول «قبضاي» بهجة مهاجمتي ونعتي بالمرجوازي الصغير لكوني شاعراً صغير السن وصرت أوتوب لاحقاً من واجب الحراسة الليلية. كنتُ أؤسّر - إيديولوجياً - بين لينينية سيف الدين وقروتسكية مؤيد!

لهم أنثي في الهدف وجدتُ حلاً للمعادلة الصعبة بين الصحافة والكتابة الإبداعية. تتمثلُ في تجربة غسان كنفاني الفريدة. فغسان هو الذي أسس هذه المجلة. وكان مسؤولاً الإعلام والنطاق الرسمي باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، إلى أن فجّر الإسرائيليون سيارته واستشهد في الحازمية أوائل السبعينيات. وبعد خلاف مع الصديق بسام أبو شريف، رئيس تحرير الهدف، تمّ تكليفي بإصدار مجلة للشبيبة التي كانت واحدة من ثمار اندفاعي الحارّ لتفكّل تجربة كنفاني، فأصدرت سنة أعداد شهرية قبل أن يُجهِضَ حزبيّو الجبهة الشعبية هذه التجربة، التي دعمني لإنجاحها أصدقاء مثلُ الراحلين المصريّين عبد الرحمن الخميسي وعلي فخري، ومثلُ الكتاب الفلسطينيّ فيصل دراج ويحيى يَظْطَف ويخيري منصور، والعراقيّين قاسم خوّل ويوسف الناصر، وللناضلة وداد قديري.

إذًا، في مناخ صحفيّ إبداعيّ، قد يؤثّر النشاط الصحفيّ إيجاباً في الإنتاج الشعريّ. لكنّ لاحقاً، وخصوصاً الآن، يتفَعَنِي الاهتمام بالخبر الصحفيّ بعيداً عن الناحية الإبداعية الخصب وتُشَتِّلُ وقتي بما أكتشف أنه ضريبٌ من العبث واللاجئويّ. ويُشَكِّنِي القولُ إنّ شاعراً كمحمود درويش أماده ما اتاح له الرئيس الراحل عرفات تحديداً من إمكانيات مادية تجعله يتفرّغ لكتابة الشعر، ويُصدر مجلة الكرمل ضمن هذا الهاجس الإبداعي. وقد شكّلت الثورة الفلسطينية شرارةً ومبدعاً أقلّ قيمة من التفرّغ عملياً للكتابة ولو بإمكانات مالية أقلّ. لكنني شخصياً، وربما لأنني لست فلسطينياً، وتحت وطأة الإحساس بانثني اتقاضي راتباً من الثورة، كنتُ حريصاً على «تحليل» [من الحلال - الأرباب] ما اتقاضاه شهرياً بعمل صحفيّ إسبوعيّ مجانيّ لمجلة فلسطين الثورة من تونس، وبعد إغلاقها، بكتابة مقالات سياسية في صحفٍ فلسطينية وعربية دفاعاً عن القضية الفلسطينية. لكنّ هذه المقالات، التي تريح ضميري وتُشعّرنِي بانثني فاعلٌ نسبياً في ساحة النضال دفاعاً عن وجود هذه الأمة المولّدة، تصلّي قصادني من الهاجس السياسي أو تجعله مرجعية للنس الشعريّ قد تزيده جالباً وتمنعه مغانثيّ تلقّي القارئ وتجذبه إليه.

إنّني بالتأكيد أعاني من نسوة الجوء إلى «الكثير» على هامش الكتابة الإبداعية، وهو هامش يتسع ليُجرّف معه لحظات البهجة الحقيقية. لحظات الكتابة الشعرية. ولكنّ ليس لمثلي غيرُ أن يُكاد، خصوصاً وأنّني لا أنتظر العثور على كنزٍ أو إرثٍ أو هيبةٍ عليا!

لُت في أحد الصورات إنك القيت في بيروت بمخدرات لينين وانجلز من النافذة في الطابق الرابع حتى شُطع عنه زَيّ السياسي للعود إلى الشعر شاعراً. هل تراه اليوم قد نجحت، أم أنّ لينين وانجلز ركباً المصعد الكهربائي في تلك الليلة ليهودا إلى أوراكك والاملاء؟

عندما شعرتُ أنّ محارلات مكلفة لجنبي إلى عمل حزبيّ في الجبهة الشعبية، أو في مجموعات ماركسية كانت تعجّ بها بيروت، صارت تَشَتِّلُ عليّ كثيراً، وفي الوقت نفسه فاض كِبَلُ الشاعر في داخلني الذي اختنق خارج مناخ التمركز والجموح والحرية. كان إعلانُ تحرّري أمام ذاتي أن أُلقي بمخدرات لينين ومخدرات ماركس وانجلز من الطابق الرابع. وقد شعرت حينها كأنّني تخفّط من حملي ثقيل كان يُؤيِّض بين كنفاني. لكنني بدون شك أقدتُ كثيراً من قرائني تلك الاختارات وغيرها من الكتب الماركسية لأنّها منحتني، وإلى الأبد، منهجاً ديالكتيكياً في التفكير والتفصيل يجعلني لا أمار في فكّ ما يبدو للبعض مُخلّلاً. والإفادة لا تقتصر على ما أكتبُه من تحليلات سياسية، بل تشملُ الكتابة الإبداعية أيضاً. إنّ الذي تخفّضت منه هو التعصّب للماركسية وكأنّها عقيدة، وغدت الماركسية عندي الآن مرجعاً فكرياً أساسياً إلى جانب مراجع رواد ثقافتني معارفي وتقدّي الروح والوجدان. كما أنّني اتحرّيت من محاولة دفعي إلى أيّ عملٍ حزبيّ، محتفظاً عندي بمكانة خاصة لاصطفاء أعزّاء يُدعُون إلى العمل الحزبيّ ويتعمسون لحظات فيه جماعسة ونشاط لكتّهم في الواقع أفراداً أحراراً يطلّعون بعيداً عن كل سرّوب إيديولوجيّ بأجنحة من الاستقلالية الفكرية. ومثل هؤلاء المُفكرين أو الناشطين السياسيين أحبّهم بمُثَقٍّ، وقد لا التقي بهم لعمود طويلة لكنّ ما إنّ اجتماع مُثَنِّد حتى نفاجاً سعادة بأنّ أفكارنا ومواقفنا إزاء قضايا لم يسبق أن تناقشنا حولها مطابقة تماماً، لأنّني



في الهدف وجدتُ حلاً للمعادلة الصعبة بين الصحافة والإبداع. تتمثلُ في تجربة غسان كنفاني الفريدة

وإياهم نَحْتَمِدُ المنهجَ الماديَ الدِيَالِكِيكي في التفكير، ولا ينضبط فكرُنَا لتوجيهٍ ما خارجنا، ونفكر بحرية. ولكن لدينا ثوابتنا الوطنية والقومية التي هي أيضاً ثوابتٌ إنسانيةٌ وكونيةٌ في جوهرها.

قُلْتُ يوماً في إحدى الصفح: «التجربة اقنعني بأن المبادئ والأفكار أوهاهم وسراهم، وإن الكتابة التي أردتها نوراً ضد الظلام كانت ثغرة لإحناق الأذى بي... لا أحد يقرنا إلا الرقيب». هل مازلت على رأيك؟ وهل كنت تتخاطر أن تُحَمِّلَ على الانكشاف لكونك كاتباً؟ تاريخ الكاتب والكتابة يقول إن مصيرَ مُرَتِّبِ الحرفِ الحق هو السجن أو المشقة أو المصقلة.

قُلْتُ ذلك الكلام في تونس التي قُبِثْتُ إليها سهوياً أمام جيش شارون الذي يُلْحَن الآن أرواكنا، ونحن نحاول التكيُّفَ والتعاقد بكياسةٍ وتسامحٍ - هما في حالتنا إنذارٌ وضربٌ من المازنوشية مع هذا العصر الصهيوني، تحت وطأة الشعور بالهزيمة الجمعية، ويأثني كُفْرُ خِلَاتٍ وخُرْبَتُ، خصوصاً حين يَخُونُ الفكرة / الزمُّمُ ذلك الذي أقنعني بها، يَصُدِّرُ عني رد فعل كالكلام الذي سَلَّطَهُ في سؤالي، لكن ما إن يُلَوِّحَ أمامي سرابٌ أملٍ حتى يلتهم جُثْمَ الأحلام التي في داخلي ويضيء المبادئ التي ارتفع رأيها ثانية بحماسة الفتوة. كم من مرّة جُوتُ أمّي ووصفتها بـ «الأمّة» [العبدية]، لكن ما إن تُدْخِلْني حتى اتلّوئى الماء، واضطرب غضباً، وأسألت قلبي من جرحي المفتوح، وأناثع عن حقها في الحياة والوجود.

لست نادياً، ولا أشكر أن أشير هنا - كما أشار شعري - إلى أنني بَعَثْتُ وأدعيتُ ثم كلَّ حرفٍ خطه، ولا انتظر أن أحمل على اكتافِ أَرْضَتِ أن تُحْمَلَ إلى أوطانها الغداة والمظنن. وبالتأكيد لا أكتب كي أصل إلى السجن أو المصقلة، بل كي أكون أكثر حريةً وبهجةً وأمتلاءً بالحياة. لكن أن أكتشف أننا لا نُقرأ إلا صُدْفَةً، وأننا نُقرأ كمواقف في لحظات تاريخية لا كمبدعين، أي يُقرأ سلوكنا ولا يُقرأ نصُّ الإبداع، فهذا بالتأكيد يؤلّمني...

أما الذي يقرأنا، أنا وصديقنا سليم دولة مثلاً، ويؤدِّدُ كلَّ حرفٍ خطه في لحظة الإبداع الحرة، فهو الرقيب الذي يسعى إلى الإطباق على رقابنا؛ غير أن ما نرنو إليه هو أن نُقرأ من عامّة الناس، وأن نلجّ في عيونهم ضوء حروفنا تُشْمِلُ القول والضمائر.

لماذا سَكَنَتِ الساحةُ الشعرية العربية ولم تحدّ بذلك التاجّ الذي كانت عليه في السبعينيات مثلاً؟ هل أفلست تلك المشاريع، أم نحن شعاني اليوم أزمة شعراء أصلاً؟

إن المجتمع الاستهلاكي المعمّم يُعمِّمُ قيمته وروايته الواحدة إلى الإبداع. وسائل الاتصال في طرفة غير مسبقة، وتُملأ مساحاتها بالرداءة الثقافية، بعيداً عن الكتاب والقصيدة. كما أخذت متطلبات العيش شعراء كثيرين، حتى استنفدوا رصيدهم وصاروا يكرّرون أنفسهم حتى الانقراض. وفي خضمّ هذا الارتباك تنمّل إلى «الكتابة»، التي تُزَعِّمُ أنها شعرٌ، صحفيون من الدرجة الثالثة، راحوا يفتخرون أنفسهم «شعراء جماهيريين». ولئن تبادَلْ الشعراء المُشرَّفون على المنابر الإعلامية الثقافية الخدمات في ما بينهم، فإنّ صحفيين استسهلوا الأمر وظنّوا وجوبهم على رأس هذا المنبر الثقافي أو ذاك لتصويق أنفسهم شعراء مزعومين أيضاً.

كلُّ مظاهر الانحطاط هذه تجعل الشعر الحقيقي يتراجع إلى عزلة وترفع عن الرّجّ بنفسه في هذا الزّحام المنطلق على الإبداع عموماً وعلى الشعر خصوصاً. غير أنني أعتقد أن المواهب الشعرية كامنةٌ وتنتظر أن يبلّغ مدّ الرّكاة أوجه كي ترتفع هذه القفاعات جملةً وتُفصِّلُ، بالخطوط الشعرية المهمة تحتظ بها الأبراج ويبدأ الوجدان، وقد تُشعل شرارات الشعر وجماره الهرائق في هذا الخراب لُثْمي الطريق الصحيح نحو المستقبل.

تونس

يؤلّمني أن أكتشف
أننا لا نُقرأ
إلا صُدْفَةً،
وكمواقف في
لحظات تاريخية
لا كمبدعين!

في العدد القادم:

■ آخر حوار مع المفكر الباكستاني التقديمي طارق علي (أجراه: دايفيد برُسميان، ترجمة: سماح إدريس).

ملف من إعداد: أحمد الخميسي
(مراسل الأرباب في القاهرة)

المشاركون (الفبائيًا)

أحمد بهاء الدين شعبان

أحمد الخميسي

أحمد عبد الرحمن

أصبح مطلبُ التغيير مطلبًا ملحاً في العالم العربي وتقوم الأنظمة العربية الحاكمة، في الكويت والسعودية والأردن وغيرها، بإجراء تغييرات على شكل الحكم السياسي تحت شعار «الديموقراطية والإصلاح السياسي». وقد شهدت مصر مؤخرًا حركة واسعة في هذا الاتجاه، بدأت حين ألحقت قوى المعارضة على تعديل المادة ٧٦ من الدستور المصري بحيث يُمكن انتخاب رئيس الجمهورية من بين أكثر من مرشح. ثم تم الإعلان عن استفتاء لتعديل تلك المادة بشكلٍ أثار غضبَ القوى المعارضة التي أخذت تعلن من وجودها بقوة في الشارع المصري. فما هي حقيقة تلك القوى، وفي مقدمتها حركة «كفاية»؟ ثم ما هو مفهوم التغيير لدى قوى المعارضة؟ وأخيرًا، أية ملاحظات على طبيعة البرنامج الموجه لتلك القوى؟ وما مدى ارتباط حركة التغيير بالضغط الخارجي؟ هذه الأسئلة، وأسئلة أخرى، يطرحها هذا الملف ويحاول الإجابة عنها واستكشاف أفق حركة التغيير، التي قد تصبح نموذجًا لتغييرات مماثلة في بلدان عربية أخرى.

الأرباب

المعارضة المصرية ومفهوم التغيير

□ أحمد الخميسي

التغيير في مصر ضرورة

الحديث عن «التغيير» يشغل مصر كلها؛ احزاباً معارضة، وحركات سياسية، ونخباً مثقفة، وقضاة، ومهندسين، وشرائح عمالية، وأطباء، وكثاباً. وإلى جانب ذلك، وقبلة، فإن الواقع ذاته يُطَلِّق بآن استمرار الأوضاع الراهنة أمرٌ صعب؛ فقد بلغ عدد الفقراء في مصر ٢٤ مليون نسمة (تقرير التنمية البشرية للعام الماضي)، وبلغ عدد العاطلين عن العمل ٦ ملايين، ويعيش ١٢ مليون مواطن في أكواخ ودخل القبار، ويتوسع نطاق الأمية ليشمل ٢٢ مليوناً، ويتضاعف التفاوت الطبقي فيحصل أغنى ٢٠٪ من السكان على ٤٢.٦٪ من الدخل القومي، مع ارتفاع حاد مستمر لأسعار المواد الغذائية الأساسية بعد أن حكَّت الدولة يدها عن بعضها بدعم الفعاسات العامة في التعليم والصحة والثقافة وغير ذلك... هذا ناهيك عن حرمان كتلة بشرية ضخمة من التعليم وأمام النظيف والصرف الصحي. وفي ظل هذا الانهيار العام قامت الدولة بإنشاء واحد وعشرين سجناً جديداً خلال العقد الأخير، كُلف بناؤها ملياري جنيه مصري؛ أضف إلى ذلك الشعور الرزين بالمهانة السياسية التي يعيشها الشعب المصري في مواجهة العرينة الأميركية في المنطقة، وفي مواجهة إسرائيل التي تهتد مصر وقمنا تقواء، دون أن يحرِّك النظام ساكناً، ودون أن يجرِّق مسؤول على أن يُثبِّس بحرف واحد.

ويشغل هذه اللوحة فشل النظام المصري الذريع في التقدم بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية خطوة إلى الأمام؛ ويكفي أن نكلم أن للدين الضاربي والدائلي على مصر وصل إلى ثمانمائة مليار جنيه، وأصبح صعباً على النظام الاستمرار في استخدام الأثر المعنوي لإجبارين مضى عليهما ربح قرن هما: حرب أكتوبر، وما سمي بـ «الديموقراطية».

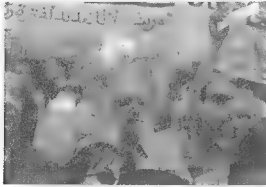
وخلاصة الأمر أن تَصَمَّم الفقراء وعمقُ الشعور بالمرارة الوطنية، والإحسان بالتقدم العام والهوران، وصكَّت بصوتها إلى سمع المؤسسات السياسية الحاكمة والنخب المعارضة، وتعالَت الدعوات إلى التغيير. لكن أي تغيير؟

يصعب التحدث عن تصور واضح ومتبلور للتغيير في الوعي الجماهيري العام. ولكن من المؤكد أن مشروع التغيير لدى الغالبية العظمى مرتبط باستيلاء بهم جزء الوضع الاقتصادي والقومي، ومصنوب بتصورات دينية عن العدل والأخلاق والتحرر. فذلك التغيير يعني تحسين مستوى المعيشة، وتوَلُّر السكن والتعليم وغير ذلك، ويرتبط بالقدرة على مواجهة أميركا وإسرائيل. إلا أن تلك الحالة لا ترتقي إلى مشروع سياسي بكل معنى الكلمة بل هي مادة لمشروع ما، قلق وغير محدد، وقابل للتطوير حسب الظروف في اتجاهات عدة.

لكن ما هو مفهوم ذلك «التغيير» لدى الأحزاب والنخب المعارضة التي يُفترض بها أن تصوِّر مشروعاً سياسياً كفتاً للتعامل مع واقع محدّد؛ مشروعاً قادراً على حشد الجماهير خلفه وتطوير نضالها بشعاراتٍ معينة، وتحديد أهدافها القريبة والبعيدة؟

أحزاب مصر الرئيسية والتغيير

بدايةً علينا أن نقول إن عدد الأحزاب غير الحكومية المرخّص لها في مصر وصل إلى ١٩ حزباً سياسياً - بعد الموافقة الأخيرة على تأسيس حزب الغد - من بينها عشرة أحزاب تعيش حالة موازاة كامل. وأما عدد الأحزاب التي رُخِّصَتْ لجنتها الأحزاب طلبات تأسيسها فقد بلغ ما يُقَرَّب من سبعين حزباً؛ وجدير بالذكر هنا أن تلك الأحزاب ظهرت بعد فترة طويلة من قرار حل الأحزاب في ١٦ يناير ١٩٥٣، وتحديدًا حين أراد أنور السادات في أغسطس ١٩٧٤ تجميع وجه النظام بانفتاح سياسي، فأصدر ورقة تطوير الاتحاد الاشتراكي التي رُخِّص فيها التعددية الحزبية لكنه أقر بمبدأ تعدد الاتجاهات تحت اسم «النايبر». وفي مارس ١٩٧٦ تمَّت الموافقة على تأسيس ثلاثة منابر، تموَّكَّت في نوفمبر ١٩٧٦ بقرار من السلطة إلى أحزاب سياسية. ونتيجة لتلك النشأة، والقيود التي أحاطت بها السلطة حركة الأحزاب، وضعف إرادة تلك الأحزاب، فقد تمَّ تفرُّقها من مضمونها حتى تحولَّ معظمها إلى مجرد صحف، وانتشرت نكتة بأن هناك في مصر صحفًا أكثر أحزاباً؛ وظلت حركة تلك



صنع الله إبراهيم يحمل شعار «كفاية» في إحدى المظاهرات مؤخرًا

في إطار الإصلاح السياسي المحدود للنظام، وهو إصلاح قائم في إطار التوجه الليبرالي الذي يقوم على خمسة مؤشرات هي: الفردية، والحرية، والتعددية، والعدالة، والراسمالية. لكن هذه الأحزاب حُجبت في صراعها مع النظام الاقتصادي الاستغلالي. وسرى لاحقًا والتبعية، وجرى النظام الاقتصادي الاستغلالي. وسرى لاحقًا أن هذه الرؤية هي التي تحكم حركة وتوجه باقي الأحزاب والحركات، بما فيها حركة «كفاية».

ولما كانت برامج الأحزاب الأساسية والإخوان معروفة تقريبًا، فإننا سنركز على مواقف الحركات الجديدة من التغيير، وهي مقدمة تلك الأحزاب: «حزب الكرامة» و«حزب الوسط» و«حزب الغد».

الحركات الجديدة والتغيير

إذا نظرنا إلى وثائق «حزب الكرامة»^(١) الذي يمثل تيارًا نصرانيًا وطنيًا، فسنجد أنه يدعو إلى أهداف وطنية عامة كالاستقلال الشامل، ونبذ معاهدة السلام، واستعادة السيطرة المصرية على سيناء بالكامل، والوحدة العربية، والكفاية والعدل في المجال الاقتصادي، والاستعانة بالتكنولوجيا والعلوم، وتدمير الذات الحضارية، وسياسة بولوية متوازنة، والديمقراطية. لكن تلك الأهداف لا تكتسب سمات محددة وتظل أقرب إلى الأمنيات للنخبة. ويظهر البرنامج صورة مجتمع قائم، لكنه لا يُلحَظ البتة للصراع مع المجتمع القائم، إلا عندما يدور الحديث عن تعديل الدستور وإلغاء حالة الطوارئ ونشر الحريات العامة. فالتطالب الأخيرة هي للتطلب التي يمكن الاشتباك اليوم بشأنها مع النظام. لكن كيف؟

أما «حزب الوسط الجديد» فيعبر نفسه في مقدمة وثائقه التي كتبها د. صلاح عبد الكريم^(٢) بأنه «حركة سياسية تمثل فكرًا

الأحزاب وما زالت - باستثناء لحظات نادرة - بعيدة عن حركة الشارع المصري تمامًا، وأبعد ما تكون بنظائرها وممارساتها الداخلية عن الديمقراطية والإصلاح اللذين تطالب بهما. كما أن حركتها الفعلية وممارستها للنظام وصفقاتها البرلمانية معه ظلت منقطعة الصلة ببرامجها الملته. وقد اختزلت الكثير من هذه الأحزاب وجودها في شخص قادتها، الذين قضى بعضهم ربع قرن في القيادة دون تغيير

جرى العادة في مصر على الحديث عن ثلاثة أحزاب رئيسية هي «الوفد» و«التجمع» و«الناصرى»، إلى جانب قوة أساسية لم تُتَنَزَّحَ عنها بعد في تأسيس حزب هي «الإخوان المسلمون». ويبدو مفهوم التغيير واضحًا عند حزب التجمع في «مبادرة الإصلاح السياسي»، التي طرحتها في ١٧ مايو ٢٠٠٤. فقد جاء فيها «أنّ الدخول الصحيح والوحيد للتغيير الشامل هو تحقيق الديمقراطية وتوفير الحريات العامة وضمان حقوق الإنسان». أما حزب الوفد فقد طالب هو الآخر في برنامجه للإصلاح الملحق في ٢٦ أغسطس ٢٠٠٤ بالإجراءات الديمقراطية باعتبارها الحلقة الأساس في تطوير المجتمع المصري. بينما دعا «حزب الناصرى» إلى تحويل مصر إلى جمهورية برلمانية. ثم ظهرت الأحزاب الثلاثة رؤيتها المشتركة في ٢١ سبتمبر ٢٠٠٤ في وثيقة بعنوان «التوافق الوطني للإصلاح السياسي»، جاء فيها أن الإصلاح السياسي هو الطريق الوحيد لإنقاذ البلاد، وطالب بأن يكون انتخاب الرئيس المصري من بين أكثر من مرشح، وإقامة نظام جمهوري برلماني يُكْمَلُ إعادة تقسيم الاختصاص داخل السلطة التنفيذية. كما طالب هذه الأحزاب بإلغاء المادة ٧٤ من الدستور التي «تعطي لرئيس الجمهورية سلطات استثنائية»، وإنهاء حالة الطوارئ، وإطلاق حرية تشكيل الأحزاب السياسية. وباختصار، وضعت الأحزاب الثلاثة الكبرى - مع عدد من أحزاب صغيرة - رؤيتها للتغيير

١ - حزب الكرامة العربية، البرنامج السياسي، ٢٠٠٤.

٢ - أوراق حزب الوسط المصري، تقديم د. صلاح عبد الكريم، ١٩٩٨.

المعارضة المصرية ومفهوم التغيير

اعتقلت السلطات رئيس الحزب ايمى نور في يناير هذا العام بدعى التزوير في أوراق التأسيس، ونزعت عنه حصانته البرلمانية، فانتار ذلك ضجةً إلى حد أن وزيرة الخارجية الأميركية كوندوليسا رايس أعربت في منتصف فبراير عن «القلق البالغ» للولايات المتحدة من ذلك الاعتقال، وعلى حد تصريحات نور فإن حزبه ليس اشتراكياً ولا إسلامياً ولا ماركسياً، لكنه الوريث الشرعي للحركة الليبرالية في مصر، ويأتي في مقدمة برنامج الحزب أنه «حركة ديموقراطية ليبرالية اجتماعية تجمع طليعة من جيل الشباب المصري الساعي لمشاركة جادة للإصلاح السياسي والاجتماعي». وإذا نحننا جانباً ما تحفل به برامج معظم الأحزاب من الدعوة إلى محاربة الفساد وحل مشكلة البطالة وما شابهة، فإن برنامج الحزب يرى التغيير في إصلاح سياسي يقوم على «إنهاء حكم الطوارئ المفروض منذ عام ١٩٨١، وتقييم صلاحيات الرئيس المصري الواسعة، وانتخاب الرئيس من بين أكثر من مرشح، وانتزاع الحريات المختلفة». وباختصار، فإن الحزب يضع نصب عينيه إقامة «نظام الجمهورية البرلمانية الدستورية الديمقراطية». وعلاقة على برنامج الإصلاح السياسي، يحدد الحزب أهدافه الأخرى كالتالي: اكتشاف المهووبين، ومواجهة أزمة المياه، ومواجهة العنف بالثقافة، ومكافحة الإدمان، ومساعدة المعوقين. إلا أن التمايز الذي لفت الأنظار إليه هو أن ثلاثين بالمئة من قوائم عضويته كانت للأقباط المصريين، الأمر الذي مَحَّض ثقلاً خاصاً على أساس أنه قد يمثل للمرة الأولى الوزن القبطي. وبطبيعة الحال فإن برنامج الحزب لا يشير إلى تقدير الإدارة الأميركية الخاص لامين نور، ولا إلى تمثيل حزب الغد النسيب للأقباط، ولا إلى علاقته بالجهات الأخرى. وهي الشروط التي أكسبته وزنه الحقيقي. ويقودنا ذلك إلى ملاحظة عامة هي أن برامج الأحزاب الملغنة ليست في أغلب الأحيان سوى إنشاء وكلمات مرصومة لا علاقة لها بواقع تلك الأحزاب ولا بحركتها الفعلية ولا أهدافها الحقيقية... ولا بسرّ وجوبها.

إسلامياً حضارياً معاصراً» يتكلم أصحابها «إيماناً راسخاً بتميز الحضارة الإسلامية». ومع اعتراف الحزب بالتعددية الدينية في مصر فإنه يرى أن المرجعية الإسلامية العامة في مصر محل اتفاق المصريين جميعاً. أما التغيير عند الحزب فيبدأ بتنشيط وضع نص المادة الثانية من الدستور موضع التطبيق، وهي المادة التي تنص على أن دين الدولة هو الإسلام وعلى أن مبادئ الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع. ويدعو الحزب في مجال الأمن القومي إلى نزع أسلحة الدمار الشامل في المنطقة دون تمييز لإسرائيل، وإلى رفض مشروع السلام الإسرائيلي الذي يرمي إلى تقطيع أوصال الأمة، وإلى إقامة اتحاد اقتصادي عربي إسلامي، وإلى عدم التفرط في مبدأ تحرير فلسطين والانتماء العربي للقدس، لكنه لا يصل إلى حد رفض اتفاقيات السلام. ويختبر الحزب أن التغيير الممكن في المجال الاقتصادي الداخلي يقوم على «الأ يكون المال دولة بين الأغنياء فقط، وهذا يستدعي تشجيع دخول الأفراد إلى العمليات الإنتاجية وتملك أصولها». ثم يقيم الأمة، الفراداً وجماعاتاً ومؤسساتاً، بواجبها في تحقيق العدالة الاجتماعية». ويؤكد أيضاً «الدور التوزيعي للدولة... لضمان حسن توزيع عوائد العملية الإنتاجية على الأسر المصرية» ولا تختلف هذه الوثيقة كثيراً عن وثيقته الملغنة بعنوان «حزب الوسط الجديد». وينقسم هذا البرنامج للخصائص – كمادة التيارات الإسلامية – بالموح. كما أنه لا يقوم بتعليم المواطن أية أسلحة للصراع مع الوضع القائم، ما عدا التأكيد على الفكرة الجذرية لدى التيارات الإسلامية المختلفة، وهي أن التغيير يبدأ بتغيير «اخلاق المجتمع» لا الأوضاع التي تؤسس لتلك الاخلاق. وأخيراً فإن «التغيير» في ذلك البرنامج لا يبنين على أي اشتباك محذور مع الواقع في أي مجال، أي أنه لا يقدم إجابة على السؤال العويص: «ما العمل»

أما حزب الغد فحصل على ترخيص بمزاولة نشاطه من لجنة الأحزاب في ٢٧ أكتوبر ٢٠٠٤، لكنه خلال أقل من سنة أثار قدراً من الضوضاء لا يتناسب مع حجمه أو برنامجه. فقد



من شعارات التظاهرات الأخيرة في مصر لا للتجديد، لا للتوريث

للنهضة الذي كانت للتحجيرة الناصرية أسلحاً نماذج، بينما تبذل قوى الاستعمار العالمي كل جهدها لمحاصرتها وإطفاء جذوته، في الوقت الذي أغلقت فيه الطرق على المشروع الاشتراكي بعد زوال الاتحاد السوفيتي، وبهتفت الأحزاب الشيوعية دورها مكتفية بالدعوة إلى الإصلاح السياسي. ومن ثم لم يعد مرثياً للحركة في الواقع الفعلي سوى أفق واحد، هو تعديل شكل الحكم السياسي وتطويره في إطار النظام ذاته، وذلك بطرح انتخاب الرئيس من بين أكثر من مرشح، وإلغاء حالة الطوارئ، وتوسيع دائرة الحريات العامة، وغير ذلك. ويبدو أن تلك هي المهمة الوحيدة الممكنة الآن، التي يساعد تحقيقها على خلق ظروف أكثر ملاءمة لنضال شعبي واسع من أجل الأهداف الوطنية والتحرر الاقتصادي والاجتماعي.

لكن إذا كانت الحركات الجديدة تصطبغ بالنظام فقط من زاوية شكل الحكم السياسي، فإن ذلك ليس مبرراً للتهوين من شأن هذا الصدام؛ ذلك لأن معظم العواصف الجماهيرية كانت تنشأ من مجرد عمليات احتجاج ضعيف، ثم تتجاوز ذلك إلى أفق رحب: فقد بدأت الثورة العربية باستياء الضباط من تفصيل الأتراك عليهم، ثم غضبهم لعدم حصولهم على رواتبهم؛ كما أن ثورات عميدة بدأت بمجرّد مسيرات سلمية تنفض عن فيها الجماهير إلى القياصرة والملوك لرفع الظلم، ولكنها سرعان ما انقلبَت إلى ثورات شاملة نتيجة للفتح الوحشي.

الإخوان والشيوعيون

إن أحزاب وحركات المعارضة التي تعتنق كلها الليبرالية تقع بين طرفي تقسيم: الأول هو قوى الإخوان المسلمين الذين يمثلون الثقل الأكبر في الشارع المصري (يفوق عدد الإخوان من أعضاء مجلس الشعب عدد الأعضاء من جميع أحزاب المعارضة مجتمعين)، وشعارهم: «الإسلام هو الحل». والطرف الثاني هو الشيوعيون المزدانون تقريباً: «الحزب الشيوعي المصري»، وحزب الشعب، ومجموعة «الاشتراكيين الثوريين» - والأخيرة لغت الانظار إلى نشاطها برفعها شعار إسقاط

إذا نظرنا في برامج تلك الأحزاب الثلاثة الجديدة («الكرامة» و«الوسط» و«الغد») فسنجد أن عملية التغيير الفعلية تنحصر لديها في «تعديل الدستور وإلغاء حالة الطوارئ ونشر الحريات العامة» عند حزب الكرامة، وفي «تعديل الدستور وتنشيط للثورة الثانية منه» عند حزب الوسط، وفي «نظام الجمهورية البرلمانية الدستورية الديمقراطية» عند حزب الغد. وباعدا ذلك فإنه من الناحية الفعلية يتدرج ضمن الشعارات والأهداف العامة، الوطنية عند «الكرامة»، والإسلامية عند «الوسط»، والليبرالية عند «الغد». الأكثر من ذلك أن الحركات الجماهيرية التي وكّدت على خلفية التضامن مع الانتفاضة الفلسطينية، وشجب الحرب على العراق - مثل لجان دعم الانتفاضة، والعملة الشعبية للتغيير، ثم «مؤتمر القاهرة» وحركة «أجيح» المناهضة للعملة، وحركة عشرين مارس، وانتهاء بحركة «كفاية» ثم «صنفين من أجل التغيير»، وكثاب من أجل التغيير - كانت كلها تضع نصب عينها التغيير بلعنى الليبرالي الديمقراطي، أي تغيير شكل النظام السياسي، وكسر الطابع الاستبدادي للحكم، دون مساس بمضمون النظام الطبقي، أو جوهره كنظام اقتصادي استغلالي، ودون مساس - ماعدا التيارات الناصرية أساساً - برفض التقييد السياسية والاقتصادية لأميركا، ومقاومة مشروع الشرق الأوسط الكبير، واستكمال استقلال مصر السياسي بتحرير سيناء من القويود لذلك لاتفاقية كامب ديفيد. ولعل أدق تعبير عن هذه الحالة هو أن حركة «كفاية» كانت شعاراتها الرئيسية شعارات الليبرالية والديمقراطية فحسب، دون خوض في الموضوعين الوطني والاقتصادي، وكان الديمقراطية بحدّ ذاتها تعمل حلاً سحرياً لمشكلات المجتمع المصري العويصة.

المهمة الوحيدة الممكنة الآن

لا شك أن المعارضة - بإحزابها الجديدة والقديمة وحركاتها الشعبية - قد صيبت كل نيرانها على الشكل السياسي للحكم، معتبرة أن تلك هي «الحلقة الأساسية للتغيير». ولا شك أيضاً أن تلك التركيز لم يأت من فراغ: فقد تعثر المشروع القومي

المعارضة المصرية ومفهوم التغيير

وتُعتبر مجموعة «الاشتراكيين الثوريين» أن النضال الديمقراطي الذي تدور في إطاره كل حركة المعارضة من أجل التغيير أمر ضروري لكنه غير كافٍ، وتطرح الاعتماد على الجماهير، والاشتراكية في إطار الثورة الدائمة.

ما هو مستقبل هذه المعارضة؟

سؤال تصعب الإجابة عنه، ولكن من المؤكد أن حركة المعارضة مازالت بعيدة عن الشارع، وأن القاسم المشترك بين تلك الحركات - وهو الجانب الليبرالي - قد يفجر حركة شعبية في ظروف ممتدة، وقد ينحسر موج تلك المعارضة تصديداً لأن المسافة بينها وبين الشارع مازالت واسعة. ولا شك أن الانحسار أو التطور رهْنُ ظروف أخرى أو ضغوط جديدة، ورهْنُ أيضاً بتعميق المعارضة لمفهوم التغيير بحيث يتقاطع مع آماني الشعب المصري في حياة أفضل ووطن حرّ.

القاهرة

الرئيس المصري صراحةً، ثم بمحاكمة بعض أعضائها في قضية نظرتُها محكمة أمن الدولة العليا في مطلع ديسمبر ٢٠٠٢، وكانت أول قضية شيوعية تُنظر أمام المحاكم منذ ربع قرن ولوَّجه فيها التهمة بتأسيس تنظيم يدعو إلى إسقاط نظام الحكم.

أما عن مفهوم «الإخوان» للتغيير فإنه لم يتجلى كثيراً منذ تأسيس الجماعة عام ١٩٢٨، كما لم يختلف سلوكهم السياسي الماور والمراوغ. فقد صرَّح المرشد العام لهم محمد مهدي عاكف بشأن تصريحات الرئيس الأميركي بوش التي أشار فيها إلى ضرورة وجود رقابة دولية للانتخابات في مصر، فردّ بإفازل الإدارة الأميركية بقوله «إن من حق المنظمات الدولية والحقوقية أن تراقب الانتخابات». ولقد أن «الإخوان» لا يسمحون إلى الصدام مع الدولة، وأنهم ليسوا أهل ثورة. واستنكر تصريحات حركة «كفاية» ضد الرئيس المصري، موضحاً أن «الرئيس رمز الدولة وأنفض سببه مهما اختلفنا معه». وصنّف الحركة المذكورة بأنها «فئة ضالة ضلّية»، وأن لسانها حلويل. واهتدى بأن من حق جمال مبارك أن يرشّح نفسه. ورأى بعض المراقبين أن الإخوان تشبّعوا بحديث أميركا عن الإصلاح حتى لو أسفر ذلك عن وصول إسلاميين إلى الحكم، خاصة بعد تسمية حزب العدالة والتنمية في تركيا، وإمكانية التعامل مع الإخوان في مصر. وحين أعلن الإخوان مطالبهم الوطنية للإصلاح في مؤتمر صحفي في ٢٣ مارس هذا العام، جاء في مقدمة هذه المطالب، أولاً تعديل حقيقي للمادة ٧٦ من الدستور بما يتخلل تكافؤ الفرص بين المواطنين للترشح لموقع الرئاسة؛ وثانياً: إطلاق الحريات العامة بإلغاء حالة الطوارئ ورفع القيود عن تشكيل الأحزاب والحريات الأخرى.

وإذا كانت الطلقة الأساسية للتغيير عند الإخوان هي «الليبرالية»، فإن الحزب الشيوعي المصري في بيان له في ١٤ مايو هذا العام يعتبر أنه قد أن الأوان لكل القوى الديمقراطية والوطنية التقدمية أن تتضافر جهودها على طريق التغيير السياسي والدستوري الذي يقف الطريق أمام التغيير الشامل.

أحمد الخميسي

دكتور في الأدب. صحفي في أخبار الأدب. مراسل الأرباب في القاهرة.

«كفاية»: الميلاد والمسار... الوعود والمخاطر

□ أحمد بهاء الدين شعبان

وهما حزبان تحت التأسيس - وكذلك عناصرٌ ليبراليةٌ ومستقلةٌ أخرى أغلبها من جيل السبعينيات. ودار الحديث بعد الإنططار حول الأزمة الحادة التي تُشكل بضائق مجتمعنا، وكيفية الخروج منها، بعد أن استباححت الفئصرية الصهيونية أرض فلسطين وشعبها، وأحطت الإمبريالية الأميركية العراق وتكثرت بشعبه، وباتت التهديدات العدوانية تحيط بسوريا والسودان ومصر والسعودية وغيرها من البلاد العربية... فيما استبدت نخبٌ سياسيةٌ بالبطش بثروات البلاد ومصادرها، وأحالت الأمة العربية إلى سجون كبير أمدرت فيه كرامة المواطن، فأخرجت الجماهير العربية من سياق معادلات القوة في المنطقة، وركعت تحت أقدام الولايات المتحدة والصهيونية.

وقد ارتأى الحاضرون اختيار بعض الأفراد من بينهم، من اتجاهات إيديولوجية وسياسية متباينة، لمضيافة بيان سياسي مقتضب ينعكس المخاوف المشروعة للمتحمسين من استمرار الأوضاع العربية والمصرية على ما هي عليه من تدهور، وينادي للهتف بالشأن العام من أجل التوجه لمواجهة ما تجاوبه البلاد من تهديدات ومخاطر، في إطار العرض على تضمينه القواسم المشتركة التي تتفق عليها كل هذه التيارات الوطنية.

ولما كانت القضية الهميمة التي تُعثل بال الرأي العام في مصر وقتذاك هي قضية التمهيد لترشيح الرئيس حسني مبارك لفترة رئاسية خامسة (تُجمل بها حكم مصر لمدة ثلاثين عاماً متصلة)، وكذلك مسألة الاتجاه إلى توريث السلطة لنجله السيد جمال مبارك - وهما مسألتان استفزتا الرأي العام وقوى سياسية متعددة لما فُتِرت من انكسارهما السلبي على الواقع المصري والعربي - فقد كان من الطبيعي أن يكون المدخل الديموقراطي هو المدخل المناسب لطرح كافة القضايا الوطنية والقومية، والسياسية والاجتماعية، التي هي بطبيعتها مرتبطة ولا يُمكن الفصل بين مكوناتها.

وهكذا استقر المكثفون بهذا البيان على صيغته العلوية بـ: «بيان إلى الأمة: مواجهة الغزو الأميركي الصهيوني والتدخل الأجنبي

منذ أقل من عشرة أشهر، وكُتبت في مصر «الحركة المصرية من أجل التغيير»، التي صار اسمها المتداول ورمزها وشعارها صرختها البارزة: «كفاية». بما تحمله من دلالات ومعان، وبما تضمه من اشتراك وأمال، ومن ذلك الحين، ترك ميلاد «كفاية» تأثيراته الملحوظة في الأوضاع المصرية جميعاً - في الحكم والمعارضة والشوارع - بل وامتدت هذه التأثيرات لكي تصل إلى المحيط الخارجي أيضاً: إلى الوطن العربي الذي تعيش بلدانه ظروفاً شديدة التشب بالظروف في مصر، وإلى العالم الذي تحتل مصر مكانة لا يُمكن تجاهلها في صدارة مصالحه ومخططاته وأطماعه.

ويقتر ما أثارت حركة «كفاية» من توقعات، وأكثفت من أحلام، فأثارت تساؤلات تتعلق بالنشأة والافتكار والبرامج - وكلها أسئلة مشروعة حتى ولو انطلقت من جهات مشككة ومن مواقع خصمها. ذلك أنه لا يُمكن حركة «عصر سياسي اجتماعي» ضخمة، مثل حركة «كفاية»، بكل توابيحها الحاصلة والمتوقعة، ألا تثير الرغبة العميقة في المعرفة أو تستفز حاجة القديم المستقر إلى مقابقتها. فالحال أن هذه الحركة أصبحت في هذه المدة الزمنية القصيرة، رقماً لا يُمكن تجاهله في معادلة الواقع والمستقبل في مصر، جنباً إلى جنب مع جماعة الإخوان المسلمين التقليدية، التي تُدبرها عدداً وبعداً وعمقاً تاريخياً وإمكاناتاً، وإلى جانب الأحزاب السياسية الرسمية (المعارضة) كذلك، وعلى رأسها أحزاب «التجمع» و«الوفد» و«الناصري» التي يزيد عمر أقدمها عن ربع قرن.

النشأة والانطلاقة

تعود نشأة حركة «كفاية» إلى شهر رمضان قبل الفائتة حين جُمعت مائدة إفطار عدداً من رموز الحركة السياسية المصرية البسيطة بتلاويها المختلفة: من أقصى اليسار حيث الماركسية، إلى أقصى اليمين حيث المنتحسون إلى جماعة «الإخوان المسلمين». وبين هذين التويتين عناصرٌ من التيارات الناصرية الشابة (حزب الكرامة) والإسلامية الجديدة (حزب الوسط) -

على قضية احتكار الحكم، وعلى التمديد لفترة رئاسية جديدة للرئيس مبارك وإشمارع نقل السلطة إلى نجله، على أساس أن تلك هي قضية الساعة في مصر، وستؤثر - نظراً إلى الطبيعة الرئاسية الفريدة التسلطية للحكم عندما - في مسارات البلاد وخياراتها الاستراتيجية لعقد طويلة قادمة. كما تبنت اللجنة شعارها الذي انتشر انتشاراً واسعاً فور إعلانه، شعار «كفاية»، لاستخدام شُكَّلت المفاهيم الضخمة المعبرة عن طاقة الاحتجاج والرغبة الهائلة في التغيير.

اجتياز الأسقف وعبور الخطوط الحمراء

بدأت حركة «كفاية» وجوباً في الشارع المصري عبر تنظيم سلسلة من التظاهرات السلمية المتعاقبة، في منطقة وسط البلد أمام «دار القضاء العالي»، يوم ١٢ ديسمبر ٢٠٠٤ (يوم حقوق الإنسان العالمي)، وفي شارع القصر العيني يوم ١٣ يناير ٢٠٠٥، وفي مداخل جامعة القاهرة (يوم عيد الطلاب العالمي، ٢١ فبراير ٢٠٠٥)، وفي خمس عشرة محافظة (في توقيت متزامن) يوم ٣٠ إبريل، وغيرها. وكان لهذه التظاهرات دوي هائل يُرجع إلى توفر عدة عناصر متداخلة:

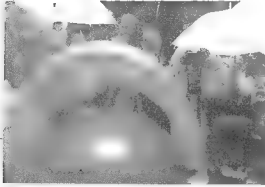
أولاً، تجاوزت الحركة لكافة الأسقف والخطوط الحمراء المتعارف عليها في العلاقة بين السلطة والقوى السياسية التقليدية في المجتمع، وذلك عبر طرح موقفها الرافض لاستمرار حكم الرئيس مبارك أو لتوريث السلطة لنجله جمال - وهو أمر جلت بالمقاييس المصرية والعربية، إذ لأول مرة تتجرأ حركة سياسية (ووليدة أيضاً) على التصدي لـ «قدس الأقداس» باعتباره رأس الأزمة، بوضوح وقطع وبدون مداراة أو وجل.

ثانياً، النزول إلى الشارع مباشرة، دون استئذان السلطة (التي كانت سترفض حتماً الترخيص للتحرك)، أو دون أخذ حالة الطوارئ وقوانين مصادرة العمل السياسي في الاعتبار، وذلك انطلاقاً من أن حق التظاهر حق دستوري مشروع يؤذي التنازل عنه إلى القبول بـ «الأسقف المنخفضة» التي خُصِّصَت لها

سبيل الإصلاح الشامل وتداول السلطة، وكانت الفكرة الأساسية خلف هذا البيان هي أن الأمة العربية تواجه تحديات خطيرة جُمعها الاحتلال الصهيوني، فلسطين والاحتلال الأميركي للعراق، وأن السلاح الناتج لمواجهة المشروع الإمبريالي الصهيوني للهيمنة على بلادنا لا بد وأن يتأسس اعتماداً على إطلاق قوى الشعب المصادرة تحت وطأة الاستبداد، وعلى إعادة الاعتبار إلى الأمة المكبلة التي تئن تحت وطأة الفقر والفساد والظلم الاجتماعي والبطالة، عن طريق بناء مجتمع القانون والمواطنة، وإنهاء حالة الطوارئ الممتدة لعقود في مصر، وإطلاق حق التعبير عن الرأي بمختلف السبل، وحق تكوين الأحزاب والهيئات الشعبية، وتحديد مدد وصلاحيات رئيس الجمهورية... إلخ.

وقد بادرت الجماعة التي صاغت البيان إلى حملة توقيعات عليه، جُمعت نحو ثلاثمائة اسم لكبار الوطنيين من المثقفين ورجال السياسة والفكر في مصر، أعلنت فيها الدعوة إلى عقد مؤتمر لبحث الخطوة التالية يوم ٢٢ سبتمبر ٢٠٠٤، واختيرت توقيته مراكباً لمؤتمر الحزب الوطني (الحاكم). وقد كان الهدف من المؤتمر طرح وجهة نظر كتلة شعبية في مواجهة وجهة نظر السلطة وحزبها. واحتشد في هذا المؤتمر أكثر من خمسمائة شخصية، انتهت مداوالتهم إلى إعلان تكوين «الحركة المصرية من أجل التغيير»، كتلة حركي مرن يجمع طيفاً واسعاً من الوطنيين المصريين للفضال المشترك من أجل تحقيق الأهداف التي عجزوا عنها في بيان إلى الأمة. كما كُلف المؤتمر للجمعية التي صاغت البيان بإدارة العمل اليومي للحركة، وانتخب خمسة وثلاثين عضواً لتشكيل سكرتارية الحركة، أضيف إليها فيما بعد نحو ٢٥ عضواً هم منسقو لجان الحركة المنتخبين في مختلف محافظات مصر.

واختارت لجنة إدارة العمل اليومي، في أول اجتماعاتها، أن تتصدّر بياناتها عبارة: «لا للترويض.. لا للتعذيب، لا بامتيازها نهاية المطاف في أطروحتها، وإنما لتجسيد اعتراضها المبني



«كفاية» - مراد: هي الساعة - من استندال - لسلطة ولا حماية «الطوري» في الاعتذار

لا بالاستفتاء وكأته استجابة مباشرة لضغوط حركة «كفاية»، وصدها في الدائل (إضافة إلى ضغوط أخرى قائمة من الخارج).

والمثل الثاني هو موقف حركة «كفاية» الراض للتمويل الأجنبي انطلاقاً من إدراك عميق لمخاطر التطفل الأوروبي والأميركي في جمعيات المجتمع المدني. فقد رأت الحركة أن هذا التمويل قد حُرِّبَ قطاعاً واسعاً من النخبة السياسية وشكلاً فعاليتها وجعلها تروج لاجندة غربية (أميركية أوروبية) لا تُعكس - بالضبط - الواقع العربي واحتياجاته: كما أنه حُرِّبَ أعداداً كبيرة من ممارسي العمل العام، الذين تخطوا عن مفهوم وفلسفة العمل التطوعي لصالح العمل للدفع الأجر. وقد اشارت «كفاية» في بيان لها بتاريخ ١٤ مارس ٢٠٠٥ إلى مخاطر الانصياع لمبدأ تمويل جمعيات المجتمع المدني من الخارج، معلنة أن «الاستبداد السياسي المحلي والعنوان الاستعماري الخارجي هما وجهان لعملة واحدة، لا يصح النضال ضد أي طرف منهما بمعزل عن الطرف الآخر. وهذه الرؤية تميزها تمييزاً كاملاً عن كل الحركات السياسية التي تندرج تحت جنود أعمال الولايات المتحدة الأميركية ولعدو الصهيوني في العالم، للهيمنة والتحكم في شؤونها، وكانت الحركة وأغية لمخاطر الاختراق الأميركي لعملية المطالبة بالتغيير الديمقراطي من هذا الطريق. ولذلك لم تتوان عن مهاجمة الجمعيات غير الحكومية السد التي التقت بالسفير الأميركي وتسلمت منه شيكاً بقيمة مئتين دولار أميركي (نعماً لنشاطها!)، معلنة (أي الحركة) اعتمادها الكلي على مصادر تمويلها الذاتية وعلى نضال كوادرها في سبيل اكتساب حفرها.

لذلك لم يكن نضاراً في سياق عمل حركة «كفاية» وأسلوب أدائها أن ترق بشجاعة وتقف على مزاعم الرئيس مبارك حينما ألقى، في حوار مع أحمد جبار الله، رئيس تحرير جريدة

الأهرام الرسمية (فلقد تهاذتة ثقة الشارع واحترامه) وإدراكه بقيتي بأن الحرية لا توهب بل لا بد من انتزاعها من يرائن السلطة المستمرة.

ثالثاً، الاستفادة من فكرة «السموات المفتوحة»، ومن قدرة الفضائيات العربية واليديا العالمية على نقل الحدث في أنباء المعمورة، بالصورة والكلمة، متجاوزاً كل محاولات السلطة من أجل محاصرة خصومها (كما كان يحدث في الماضي). وكان الهدف هو تشكيل سباج للحماية، نظراً إلى حرص السلطة الاستبدادية على صورتها في الخارج، وهي صورة تعكس على تسويقها وتخفى من مغبة الإساق إليها أمام الدول الغربية والرأي العام العالمي.

كما كان مواقف حركة «كفاية»، التي تميزت بالوضوح والحسم والعداء، دور كبير في تأسيس سمعتها التي تجاوزت الحدود ووصلت إلى قطاعات واسعة من المصريين والعرب والأجانب. وهناك مثالان وأضحان يشرجان هذا الأمر:

المثال الأول: حينما اتفق الحزب الوطني (الحاكم) مع أحزاب «التوافق الوطني»، المكون من أحزاب التجمع والوفد والناصرى، وآخرين، على تأجيل المطالبة بأي تعديل في الدستور إلى ما بعد الاستفتاء على منصب رئيس الدولة (سبتمبر ٢٠٠٥)، رفضت «كفاية» بصراحة تأجيل المطالب الديمقراطية الشعبية إلى ذلك الحين، وأعلنت أنها ستناضل من أجل إجراء التغييرات المطلوبة في الدستور فوراً. وكانت ردة فعل أطراف السلطة وأجهزتها الإعلامية رفضاً حاسماً: كما تهجم بعض رموز المعارضة «الرسمية» على الحركة بسبب هذا الموقف. على أن الأيام اتحدت مفاجأة كبرى لهذه الأراء، حين صندتها تراجع الرئيس مبارك نفسه بقبوله مبدأ تغيير الدستور^(١) وهكذا جاء إعلان قبول الرئيس مبارك مبدأ اختيار رئيس الجمهورية بالانتخاب

١ - كان الدكتور رفعت السعيد، رئيس حزب التجمع، قد أعلن أن الوقت لا يتسع بإجراء أية تعديلات دستورية قبل الاستفتاء، وأصفاً حركة «كفاية» - وترى بطلون معها بعدم تأجيل إجراء التعديلات المطلوبة على الدستور إلا بعد إتمام الاستفتاء - بأن إبراكهم السياسي محدوداً

• أما حزب الحكومة (المستوى بـ «الوطني»)، فقد لجأ - بعد أن استنفذ آخر إمكانياته - إلى شن حملات دعائية لتشويه الحركة باستخدام آلة الإعلام الرسمية الجبارة، وإن كانت فاقدة التأثير والمشروعية، في الشارع. ثم لجأ إلى استئجار مجموعات من «البلطجية» ومعتادي الإجرام والخارجين على القانون، محمّلين بالأسلحة البيضاء وبالآلات الحادة، وفي حماية جهاز القمع البوليسي الذي عُثِدَ إلى محاصرة كواد «كفاية» ومناضليها لدى نزولهم إلى الشارع، وتيسير السبل لاعتداء جموع المهتمّين والغفاه المنفوعي الأجر عليهم. وبلغ الأمر ذروته يوم الاستفتاء (٢٥ مايو ٢٠٠٥)، حيث لم يتجرأ على النزول إلى الشارع لحجابه حزب السلطة وأدوات قمعها سوى حركة «كفاية»، ونالها ما نالها من اعتداءات ومحاوّلات منخبطّة لانتهاك أعراض فتياتها، تحت مُشْمَعٍ ومرأى من العالم كله، وقد شكّل ذلك فضيحةً دوليةً نكّلتها الفضائيات، وتداولت أخبارها المحافل، لكنّها - من جهة أخرى - ضاعفت من مصداقية الحركة، وبعثت بالآلاف الأعضاء الجدد للانضمام إلى صفوفها.

«كفاية»: صيحة هزّت الضمير الوطني

لقد ساعد على الانتشار السريع لأفكار «كفاية» تهوُّلُ المجتمع لقبول المطالب المشروعة بالتغيير في البلاد، بعد أن أصبحت وطأة الأزمة المجتمعية الشاملة ثِقَلًا على الأكتاف. فقد جاءت صيحة «كفاية» في وقت مناسب تمامًا، إذ بدأ التملُّعُ بعَمِّ المجتمع بطبقاته المختلفة وفئاته الاجتماعية المتباينة جرّاء التفكك المحفوظ في جهاز الدولة، وانتشار الفساد، والتزيف المستمر في الثروة الوطنية، وانهيار مستويات المعيشة (٢٥ مليون تحت حدّ الفقر)، وتزايدُ جيوش العاطلين عن العمل (أكثر من ٧ ملايين عاطل معطّلهم من الشباب) إلخ... وشكّل ذلك كله حاضنةً نموذجيةً لدعوة التغيير التي أطلقها حركة «كفاية». ولهذا كان مُشْمَعًا مع ما تقمّن أن تنتشر الدعوة من أجل التغيير في أوساط المجتمع المصري في هذه الفترة القياسية. هكذا شوهدنا تكوين تشكيلات الحركة من أجل التغيير في قطاعات متعددة: أساتذة

السياسة الكويتية، أنْ محرّكة كفاية تتنمّ مظاهرات مدفوعة الثمن، وإنه كان يملك - لو أراد - مجاراتها في هذا الشأن بتنظيم مظاهرات أكبر تهتف: «مش كفاية»، فلقد رتّت «كفاية» بأنْ من يقوم بتنظيم المظاهرات المدفوعة الثمن هم أعضاء حزب الرئيس (الحزب الوطني). كما أعلنت أنها ستقوم بمقاضاة رئيس الجمهورية دفاعًا عن شرفها وسمعتها ونزاهة أعضائها، حتى يعتذر امتدّارًا واضمًا عما رُغمه من اتهامات باطلة بشانها! وقد أتى هذا الموقف الحاسم إلى تراجع رئيس الجمهورية بعد ساعات معدودة عن هذه الاتهامات، بإصدار بيان باسم رئاسة الجمهورية يشير إلى أن صحيفة الأهرام - التي نشرت نصّ الحديث - قد حرّفت كلمات الرئيس، وهذا الأمر منَحَ الحركة مصداقيةً وزخمًا جديدين، وساعد في ذبوع أفكارها.

من يخشى حركة «كفاية»؟

ومع تصاعد وتيرة الصراع بين النظام وحركة «كفاية»، بدأت القوى السياسية الأخرى في المجتمع تُشْعَرُ بالقلق وتتحرك للمشاركة قبيل فوات الأوان. وهكذا وجدنا جماعة «الإخوان المسلمين»، وهي الأكبر عددًا وعدةً، جُنَّتْ على مجازاة حركة «كفاية» بالنزول إلى الشارع، استجابةً لضغوط قواعدها، وبالأذات الشباب الذين أثّروهم عممُ للمشاركة في هذا الصراع الخطير الذي بدأ يهزّ المجتمع ويؤثّر في توجهاته. أما الأحزاب التقليدية، الرسمية، فقد انقسمت قسمين:

• أولهما الأحزاب «للعراضة» الرسمية، مثل «التجمع» و«الوفد» و«الناسري»، فقد حاولت احتواءً ترايع زلزال «كفاية» بالتجاهل وإدارة الظهور حينًا، وبالهدم والرفض أحيانًا أخرى، لحماية قواعدها من التأثير بحوية «كفاية» خاصةً بعد أن لاحظت أن عددًا مهمًا من كوادرها المحبّبة - بسبب عجز هذه الأحزاب عن تجديد دماها والخروج من الفقرة المحبوسة داخلها - قد بدأت بالانجذاب إلى «كفاية» والمشاركة الفعّالة في أنشطتها.



اعتُدى على المتظاهرين
تحت مسمار ودرأى من
العالم كله

ملاحظات شكلية على علاقة الداخل بالخارج

لم تكن السلطة المصرية وبعض أحزابها الرسمية هي وحدها التي صيبت جام غضبه على حركة «كفاية»، التي هيئت كالرياح العفوية فهزّت ركوبها وركون الحياة السياسية في المجتمع، وسحبت البساط من تحت أقدام الكثيرين من المنتسبين إليها. وإنما تعاملت مع «كفاية» بشكل سلبي أيضاً عناصر وطنية طيبة النوايا، متعلّين من التجاوب معها خبرتها السياسية المحدودة، وغياب التصاقها بنضال الواقع، وعجزها عن تحسُّس ما يعمل في الأرض المصرية والحربية من تفاعلات حادة تُعكس لحظة حرجة ومصيرية لا يمكن تجاهلها، أو متعلّين من ذلك الهرب من استحقاقاتها تحت زعم الأولوية المطلقة للنضال ضد الإمبريالية والصهيونية، دون وعي لترابط قضيتي الديمقراطية ومعاداة الإمبريالية ارتباطاً موضوعياً لا يُمكن فصله بأي حال من الأحوال. فكأنّ بهذه الأصوات المصدودة ترى تجاهل أيّ مطلبٍ بالحرية والديمقراطية إلى أن يتمّ الخلاص من الاحتلال والعُدوان الصهيوني الإمبريالي، لكنّ دون أن تتدوّل لنا كيف يُمكن تصحيح هذا الأمر في ظلّ استبداد أنظمة فاسدة تُحكم بالصيد والنار، وتُشعّع من توافر الحد الأدنى من الشروط الضرورية اللازمة لتجذير الشعب في الحركة ضد الإمبريالية الأميركية والصهيونية. فالحال أنّ ذلك لن يكون ممكناً إلا بقيادة نضال ديموقراطي حقيقي، يتمّ عبره - لا عبر الوعود الأميركية الوهمية - انتزاع الحقّ الديمقراطية للشعبية. وهذا ما يتيح للجامعين الوطنية الفرصة لتنظيم صفوفها نفاعاً من مصالحها، وضدّ الاستغلال والاستبداد الداخلي من ناحية، وضد الهيمنة والعُدوان الأميركي والصهيوني من ناحية أخرى. فالحال أنّه لا سبيل إلى مواجهة العُدوان الخارجي على الأمة، والعُدوان الداخلي على الشعب، إلا عبر هذه العلاقة الجدلية بين النضال الديمقراطي والنضال الوطني/ القومي، على النحو الذي تبينته حركة «كفاية» وحاربت في ضوئه كلّ معاركها حتى الآن.

والغريب في الأمر أنّ هذه الأصوات التي ارتفعت للهجوم على حركة «كفاية» تُصنّف استقطاباً بعيدة عن الواقع، بين ما حدّث

من أجل التغيير (في الجامعة) - شباب من أجل التغيير - أمّلاء من أجل التغيير - مهندسون من أجل التغيير - صحافيون من أجل التغيير - أدباء وفنانون من أجل التغيير... وكلّها تجمعات فئوية تنادي بالتغيير الديموقراطي في المجتمع، على نحو ما طرحته «كفاية» من أفكار، إضافة إلى مطالب للتغيير الديموقراطي في مجال تخصصها (الجامعة - الصحافة - الأدب - الطب... إلخ). بعد أن طاولها الفساد من كل ناحية ولم يعد أمامها من مهرب سوى إعادة ترتيب أوضاعها على أسس الديمقراطية والمساواة.

وأكثر من ذلك، فلقد بدأت حركة «كفاية» في الانتشار الفعلي في كلّ محافظات مصر تقريباً، وبين الفلاحين والعمال الذين انشأوا «فلاحين من أجل التغيير» و«عمال من أجل التغيير» للنفاذ عن قضايا الطبقة العاملة والفلاحين الاجتماعية، وبالتوافق مع كلّ جماعات الوطن التي تُشكّل التغيير الديموقراطي الشامل. والمهمّ أيضاً أنّ مثال حركة «كفاية» قد نلّع إلى الحركة قطاعات مجتمعية كانت خارج الحراك السياسي بصورة كاملة، مثل القضاة الذين عقّدوا مؤتمراً حاشداً يوم الجمعة ١٣ ماير الماضي أكدوا فيه مطالبهم باستقلال الكيان القضائي عن تدخلات السلطة التنفيذية، وكذلك مطالباتهم بالإشراف على الانتخابات القادمة (انتخابات الرئاسة ومجلس الشعب) دون تحلّل الأمن وهيئات الدولة، وإلاّ تتحوّل عن المشاركة فيها - وهذا ما يضع النظام في مأزق حرج إن قُرئ هذه المطالبات... وإنّ رفقتهما أيضاً!

كما تجاوزَ صدى تكوين وتحركات «الحركة المصرية من أجل التغيير» - كفاية - الواقع المصري إلى الواقع العربي، يحكم ما تحلّته مصر من قيمة موضوعية وموقع ريادي في الوطن العربي والمنطقة. فتحوّلت حركات متعددة في ليبيا واليمن والأردن وغيرها من البلدان العربية تحت مسمى «كفاية» أو متباغاتها. وهذا ما يشير إلى أهمية هذا الشعار وتماسه مع تطورات ومطالب الجامعين العربية في كل أنحاء العالم العربي.

إن إلحاح الحاجة إلى استبدال أنماط الحكم الفاسدة والاستبدادية المسيطرة على البلاد، بما يسببه من انهيارات اقتصادية واجتماعية، كان سيُفتح الباب أمام أية قوة أو فرد أو مجموعة أفراد مدفوعين من الإدارة الأميركية إلى رفع شعارات «الديموقراطية» من أجل تجيش الملايين من المتطوعين إلى التغيير، وفي اتجاه معاد المصالح والأمن القومي. لولم تتقدم حركة «كفاية» بكل منظورها المعادي للهيمنة الأميركية والصهيونية، والمنحاز للشعب وطبقاته الأقل والأكثر معاناة، وتاريخ مؤسسيها المعروف في النضال ضد الصهيونية والتطبيع والهيمنة الأميركية - الأمر الذي ميّز لها قبولاً واسماً في المجتمع المصري وخارجة.

حركة «كفاية»: التحذيرات والاستجابات

غير أن حركة «كفاية»، ونتيجة للقبول العام الذي حقّقه في فترة وجيزة، تواجه مجموعة كبيرة من التحذيرات، ومنها على سبيل المثال:

(١) تحذير بناء هيكل تنظيمي للحركة يستوعب التدفّعات الهائلة للراغبين في الانضمام تحت لوائها، مع حلّ معضلة أن الحركة ليست حزياً (وليس من ضمن توجهاتها الرأسمالية أن تتحول إلى حزب)، ولا يُمكنها أيضاً الاستمرار وسط هذا «الفيض البشري» دون حد أدنى من مؤسسة العلاقة بينها وبينهم.

(٢) تحذير طرح برنامج عام للتغيير الديموقراطي في البلاد يستجيب للمطالب الملحة، ويتضمن رؤية اجتماعية تتجاوب مع مطالب الطبقات الشعبية (وفي اللقمة العمّال) في الارتباط بالحركة والتفاعل مع أنشطتها، ويحافظ - في الوقت نفسه - على وحدة مكوناتها المختلفة المصادر (يسارية - قومية - إسلامية - ليبرالية).

(٣) تحذير السعي إلى بناء جبهة للعمل المشترك مع باقي الحركات والقوى والأحزاب السياسية، في ضوء توجّس هذه الأخيرة من فاعلية حركة «كفاية» وحيوية أدائها، وما يمثّله من

في بعض دول أوروبا الشرقية وما يحدّث في بلدنا، متجاهلة اختلاف الظروف بين البيئتين، واستحالة تجاهل حضور الاحتلال الصهيوني في فلسطين والاحتلال الأميركي في العراق على أجنحة أي حركة تغيير في بلدنا. كما أنها تتجاهل بشكل قصدي كلّ ما تضمّنّه وثائق حركة «كفاية» من إشارات حاسمة إلى موقفها المبدئي المضادّ للإمبريالية الأميركية، والصهيونية، والتمويل الأجنبي، وغيرها مما لا يُمكن لأيّ رأي موضوعي تجاهله.

كما أنها تتجاهل أيضاً حقيقة مفادها أن قادة حركة «كفاية»، جميعهم، قد تربّوا في مدرسة الوطنية والقومية، وأنهم - بأنفسهم - مؤسسون لكلّ لجان مقاومة الصهيونية والتطبيع مع العدو الصهيوني، ولجان مقاومة العدوان الأميركي على الشعب العراقي، ولجان المقاومة الشعبية للسلم والشركات الصهيونية والأميركية، وأن تاريخهم النضالي يجعلهم قادرين على حماية حركتهم من أية مخاطر قد يتصوّر البعض حدوثها. والحق أن دافع مؤسسي «كفاية» إلى تأسيس حركتهم لم يكن التهرّب من الاستحقاقات الوطنية والقومية، وإنما الحاجة إلى توفير الشروط الموضوعية الضرورية لتحقيق هذه الاستحقاقات: ذلك أن حرّق ألف علم أميركي أو صهيوني لن يحرّك الوضع قيد أنملة مثمناً يحرّكها حكم مصر بنظام وطني حقيقي، وقومي حقيقي، وديموقراطي حقيقي، يُثبّع بالقدرة المصرية الهائلة المجهّدة إلى صلب معركة البناء، والاستقلال والحرية - وهذا هو حال كلّ الدول العربية بدون استثناء.

ولعل من حسن الطالع أن برنامج التغيير الديموقراطي، الذي بادرت حركة «كفاية» إلى طرحه والسعي لاستقطاب الإجماع الوطني حوله، يجي في سياق رؤية واضحة للمصالح الوطنية والقومية العليا، التي تمثّل فيها خضبة الصراع العربي - الصهيوني - الإمبريالي، وتحرير المنطقة من الاحتلالين الصهيوني والأميركي، ومواجهة مشاريع الهيمنة الإمبريالية في منطقتنا، موقفاً رئيسياً.



الواليد الحرّ وحده هو الذي يقاتل من أجل حرّيته ووطنه وأمتنا

العواصف العاصفة التي تُصَفّ به من كل جانب. وحتى الآن، فإن مسيرة حركة «كفاية» قد نجحت – بدرجة أكبر من كل التوقعات – في إعادة الروح إلى مجتمع كان قد خاضع للسياسة وأدار ظهره للشأن العام، واستطاعت – بالتجربة التي ألفت به في البركة الأسنة التي لم تحرك لعقود – أن تعيد إلى بؤرة الضوء قوّة هائرة كانت مهشّنة وثائورية، هي قوّة جماهير الشعب التي أطلقت صيحتها المدوية:

«كفاية، كفاية، كفاية إحصا وصلنا النهاية»
ولعلّ هذه الصيحة المدوية، التي خرجت من القلوب قبل الحناجر، أن تكون إيناثاً بنهاية عهد، وبداية عهد جديد.

القاهرة

خطر على بنيانها المحافظ المقدّ، من جهة، وفي ضوء حقيقة أنّ عملية التغيير الديمقراطي – الاجتماعي في البلاد مهمة شديدة الثقل لا يُمكن طرفاً واحداً من أطراف العملية السياسية أن يُهضمّ بعينها وحده.

(٤) تهدّي حماية الحركة من محاولات الاختراق، الداخلية والخارجية، من طرف السلطة والقوى المضادة في الداخل، ومن الولايات المتحدة والقوى التابعة في الخارج، ممّن يرفعون شعارات الديمقراطية المزيفة وسيلة للقفز على النضالات الوطنية والقومية، ولحرف مشاريع التغيير الديمقراطي الوطنية عن مسارها الأصلي. غير أنّ واعي قادة حركة «كفاية» وأعضائها وأصدقائها لهذه التحديات يساعد في بلورة موقف صامع في مواجهتها من أجل استشراف رؤية مجتمعية شاملة يتضمّننها برنامج التغيير الديمقراطي المقبل الذي يحقّق السيطرة الوطنية على مجريات هذه العملية.

ولبث مستقبل حركة «كفاية» بعد الشوط الكبير الذي قطعته في المدى القصير المنصرم، فقد دعت الحركة إلى مؤتمر كبير، يشارك فيه خمسمائة من كبار المثقفين ورجال السياسة والفكر والمعرفة والوطنية والقومية في مصر بهدف التداول حول القضايا الرئيسية المطروحة، ولبحث سبل مواجهة التحديات التي تجابهها الحركة

إنّ حلم التغيير الديمقراطي في مصر، وفي باقي أرجاء وطننا العربي، ليس حلمًا مجانيًا لدى شعوبنا التي عانت طويلاً من الاستبداد والفساد، وهي تدرك عن يقين وخبرة أنّ أيّ تشقّق بتخليل تحقيق الحريات الإنسانية الأساسية لأمتنا تحت رعم «لا صوت يعلو فوق صوت الحركة» هو الآن محض هرام وسفاهة. فالوطن الحرّ وحده هو الذي يقاتل من أجل حرية وطنه وأمته، وأما العبيد فلا يصنعون الحرية!

لقد أطلقت حركة «كفاية» وهوداً بالتغيير، وحرّكت أماً في الحرية (حرية الوطن والمواطن)، وهبّت مشاعراً حميمية بالنواصل والرغبة في النضال المشترك لإنقاذ مركب الوطن من

أحمد بهاء الدين شعبان

عضو مؤسس في «الحركة المصرية من أجل التغيير» - كفاية .

اختزال مطالب التغيير

□ أحمد عبد الرحمن

الإصلاح اميركيًا

بدايةً ينبغي التأكيد أن التركيز على الإصلاح السياسي في مصر كمسئل لمواجهة الاستعمار يُضلل في طبيّاته مضطربة أن تكون الحركة رغبةً للفاطرة الليبرالية الوالية لأميركا التي تُزلق شعارات الإصلاح السياسي أيضًا، لكن مفرقةً من أيّ مستوى وطني يُغضّ الهيمنة الاستعمارية وسياسات الإفكار. فالحال أنه لا يُمكن حشد الطاقات الشعبية تحت راية «الإصلاح السياسي» بالمفهوم الأميركي لأنه يُحصّره في نطاق انتهازيّ يُطعم النخب السياسية الجعيدة المرتبطة بالولايات المتحدة التي لا يُمكن أن تُلْزَم سوى نماذج أكثر تبعيّةً مثل فرضاي وعلاوي ترتدي عباءة الديمقراطية الموهوبة بالباركة الأميركية. إذن، من الأهمية بمكان الربط بين الاستقلال الوطني والحرية السياسية بوصفهما هدفًا واحدًا، لأنه لا حرية سياسية في إطار التبعية، ولا استقلال وطني من دون إطلاق الطاقات الشعبية وتحريرها من قيود الحكومات الشمولية.

الفصل بين القضية الوطنية والإصلاح

إن الحركات الداعية إلى التغيير في مصر تؤكد أنها تجمّعت لمواجهة امرين كلٌ منهما سببٌ ونتيجةٌ للآخر، وهما «الغزو والتدنّي» الأجانب من ناحية، والاستبداد الشامل في حياتنا من ناحية أخرى. وقد جاء في وثائق تلك الحركات أن «أولى خطوات مواجهة الغزو والتدنّي» الأجانب هي الإصلاح السياسي والدستوري الذي يقرّ لامة كلّ الضمانات الممكنة للملاحقة وهزيمة المشروع الاستعماري الكريه. ولكن الحقيقة هي أن هذا الإصلاح وحده لا يُلْزِم هذه الضمانات. إضافةً إلى ذلك، فإن هذا المنهج التقابلي، أي البدء بإصلاح سياسي ودستوري يُمكننا من «ملاحقة المشروع الاستعماري» إنما يتناقض مع ما نُكرِّهُ الوثائق من أن كلا القضيتين (مواجهة الاحتلال والتدنّي) الأجانب، ومواجهة الاستبداد) سببٌ ونتيجةٌ للآخرى؛ أي أنها مترابطتان ولا يُمكن فصلهما.

إنّ منهج إعطاء الأولوية لجانِب من التغيّرات على حساب جانب آخر يضع الأمور في إطار يُسهّل توظيفه من قبل أعدائنا، كما حدث بالنسبة إلى تقرير التنمية البشرية الذي حُجِبَ دور الإمبريالية في عرق التنمية. كما أنّ هذا المنهج يُصنّف الأنظار أو على الأقل يُخفّض الاهتمام بالقضايا الوطنية، في وقت يتصاعد فيه الهجوم الإمبريالي - الصهيوني على امتنا بأسرها، ويشتعل الصراع بين المقاومة العراقية البطلة وبين قوات الاحتلال الأميركي، ويتواصل نضال الشعب الفلسطيني ضد الاحتلال الصهيوني، ويحاول فيه الاحتلال في العراق وفلسطين تشكيل الأطر السياسية والأمنية بما يكرّس أهداف الاستعمار العدوانية تحت شعارات «الديمقراطية والإصلاح والتغيير». وتحت الشعارات نفسها تمارس الإمبريالية الأميركية الضغوط على السلطة المصرية القائمة، مستغلةً ضعفها وعدم شعبيتها، لتُفرض عليها تنازلات خطيرةً مثل تعديل اتفاقية كامب دايفيد لصالح المزيد من الدعم الأمني لإسرائيل، وتعمير اتفاقية الكويز التي تسهّل تغطيل النفوذ الصهيوني في الاقتصاد المصري، ومثل المزيد من قبول التدخل في الشؤون الداخلية، وتقديم المساعدة للاحتلال الأميركي ضد المقاومة العراقية، ومساندة الضغوط الأميركية والصهيونية لإسكات صوت المقاومة الفلسطينية ومن أجل تمرير مشروع الشرق الأوسط الكبير. كما تستخدم الإدارة الأميركية شعارات «الإصلاح والديمقراطية في كافة البلاد العربية» فقط كسلاح لخرس المزيد من التنازلات والتدخل في القضايا الوطنية والقومية على أنظمة الحكم العربية.

قد يتبادر إلى ذهن البعض أن منهجنا هذا أمرٌ مريعٌ للسلطة الاستبدادية المحلية التي طالما سعت إلى صرف الانتباه نحو التهديد الخارجي لتبرير ديكتاتوريتها، ولكن من قال - غير الديكتاتوريين - إن الديمقراطية تتناقض مع مواجهة التهديد الأجانب؟ إن الحرية والديمقراطية شرطٌ أساسيٌّ لا غنى عنه لمواجهة العدوان الأجنبي. ثم ما هو الداعي أصلاً لاستخدام تلك الصيغة في ظل نظام لا يُخفّل كثيرًا بالتهديد والتدخل



هل يمكن الحركة الوطنية المصرية أن تصالح لإسقاط النظام الحالي لكي يجعل منه نظام أكثر قدرة على تمرير الخططات الأميركية تحت مظلة ديموقراطية؟

عجيب حقًا. وإذا نحينا مؤقتًا مسألة مفتاح التغيير الحقيقي، فإنَّ من يختلف حول القضايا الوطنية وأولوياتها هم المليون مع الكيان الصهيوني والإمبريالية الأميركية، أو الذين لا يجِدون فضاضة في التمويل الأجنبي الأميركي والأوروبي لأنشطتهم ولا يفتخرون ذلك التمويل تدخلًا أجنبيًا أو تعاملًا منهم مع أعداء بلادنا وشعبنا.

وليس من قبيل المصادفة أن تُذكر صحيفة واشنطن بوست الأميركية في افتتاحيتها في ١٨ يناير هذا العام تحت عنوان «كفاية» - في إشارة إلى شعار الحركة - أهمية فرض «الحرية والديموقراطية» في مصر! وقالت الصحيفة: «أملًا في أن يكون مستر بوش جادًا في هزبه على التدخل لفرض الديموقراطية، شجعت حركات المعارضة المصرية المتصاعدة للمطالبة بإصلاحات أساسية: إنهاء حالة الطوارئ التي تقيد النشاط السياسي، وانتخاب رئيس من بين أكثر من مرشح، وإجراء تعديلات دستورية للحد من صلاحيات الرئيس القادم». وكان من الغريب والمؤسف حقًا أن يستحسن بعض قادة الحركة إطارًا هذه الصحيفة الأميركية وهذا التدخل الصريح، وهو أمر لا يستحسنه إلا من يتصور أن ضغوط الإدارة الأميركية قد تساعد في تحقيق الإصلاحات! وفي الوقت ذاته أتى جورج إسحق، النسخ العام لحركة «كفاية»، بجدي إلى صحيفة نيلي سغار في ٢٤ ديسمبر ٢٠٠٤ قال فيه: «إنَّ المعارضة الشعبية الأوكرانية خلال الانتخابات الرئاسية تركت تأثيرًا كبيرًا في النشاط المصريين وفي آخرين في العالم العربي الذين يؤمنون أنَّ العرب يجب أن يتحمسوا بالاحترام الديموقراطي والحقوق نفسها مثل مواطني أوكرانيا والبلاد الأخرى». لكنَّ من المعروف أنَّ النموذج الأوكراني (الثورة البرتقالية) الذي يشتهر به للنسخ العام لحركة «كفاية»، مثله مثل النموذج الجورجي (الثورة الزهرية)، يعبر أقوى تعبير عن الاختراق الأميركي للنخب السياسية في تلك المجتمعات، وعن دور المنظمات المؤثرة أجنبيًا والسفارة منظمات المجتمع المدني، وعن دور رجال الرأسمالية العالمية من أمثال سورس، ويضاف إلى كل ذلك دور

الأجنبي، بل ويُعتبر العدو الأميركي صديقًا والعدو الصهيوني جاريًا قادرًا على المساهمة في صنع السلام!

إنَّ انقسامًا من النخبة السياسية المعارضة تقوم - بوعي أو من غير وعي - بثيرة العدو الأميركي من مسؤوليته عن توطيد الديكتاتورية في مصر حين تُظهر إلى ذلك العدو باعتباره مجرد نتيجة للاستبداد والديكتاتورية المحلية في بلادنا.

كما إنَّ بيانات حركة التغيير - رغم تعدداتها (بشكل عام) والمخاطر والتحذيرات الهائلة التي تحيط بامتدادها وما يستتبع لجشع الجهد لمواجهة شاملة على كل المستويات - لم تُذكر قضايا أو مجالات أو وسائل محددة لهذا الحشد كما فعلت عندما تحدثت عن الإصلاح السياسي والدستوري، بل لقد التزمت هذه البيانات الصمت - حيث لا يجوز الصمت - عن الدعوة إلى اتخاذ موقف يتعلق بصراع جار يتوقف عليه مستقبلنا (بما في ذلك الديموقراطية التي نكتم بها)، أي بتخاذ موقف من المقاومة العراقية، والفلسطينية، ومشروع الشرق الأوسط الكبير. كما تجاهلت تلك الوثائق علاقات التبعية الاقتصادية والسياسية والعسكرية للإمبريالية الأميركية وللصهيونية، التي يتعارض الاستمرار في الخضوع لها مع استقلالنا وتطورنا والمصالح المباشرة لشعبنا. وكان من واجب بيانات حركة التغيير أن تضع هذه القضايا البالغة الأهمية في إطار مختلف، تمامًا يميزها عن إطار الإصلاح الأميركي، الذي لا يزيد من كونه مجرد قناع للسيطرة الاستعمارية.

إنَّ السكوت عن هذه القضايا يلقي متطلبات التفسير الأميركي للفق لأزمته، ويُلقي مسؤولية الإمبريالية والصهيونية عن الأزمة، ويلقي احتياجات النتيجة الأميركية إلى إقامة نظام حكم يمارس - بصورة (الفضل) ووجود غير مستهلكة - سياسات الخضوع والارتباط نفسها. كما إنَّ تبرير البعض إعطاء الأسبقية والأولوية للإصلاح السياسي بالمعنى الضيق (حرية تداول السلطة الذي يؤمنون به حرية تداول الحكم)، وتحديدًا رفض التمديد للرئيس المصري باعتباره ذلك مفتاح التغيير، أمر

فريق عمل أميركي كانت مهمته التخطيط الدقيق لتوظيف التغير الشعبي والتزوير الاقتصادي والعرفي والاجتماعي لصناعة «ثورات ديموقراطية» يُمكن عزها تشديد القبضة الأميركية على تلك البلدان، فهل هذا هو نموذج الثورة الذي يتطلع البعض إليه في مصر؟ إلا يدعونا ذلك إلى التساؤل عن سبب ظهور اللون الأصفر في مظاهرة حركة «كفاية» يوم ١٢ ديسمبر للعام الماضي؟ هل كان ذلك تيمناً باللون البرتقالي في أوكرانيا، وتحضيراً للثورة الديموقراطية «صفراء» مخفوعة الأجر تأتي بحكومة أكثر ولاءاً لأمريكا وأقدر على قهر الشعب لكن تحت شعارات براقة؟ أم أن ذلك كان مجرد تقليد أعمى لا غير؟

والآن، هل يُمكن الحركة الوطنية المصرية أن تصلّق لإسقاط النظام الحالي لكي يحلّ محله نظامٌ أكثرُ تبعيةً ومرولةً وقدرةً على تمرير المخططات الأميركية تحت مسمّى ديموقراطية؛ نظامٌ يتّبع الفسبّ الصهيوني على إسرائيل وأميركا، ويخول بين وسائل الإعلام الحكومية وبين التعبير عن ذلك الغضب؟ ألم تشكّ صحيفتيّ واشنطن بوست من وسائل الإعلام في نظام حكم مبارك؟ أم أن علينا أن نسلك الطريق الصمّيح الوحيد، وهو مواجهة التدخل الاستعماري والتبعية والديكتاتورية في آن واحد وبالأعتماد على شعبنا؟

وفي البيان الذي أصدرته حركة «كفاية» في سبتمبر العام الماضي مغروران «مواجهة الغزو الأمريكي الصهيوني والتدخل الأجنبي سبيله الإصلاح الشامل وتداول السلطة»، كانت صيغة البيان تتيح الفرصة أمام النشطاء المولعين أجنيبا للتوقيع عليه، بل تتيح اجتماع بعضهم مع وزير الخارجية الأميركية في فندق سميراميس بالقاهرة! إنهم أولئك الذين نصّبوا أنفسهم ممثّلين لما يُسمّى بـ «الجمّاع المدني المصري» الذين شاركوا في فعاليات منتدى الجمعيات الأهلية في القرب في ديسمبر الماضي، وكانت مشاركتهم جنباً إلى جنب مع وفود الحكومتين المصرية والحكومات العربية وفقاً للمخطط الذي وضعته المشروع قمتي الثمانية الكبار في «سي إيلاند» بولاية جوردجيا الأميركية في يونيو العام الماضي. إنهم أيضاً أولئك الذين يسارعون إلى

إرسال برقيات التهنية بالانتخابات العراقية بدلاً من فضحها وتمرية أهدافها الإجرامية. وهم أيضاً أولئك الذين يُتّهمون عمليات المقاومة الاستشهادية خرقاً لحقوق الإنسان. والسؤال الآن هو: كيف يستقيم لعمل عنوانه «مواجهة الغزو الأجنبي» أن يتشمل من يقبلون التخصّص الأجنبي، سواء عن طريق التمويل الأجنبي أو عن طريق غيره من أشكال الارتباط والتعاون التي تشوّه محتوى العمل الوطني والأهلي؟ أم أن توسيع المعارضة أصبح هدفاً في حدّ ذاته، دون أية قيود مبدئية؟

هناك سؤال آخر: هل يصلح نضال الشعب المصري فقط لانتزاع الحرية والديموقراطية، في حين أنه لا يصلح لمقاومة الإمبريالية والصهيونية؟ أم أن حركة التغيير هذه تستمدت على شيء آخر غير الحركة الشعبية للنضال على الديكتاتورية؟ لقد غاب عن وثائق الحركة أن أيّ حكم ديموقراطي (وهو ما تسمي إليه الحركة) لا بد أن يضع في حسابه مصالح الشعب، أي أن يضع في حسابه القضية الوطنية في المقام الأول. أمّا اختزال التغيير في مجرد تمعدن المرشّحين للرئاسة، وعدم مراعاة الرئاسة وسلطان الرئيس، فإنه يتيح الفرصة لمواصلة النظام الديكتاتوري لوجوده متخفّياً بظهر ديموقراطي زائف، بدلاً من نظام ديكتاتوري قديم تابع فقد صلاحيّته. إن الديمقراطية لا وجود لها في أية دولة تُتخذ قرارها الوطني المستقل. أمّا عن شعار حركة «كفاية» المستخدم وهو: «لا للتمديد... لا للثوريث... كفاية» فقد أصبح مجرد ستارٍ لتمرير إصلاح ليبرالي جديد يوطد سلطة رأس المال الكبير المرتبط بالاستعانة في محاربة لمنع زعزعة هذه السلطة. ذلك أن الدعوة إلى الإصلاح قد خلّت من أية مطالب أو إشارة حقيقية إلى الحقوق الاقتصادية والاجتماعية الضرورية والمعالجة للطبقات الشعبية، وهو ما يجعل الإصلاح قاصرًا على تداول الحكم لتفعيل السياسات الحالية للدولة. وقد خسيب من صاغوا تلك الوثائق، وخاصة اليساريون، أنهم تخلصوا من هذا الملتزاق الليبرالي الجديد بعبارة «إنهاء احتكار الثروة»، لكنّ هذه العبارة لا تدعو كونها مجرد إتشعار لفظي لا يتخلل أيّ مدلول عملي، وهي تنكّرنا - مع



• كفاية. احتلال
• الإصلاح - الحريات
• ودأول الحكم

وفي كل الأحوال ينبغي ألا يغيب عن إدراكنا أن الرغبة العامة للتنامية في تغيير النظام السياسي القائم لا يواكبها حتى الآن - أو لا يواكبها بالقدر للموسم - تطور الأسس اللازمة لإنجاز التحول الوطني الديمقراطي. وهذا يهدد بإجهاض حركة التغيير، إما من قبل النظام القائم، أو من قبل الإمبريالية عن طريق توظيفها لصالحها، أو كليهما. إن لفصم أسس التحول أسباباً عديدة، لكن أحد أخطر تلك الأسباب هو غياب الحد الأدنى للقبول لبرنامج وطني ديمقراطي للخروج من الأزمة الراهنة بكل مظاهرها مجتمعة. ولا تمثل الشعارات للتعبئة مثل شعار «لا للتبديد - لا للتوريث - كفاية»، ولا حتى نجاح هذه الشعارات في جذب جماهير واسعة، ضماناً لاستمرار الحركة، ما لم يكن ذلك ضمن برنامج وطني ديمقراطي واضح يتم نشره بين صفوف الشعب. لذلك فإن صياغة مثل ذلك البرنامج، وخلق الآليات لتفكك الجماهير الشعبية إلى ساحة العمل السياسي من أجل التغيير، يجب أن يشكل المهمة الأولى الآن.

القاهرة

اقتربناها بعبارة أخرى في البيان عن «إنهاء احتكار السلطة» - بثنائية اقتسام السلطة والثروة في جنوب السودان لدى متمردى دارفور. فهل كُتبت اللغة العربية عن تزويدنا بالكلمات المبررة عما نتحدث عنه فنستعصي - دون فطن - نموذج اتفاقية إنهاء الحرب الأهلية في جنوب السودان في معرض الدعوة إلى التغيير والإصلاح في مصر؟!

ولقد دعت حركة «كفاية» إلى «الإصلاح الشامل». لكن ذلك الإصلاح الشامل الذي يُشمل، بالتحريف، كل القضايا الأساسية (الوطنية والقومية والسياسية والاقتصادية) قد اختزل في بيانات الحركة إلى قضية الحريات وحدها وقضية تداول الحكم. أما الخروج مما سُمي «الأزمة الطاحنة والشاملة» في مصر فقد اختزل إلى إصلاح سياسي يُنهى احتكار الحزب الحاكم للسلطة وصالة الطوارئ، ويستعصم بالحرريات العامة، ويانتخاب الرئيس من بين أكثر من مرشح. فهل هذه هي سمات «الأزمة الطاحنة الشاملة» لقد اختزلت هذه الأزمة بأبعادها المختلفة في «ديكتاتورية الحكم»، ثم اختزلت هذه الديكتاتورية ذاتها في مجرد تداول الحكم من عنده. وهذه هي مبادئ الليبراليين الذين يقدسون اقتصاد السوق وسلطة رأس المال. إنها مبادئ الليبراليين الجدد الذين تخلوا عن قضايا الاستقلال الوطني، خلافاً لليبرالية الوطنية المصرية في ثورة ١٩١٩ ولشعارها الشهير «الاستقلال والديمقراطية».

ازمنا مركبة، فالتغيير مركب:

إن الأزمة التي تعانيها بلادنا وشعبنا أزمة مركبة تتضافر فيها علاقات التبعية والاضمحلال السياسي والاقتصادي والعسكري للإمبريالية والصهيونية ونظام الحكم غير الديمقراطي للوالي الإمبريالية. وإذا لم يستهدف برنامج التغيير مواجهة كافة الأسباب الأساسية للأزمة، واقتصرت على مسألة حرية تداول الحكم، فإن نتيجة الممكنة الوحيدة هي صعود نخبة ليبرالية جديدة إلى سدة الحكم لتحقيق العدو الإمبريالي والصهيوني كل ما يريد... ولكن بأشكال واقعة جديدة.

أحمد عبد الرحمن

كاتب مصري.

مؤسسة عبد المحسن القطان

(برنامج الثقافة والعلوم)

تُعلن عن

مسابقة الفنان الشاب للعام ٢٠٠٦

يعلن برنامج الثقافة والعلوم في مؤسسة عبد المحسن القطان أنه ابتداءً من الأول من تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٠٥ سيتم فتح باب المشاركة في مسابقة الفنان الشاب للعام ٢٠٠٦ في أي مجال من مجالات الفنون التشكيلية، بما في ذلك الرسم، والنحت، والتصوير الفوتوغرافي، والتكريب المتعدد الوسائط وغيرها. ويجب أن يكون المرشح من والدين أحدهما فلسطيني/ة، وأن يكون عمره/ها ما بين ٢٢ و ٣٠ عاماً (ما بين مواليد ١٩٧٥/١/١ و ١٩٨٤/١٢/٣١). وأن يلي عدداً من المعايير المتعلقة بحجم الأعمال وتنوعها وأصالتها. وسيُعطى أفضل عشرة مرشحين يقع اختياراً عليهم من قبل لجنة التحكيم للمشاركة في المرحلة النهائية للمسابقة لفترة تصل إلى ستة أشهر لإعداد أعمالهم وتقديمها إلى مسابقة في صيف ٢٠٠٦. وتحتفظ المؤسسة بحق نشر المشروعات المشاركة، سواء عن طريق إصدارها في كتاب خاص أو كتالوج أو غير ذلك. ويبلغ مجموع الجوائز المخصصة لهذه المسابقة ٢٢ ألف دولار.

تُرسَل الوثائق التالية في المرحلة الأولى (مطبوعة باللغة العربية):

- ١ - سيرة ذاتية مفصلة، وصورة شخصية حديثة، ومويرة عن بطاقة الهوية الشخصية أو جواز السفر.
 - ٢ - ورقة لا تزيد عن ألفي كلمة يشرح فيها المرشح/ة عن مشروعه/ها الفني الذي ينوي/ توي تقديمه إلى المسابقة، مع ذكر التكلفة المالية المتوقعة للمشروع، واضناً/ة هذا المشروع في سياق أعمالي وخبرات المرشح/ة السابقة ومشايخه/ها المستقبلية.
 - ٣ - رسائل من ٢ أفراد و/أو مؤسسات تشير إلى جنية المشاركة في فترات دراسته/ها أو خبراته/ها الفنية السابقة.
 - ٤ - نسخ واضحة من أفضل خمسة أعمال للمقدم/ة، إما على صور أو شرائط فيديو أو قرص مدمج (CD ROM) وغيرها.
 - ٥ - أي وثيقة أخرى يرى المشاركون أنها ستساعد المؤسسة في اتخاذ قرارها
- فترة الترشح: تقبل المؤسسة الطلبات الأولية قبل تاريخ ٢١ كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٦، وتحدد لائحة المرشحين المقبولين للمشاركة في المسابقة قبل ٢٨ شباط (فبراير) ٢٠٠٦. تقدم الأعمال للمسابقة في موعد أقصاه ١٥ آب (أغسطس) ٢٠٠٦، ويُنقَرُ عن الفائزين في الحفل الختامي لبرنامج الثقافة والعلوم خلال خريف ٢٠٠٦.

كما يتضمن البرنامج مسابقة الكاتب الشاب للعام ٢٠٠٦ في مجالي الشعر والقصة القصيرة، ومنحة القطان للموسيقى، ومنحاً في المسرح والفنون الاستعراضية في مجال الإنتاج والدراسة ودعم العروض، ومنحاً في مجال الإقامة الفنية، إضافة إلى العمل على نشر عدد من الإصدارات في مجالي الفنون والأدب، ودعم نشاطات وفعاليات هنية وثقافية مختلفة.

ملاحظة هامة: لا يحق لمن سبق وأن فاز بالجائزة الأولى في مسابقة الفنان الشاب ٢٠٠٤ التقدم للمشاركة في هذه المسابقة. كما لا يحق للفائز الأول في أي حفل من حقول البرنامج الأخرى التقدم للمشاركة في الحفل الذي حصل فيه على المنحة أو الجائزة في الدورة اللاحقة لتلك التي فاز بها بالمنحة أو الجائزة.

للمشاركة والاستفسار: الرجاء الكتابة إلى:

محمود أبو شهش - مدير برنامج الثقافة والعلوم
mahmoud@gattanfoundation.org

أو العنوان البريدي التالي:

A.M. Qattan Foundation, 5 Princess Gate, London SW7 1QJ, UK
CSP@uk.qattanfoundation.org

لزيد من المعلومات الرجاء زيارة موقع المؤسسة: www.qattanfoundation.org/csp

مؤسسة عبد المحسن القطان في دعم التربية والثقافة في فلسطين والعالم العربي



شارك حداد



المثليون حملوا علمهم وشاركوا في مظاهرة المتحف

شارك عشرة مثليين في المظاهرة التي انطلقت من منطقة المتحف حاملين علمهم العالمي، علم قوس قزح. وهذه هي المرة الأولى التي يشارك المثليون في بيروت بحدث كهذا، معلنين هويتهم أمام الملا. احدهم قال في حديث مع النهار، نحن احرار، ولم يوافق على الحديث إلا بعد الموافقة بأن لا يُصنّوا بالمتحرّفين.

لماذا تشاركون اليوم في هذه المظاهرة؟

نحن نرفض الحرب وكل أنواع العنف، ولا نؤيد الديكتاتوريات.

الا تخافون من أن يتعرض لكم أحد؟

كلا، فنحن لنا الحق في الوجود وعيش هويتنا مثل الجميع.

النهار، ١٦ آذار ٢٠٠٣، الصفحة ٤.

- ١ -

ينير ضوء الشمس الغرفة الصغيرة في أحد أبنية بيروت القديمة، ويرسم مريئاً من نور على أرضها. يجلس السنّة من حوله، ويبقى كرسي سابع في انتظار المجهول. ينساب النسيم بينهم مُحَمَّلاً برائحة الياسمنية التي احتضنت النافذة، ويخيم الصمت المريض عليهم، كالصمت في غرف انتظار المستشفيات.

فجأة... يدخل طير صغير. يتجفّلون، وتُشْفِص عيونهم صوبه بغور وعدائية. يتبادلون نظرات الاستفسار السريعة. لكنهم يكتشفون أنه مجرد طائر، لا يهددهم وجوهه. تهدأ أنفاسهم. يتنسم ياسر الذي التصق بالمناط اللوحيّة للنافذة حين دخل الطير. يقترب منه بحب، ويركع على ركبته ماذا يذه صوته.

يراقبونهما.

يفرغ العصفور مرتين ويقفز مرتين، ويغار على عجل. يتلهّص ياسر لاحقاً به صوب النافذة بلهفة، ويشهق بصوت خفيف كأنه يقول له «لا تتركني هنا وهذا». خذني معك»

يسود السكون مجدداً.

كاد هذا اليوم أن يكون عادياً، وكادت تلك المظاهرة أن تمرّ بسلاّم. كاد مريئاً اللّو على أرض الغرفة الصغيرة أن يفادها طبيعياً، معلناً غياب شمسٍ آخر. ولكن رمل الزمن توقّف عن الانزلاق وتعلّقت حبيباته في الفضاء. أصبحت الثواني دقائق، والدقائق ساعات، والانتظار - كالخشب - يزيد نازّ اللق الذي يوسّع هبابه وجوفهم بألوان رمادية شاحبة.

تبعد زرقعة عصفائر المدينة هامسة بالآمل.

- بش رح يتلّص ها النهار خيّر...

يُهَسّ مارك في أدن سنا بكلماته ترتعش، فتشدّ على يده مشدّة، فتنتقل إليه كهارب خوفها السري. يدق قلبه أسرع، ويحسن بحاربه شوريقة ترتفع من صدره إلى وجهه وأذنيه. يُغَلّت يده من قبضتها التي بدأت تُوجعه من ضغطها المتزايد. يضع رجله على الكرسي، ويمتصن ركبتيه، ويخفّض رأسه بينهما.

♦ - كاتب شاب من لبنان. وهو اسم مستعار. (الأداب)

منذ سنتين اخططت افكارُ مارك بالزرقِ الحبرِ وابيضِ الورقِ ورائحةِ الكتبِ، فكتبَ عشرات القصص القصيرة التي التصقتُ بحلم المئات ووزَّعتُ معاناتهم وفرحهم. كتبَ كلُّ الحب الذي لم يستطع يوماً أن يُبوح به لأي كان. كتبَ ليُفرِّجَ كلَّ الحقد والقهر على الورق.

تستعيد سناً رباطة جفونها تأخذ نفساً عميقاً. تمدُّ يدها بيده نحوه وهي تميل بجسدها لتحضنته. تمرُّ أصابعها بين خصلات شعره الطويل الاسود الفاحم وتداعيه بهجان.

– ما تُفكرِش.. يفكرُ إني إذا إختنا هنرلنا إشي، في غيرنا راح يقتر يعيش أحسن ويكرامة أكثر.

تحرَّرَ جملةُ سناً هذه دمعاً حاول مارك اعتقالها لدقائق، فتفرَّ من سجنِ عقله مُتنبِّعاً بالخوف على أهله من هول الفضيحة وخيبة الأمل. يفكرُ:

سينام العارُ على سريري ويترجَّع في زوايا منزل طردني منه. سيتحكَّم بأهلي ويُجبرهم على كرمي. يجب على أهلي أن يقاتلوه، وبشراسة: فحريهم ليست سهلة، وإن تكون ضدَّ ما آمنوا به منذ أجيال فحسب، بل ضدَّ مجتمع برؤيته.

ماذا سيحصل لي إذا دخلتُ السجن؟ كيف سأُكمل حياتي بعد خروجي؟ هل سأتمكِّل كل هذا؟ لماذا شاركتُ في تلك المظاهرة السفهية؟ ولكنَّ إذا لم أكن أنا من بين البائسين، فمن سيكون؟

يَسْمَعُ مارك دموعه، يعكجُ جلسته. ينظر في عيني سناً ويَهْمَسُ كي لا يشوش سكون الغرفة:

– فوَّكِّلْهُ، إذا بقينا هون، وتركناهم يكسبوننا، رح نشر نغير شي؟

– وركِّدْ أكيد، جبيني. إحنا ما عَمِلْناش إشي غلط... إحنا وقفنا مثل الكَلِّ ضدَّ الحرب على العراق. ما إلهْمُش الحق إني بعيسكونا.. طمَّنْ بالك يا حُوي.

– بس نحن كنا حاملين عَلم قوس قزح.

– قوس قزح ولا غيرو يا حوي.. فِكْرَتُ راح يعرفوا شو ميثاقنا هاللون؟ طمَّنْ بالك، بيقترش يعملوا إشي ماعانا.

يبتسم لها مارك نصف ابتسامة. يذكِّرُ تلميذها له بأنه. يستدرك فجأة أن أمه وحيدة في المنزل؛ فوالده يعمل ليلاً وإخوته في بيروت. يصرِّخ وهو يُنظر صوب سلمان:

– لازم دقْ لنادية لنكون حدَّ إني، إذا أنا هنرلي شي.

يعطيه سلمان الخلوي بنخوة أهالي الجبل ويمارحه علَّه يُنجح في سرقة ابتسامة من شفثيه:

– عاملِك ستتركيست أنا؟ خيري إحكلي. اليوم ببلاش، يكرِّا بمصاري.

– ٢ –

يغيب الأب عن حياة ابنه سلمان وتستعيرس الأم في حماية ولدها، ناقلة إياه من ملجأ إلى آخر، ومن قرية إلى أخرى. تُشغِّلُ الحربُ استقراره، وترمي جثَّةً مشتعلة على حدود الجاه. يلطمُ أشلائه بعد الحرب ويجمِّعها، يحاول بناء شخصية مستقلة عن كلِّ ما آمن به أهله. فيفدو كريمة كثيراً للزواج والابتسام، لكنه معزَّز لفؤاد قلَّ تُترجم سكوناً مفاجئاً، فيفترد مفكراً في عبثية الحياة والموت ومعنى الإنسانية والظلم. وحين يشعر بأن هناك مَنْ يراقبه، يبتسم، ثم يضحك بهستيرية ويخبرك عن أكثر المواقف إجحافاً في تاريخ عائلته.

انضمَّ سلمان إلى «الجموعة» منذ سنة، وألغى الجميع بأن سبب عمله في مجموعة تناضل لتحرير المثليين في لبنان هو التشنُّق من هذه المغامرة المجنونة – وهو صاحبُ المغامرات الأكثر جنوناً. يبتسم سلمان بخير حين يسلِّق ساموه أسبابه الواهية. ثم تُشرد افكاره بغضبٍ حزين حين يذكرك تلك الليلة التي حفرت في ذاكرته قهراً، وعلى وجهه ندبة.

- خَلُونَا نَريطَ هَالْمَخْنَثِ بِالسَّيَّارَةِ مِنْ وَرَا وَنَجْرُوا بِالشَّارِحِ، يَلْغِي بِيَتَعَلَّمُ يَصِيرُ رَجَالًا.
لَمْ يَصْدُقْ سَلْمَانُ مَا سَمِعَ. لَمْ يَسْتَوْعِبْ أَنْ شَبَابَ الْحَيِّ، أَصْدِقَاءَ مَلْفُولَتِهِ، يَتَحَدَّثُونَ عَنْهُ. تَخْتَلِي الْإِبْتِسَامَةُ عَنْ شَفَتَيْهِ وَتَجْمَدُ يَدُهُ الَّتِي كَانَتْ مَمْدُودَةً صَوِيحَمُ لِّلْسَلَامِ عَلَيْهِمْ

- يَا شَبَابُ، شُو الْقِصَّة؟

- الْقِصَّة. يَا مَثَلَكُ، إِنْو شَافوكَ عَم تَجْعَلْجِي عَلَى شَبَابٍ بِالْأَسِيدِ^(١) نَهَارَ الْسَبْتِ.

يُنْطِقُ أَحَدُهُمْ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ وَيَتَقَدَّمُ الثَّلَاثَةُ صَوِيحَ خَطَوَيْتَيْنِ. يَتَرَاوِعُ سَلْمَانُ خَطْوَهُ، وَيَنْتَظِرُ نَحْوَ إِبْرَاهِيمَ مَتَوَسِّلًا، أَوَّلَيْسَ هُوَ صَدِيقُهُ الْآقْرَبُ؟
- إِبْرَاهِيمَ...

يُصْرَخُ سَلْمَانُ بِذَلِكَ الْاسْمِ وَهُوَ مَلِيءٌ بِالْأَمَلِ.

- إِكْمَشُوهُ.

- إِبْرَاهِيمَ...

يُصْرَخُ سَلْمَانُ بِذَلِكَ الْاسْمِ، وَلَكِنْ هَذِهِ لَمَرَّةٌ لَوَّمًا وَكَرْهًا. يَجْعَشُهُ اثْنَانِ مِنْهُمْ، وَيُخْرِجُ الثَّلَاثُ حَبَلًا مِنْ سَيَّارَتِهِ وَيَبْدَأُ بِرَمِيهِ حَوْلَ عُنُقِ سَلْمَانِ، الَّذِي يَنْتَفِضُ صَارِخًا وَخَضِرًا فِي مَحَاوِلَةٍ بِأَتَسَةِ لِلنَّجَاةِ بِحَيَاتِهِ. لَمْ يَعِدْ سَلْمَانُ بِتَذَكُّرِ مَنْ ضَرَبَهُ، وَمَنْ شَتَمَهُ، وَمَنْ رَیْطَهُ بِالسَّيَّارَةِ. كُلُّ مَا يَتَذَكَّرُهُ هُوَ الْوَجْهُ فِي حَنْجَرَتِهِ مَعَ كُلِّ صَرْخَةٍ يُطْلِقُهَا.
يَلْتَمُ الدَّرَكُ عَلَى صَوْتِ الْخُنَاقِ وَيَقْتَادُونَ الْأَرِيضَةَ إِلَى مَرْكَزِ الشَّرِيعَةِ.

- وَاحِدَ لُوطِي، يَكُونُ نَجِيعَ.

يُصْرَخُ إِبْرَاهِيمُ مَوْجَّهًا حَبِيبَهُ إِلَى ضَاطِبِ التَّحْقِيقِ، بِأَسْفَا عَلَى وَجْهِ سَلْمَانِ، الَّذِي تَخْتَلِطُ دُمُوعُهُ بِالِدَمِ النَّازِفِ مِنْ خَدِهِ الْأَيْمَنِ
يَبْتَسِمُ سَلْمَانُ لَهُ بِاسْتِهْزَاءٍ. وَيَقُولُ... أَنَا مِثْلِي... وَإِبْرَاهِيمَ شَادَا فَنَا أَعِيشْ مَقْتَنًا بِمَا أَنَا عَلَيْهِ وَخُذْ بِمِثْلِي. لَا أَخَافُ مِنْ حَالِي، وَلَا أَعَاقِبُ الْآخَرَ عَلَى مَا لَمْ أَحْسِنْ تَقْلِيدَهُ فِي نَفْسِي، وَلَا أَغَارُ مِمَّنْ يَعِيشُ فِي سَلَامٍ. وَأَمَّا إِبْرَاهِيمَ... فَشَادَا.
بَعْدَ يَوْمَيْنِ مِنَ الِاسْتِجَابِ تَمَّ إِطْلَاقُ سِرَاحِ الثَّلَاثَةِ، وَاسْتَبْقَى سَلْمَانُ لِاسْتِكْمَالِ التَّحْقِيقِ مَعَهُ حَوْلَ مِيُولِهِ الْجَنَسِيَّةِ وَلِعَرْضِهِ عَلَى الطَّبِيبِ الشَّرْعِيِّ.

تَحْمِلُ سَلْمَانُ كُلَّ هَذِهِ الِاسْتِجَابَةَ بِسُكُوتٍ مُرٍّ وَاسْتِسْلَامٍ حَارِقٍ. فَقَدْ فَقَدَ إِيمَانَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَلَمْ يَعِدْ بِإِيَالِي بِتَعْلِيقَاتِ رَجَالِ الشَّرِيعَةِ وَالسَّاجِدِينَ فِي اللَّيْلِ الْآخِرَةِ لِإِعْتِقَالِهِ اقْتَرَبَ مِنْهُ أَحَدُ الْمَسَاجِدِينَ فِي عَتَمِ الزَّنْزَانَةِ وَكَشَفَ عَضْوَهُ وَخَصِيصَتَيْهِ، هَامِسًا فِي أَذْنِهِ وَهُوَ يُلْحَسِبُهَا:

- أَنَا رَحَّ عَلَّمْتُكَ كَيْفَ يَبْسُتَعْمَلُوا الْإِي...

وَإِغْتَصَبَهُ.

- ٣ -

يُطَلِّبُ مَارِكُ رَقْمَ نَادِيَةِ بِحَرَكَاتٍ مُضْطَرِيَّةٍ وَيَصْلِي أَنْ تَرُدَّ بِرِنِّ الْهَاتِفِ تَوْت... تَوْت... تَوْت... لا جَوَابَ. يَلْعَنُ أُخْتُ الْهَاتِفِ، وَتَلْهُ عِبَادَةُ الْخَوْفِ السُّودَاءَ. يَجِيعُ طَلَبُ رَقْمِ نَادِيَةِ بَارْتِيَاكِ وَعَنْفٍ. تَوْت... تَوْت... تَوْت...

- أَلُو.

١ - Acid: حُرْبٌ لِيَلِي لِلْمَلْعِينِ جَنَسِيًّا فِي مَنْطَلَةِ سَنِّ الْغُلِيلِ.

– ألو نادية... بشكر الرب إلو لقيتِك.

– تُغير قلبي إِنْ شالله.. شو بابت؟

– تُزكّي لعمّا عالبيت، وبخطيكي حدّ الماما.

– مارك، وينك؟ شو في؟ شغلطي بالي؟

– ما فَيِّي إحكي. يمكن الخطأ مراقب..... باي.

– مارك!

نادية، غم وصيكي بإي، أوما تتركيا وحدا...أوما تخليها تبكي. باي.

يقفل مارك الخط وينخرط في بكار حارّ من غير صوت. يركع ياسر امامه، ويُسك صدغيه براحتيه وهو يتنهّن:

– پليز حببي، ما تبكي. پليز حببي خلاص. كزّ مالي پليز.

– خلونا نغلق، يقول مارك.

يردّ سلمان:

– وِلك على شو خايفانة؟ ما الحبس للرجال... بلكي بتطلعيلك بكارا بشي واحد.

– انا مش جايّ حدّا بضمك، بس انا مش فاللّه يقول عامر بوقاره للمهود.

– غليّتنا راح نضلّ هون، منتركش هالفرفة.

تهدأ أعصاب مارك قليلاً ويعود إلى ذكرياته، فيتخيل أمّه وهي تغني له «ضاح شادي»، ويتذكر رحلته مع نادية.

نادية، البنت الريفية البسيطة، بنت قريته التي أحبّه من دون مقابل. أحبّه بصمت وعن بعد. حافظت على مسافة تكفيها لتسانده وتحبّ جسده، من دون أن تُسرع بالاختناق من وجودها. أحبّه بالرغم من هربه الذي بدأ عندما عُرف بعشقها له. عرفت نادية كيف تقدّر الإنسان داخل مارك، بالرغم من جفائه وغموضه. فكانت تربّت على كتفه قائلة:

– مارك، إنت إنسان منيح.

نادية تلك الفتاة التي صدمتها اعترافها لها بأنه مثلي، فعصّت على الجرح بصمت، وسالت دموعها على حلم تحمّ بصمت، وحاولت النوم معه طهّ يستقيم، ونكّدت أملاً مات بصمت.

نادية تتأسف لها ووقفت صمّمة على تقبل منْ تحبّ كما هو، وعلى فهم تلك الشخصية التي طالما اثارَتْ حشريتها. هنا بدأت تتقبل اختلافها وتُلمّ جسّتها.

نادية كسّرت جذران التقاليد التي سوّرت حياتها بالعيب والمنوع، لتكتشف جسّتها الذي كان غريباً عنها ومزئزاً بالعورات والمحرمات. وقفت أمام المرأة عارية. أزاحت يدها اليسرى عن نهديها الصغيرين تبرّد، ويدها اليمنى عن فرجها بفجل. وقفت أمام المرأة لتكتشف كم هي جميلة. لقد علّمها مارك، بتقبّله المثلية، كيف تحبّ نفسها وكيف تقتل خجلها من كونها انثى، وكيف تُشبع من قعر الدونية صوب السطح – صوب النور والهواء. علّمها كيف تُحبّ وتُحبّ.

نادية، الحامية، ساندت حلم المثليين في لبنان، ودافعت عن حقوقهم في المحاكم وفي دراستها وكتابتها. فقد رأت أنّ تحرّز المثليين وتحرّز المرأة لن يتّما من غير تحرير العقلية اللبنانية من المفاهيم المخجلة، كجرائم الشرف ومفهوم العيب وغيرها. وعرفت أنّ حربها ستكون ضارية وموجعة في مجتمع لم يكفّ سوس الذكرية المريضة عن نخر عظامه، فكثرت تقول: «لا حرية للمثليين منفصلة عن حرية المرأة، ولا حرية للمرأة بعيدة عن حرية المثليين.»

— ٤ —

يسود الصمت الثقيل مجدداً، كالصمت بين نهاية المجزرة والصرخة الأولى للناجي الوحيد. تبكي أوراق الياسمين حين يصفعها النسيم، معزّقةً قشرة الأمان التي التحف بها الستة. يزحف مرثع النور على أرض الغرفة الصغيرة بعيداً عن النافذة. ينزلق صوت أحدهم يغني متحدثاً سادياً السكون: «لو لاقاكم حبيبي سلّموني عليه / سلّموني الأسمراني عاملة إيه الغريبة فيه...»

بشمال ياسر، اصفرهم، وهو يغني، بمركات رقص شرقية محترقة. يغني بعنوة وفرح. ويجرّه الحنين إلى ماضٍ سحيق، إلى ثمانين سنوات خلت. يكلم نفسه:

لا أريد أن اكبر. أريد أن أعود طفلاً، وأن أصغر يوماً مع بداية كل يوم. يخفي الشعر عن وجهي. يعود شعري أشقر. أعود غروباً لا أحاسب، أعود أقصر. يخفضني كمال الناطور. الحب كل الحب. أنزل إلى البيت. يعود إلى مصر...

— ٥ —

يتوقف جورج عن المشي ذهاباً وإياباً في الغرفة الصغيرة، ويُنظر إلى شحكة ياسر وعينيهِ المغمضتين، فتمرّ صُورُ حسين أمامه. كل شيء جميل يدركني بحسين، يقول جورج لنفسه. ويسهر نظره صوب النافذة، والسيجارة في يده لا تُطفأ. يسكت ياسر قليلاً وتُسرد أفكاره. يُطع سكوت ياسر حبل أفكار جورج، فينظر صوبه ليراه دأباً بسبائته شفتيه لتتسع ابتسامته رويداً رويداً.

«ماذا يفكر يا ترى؟» يسأل جورج نفسه فرحاً بابتسامة ياسر.

يعود ياسر إلى الفناء بصوت أعلى، وإلى الرقص بشكل أعنف. يصرخ مارك بهستيرية، والزبد يطاير من فمه

« إتنو مين كلّ غفلة عمّ ترقص وتغني؟ شو بلا إحساس؟ مش حاسين إتنو اعصابنا اهترت خلصتنا بقا

— مارك روقي، يُظهر عامر بصوته الوقور.

— ما بدي روقي.. ما عاد فتّي إتحمّل.. خُليهم يجوا ويخلصونا!

— روقي، يصرخ عامر بمارك، بحزم أكبر وصوت أعلى.

— ولكن، شوي شوي على الولد، إيش مالك؟ تصرخ سنا تحتضن مارك، فيرتجف بين أحضانها. تنظر إلى ياسر الذي انكمش على الحائط للوراء للنافذة كأنها تُطلب منه المغفرة لمارك. فينزل لها رأسه مسامحاً. يلتصق مرثع النور بالحائط عند أقدام ياسر صمت آخر.

تُبكي سنا شعراً مارك الطويل. يحوك الغضب جدائل أعصابها فتتشبّ أسنانها بعضها على بعض. تتذكر:

قصص ارتباطي بالعادات والتقاليد حين قصصت شعري، كان لك في أيلول الماضي.

كم أكره أيلول. لا أنكر مرةً من فيها أيلول مسالماً، حتى من قبل ولاتي التي جات في تلك الشهر نفسه. يومها أطمت أمي وجهها وصرخت بالقالة ونساء مخيم صبرا، حتى قبل خروج خلاصي:

— يا ولي، أجتلوها، طُورها، وتُروها. ما تخلّوش أبو محمد يدرّي إتنو خلّفي بنات... عم تُلّگم وتُروها ليش عم تعطوني ياه؟ وتُروها. يديش أنظرها.

اسمع تلك القصة مراراً وتكراراً حين تتننّر زائراً منزلاً بها، فأقرب إلى المقابر القريبة خوفاً من أمي، وأدرب نفسي على أن أكون اقرب منها إذا هي حاولت قتلي. لعلها ستسبّم أكلي، أو تدبّني كما تُبّع أخي الوحيد في أيلول ١٩٨٢ خلال مجازر صبرا وشاتيلا أمام عينيها. ومن يومها فرض عليّ أن أكون للذكر اللبيل.

تغزني هذه المخاوف مع بداية كلّ أيلول، مع بداية البرد ومشاكل المطر المتسلّل من شقوق حائط منزلنا، مع بداية همّ المدرسة، ويكثر اختفاء الضوء السريع في عزّ النهار. ويكثر الحديث عن أحداث الأردن عام ١٩٧٠ والهجرة على الأقدام إلى لبنان.

في أيلول تخلفني ثيابي السوداء في ذكرى استشهاد أخي، ويكثر خوفي من أمي.

يأتي عيد مولدي الذي يمرّ حزيناً كلّ عام، وأمّي لم تقتلني بعد.

في ذلك اليوم من أيلول، تكلّم مني أمي أن أبرد نفسي للعريس القادم من مخيم البداوي خصيصاً للتعرف إليّ، بعد أن اقنعت خالتي المتزوجة هناك بأنه لن يجد عروساً طليعةً ومهدبةً مثلي. لم تجرّ خالتي أن تقول له عني إنني جميلة أو ناعمة. تُفخّر لي أمي لأصْلَف شمعي العشيّ وألبس ما يليق بفتاة قري عمرى، فأواجهها بكل الغضب التي أخفيته سنوات: «لماذا تريدوني أن أكون فتاة الآن؟ هل تعبتم من كوني صبي البيت؟»

يرنّ صوت أمي الفاسد في راسي.

— سنا، أَسْكُتِي.

صوت أمي الملهول لا يُفكّر بين أصوات تكسير الأثاث والأواني.

— شو مالِك، ولي سنا. عم يثخّرني؟

تتفجّر موجة غضبي الغفن. أنا لم أخرج آدم من الجنة لماذا تريدني أمي الآن أن أكون المرأة؟ ينتشر الخوف في عقلي كالسرطان. أغرف أنثى مخفلة، لا أمت إلى مَنْ يعيش معهم وبصلة. لن أَسْكُت بعد اليوم!

يستمرّ طوفانٌ غضبي مدحراً في المنزل.

— إيش عم تيملي ولي... جَلْبِيَتِي؟

أرد على جملة أمي تلك برمي إزار على مראה الدبة فتتكسر. أهرّب إلى الحمام. حيث أسكّل مقصّاً واجترأ من راسي كلّ ما يعتقدهونه جميلاً، وأكل على ما تبقى بشفرة. أجلس على أرض الحمام فوق شعري، وأزبح ما بقي منه عن وجهي بتعب. ألّهض على مهل لأغسل وجهي واتامله. أخرج إلى الصالون وأمّي تُرغي وتُزبد. تراني. تسكّت وتُصمق. لا تكلمني.

لن تزوّجني الآن. عليها الانتظار على الأقلّ حتى يطول شعري مجدداً... شعري الذي أبقيه قصيراً بشفرة!

— ٦ —

تحضن سنا مارك، فيرتجف بين أحضانها، ويشتاق إلى الحنان في حضن أمه.

— لماذا تبكي كلّما احتضنك أمي؟

تسألني نادية ببساطة، ونحن ناكل الدجاج عند «بربر».

تنظر إليّ بهلّ وتنتظر جوابي. لا أجاوبها. تُشعر بالإحراج الذي سبّبته، فتفادر بهدوء. ولكنّ حياتي لا تعود ذاتها: فقد كنتُ اعتقد أنّ كلّ الناس تحضنهم والدائهم فيبكون. ولكنّ سؤالها اشعرتني بغربةٍ ما أحسّ به تجاه أمي. توقفت عن السماح لأمي بمنافتي بعد تلك الحادثة، وابتعدت عنها رويداً رويداً. استغرقت تصرفاتي تلك وراحت تُنظر إليّ بعيون حزينّة كلّما تسألني إن كنتُ لا أزال أحبّها واحتاج إليها في حياتي.

أخجل. نعم أخجل. لذلك أبكي كلّما احتضنتني.

امي تحبيني. هي الوحيدة التي تحبيني من دون مقابل لا تسأل لماذا لا اتصل أو لماذا لا أفرغ لها وقتي كله. هي الوحيدة التي تُلْغمني عنها لأكبر وأصير طبيباً «قد الفني»

يوم فشلي في امتحان الدخول إلى الجامعة الأميركية في بيروت انهارت وهي تُلْومني على تخيبي أُمليها: «واحد فاشل صايع صايع. لا... الحق مش عليك، أنا الفاشلة»

لم يؤلني فشلي بقدر ما المؤني ما سبَّبه لها من ألم. يومها، وقفتُ مكسوراً أمامها أقاوم ابتسامة تكاد أن تظهر. غمرتني سعادة عميقة؛ فانا أخاف من الدم ولا أحتمل رؤية مريض.

عندما أخبرتُ أُمي بأنني دخلتُ كلية الآداب، قسم الأدب العربي، زمتُ شففتُها بحقد ولم تكلمني، بل حبستُ نفسها كلَّ النهار في غرفتها. لم تتغير كثيراً معي من يومها، ولكني أصبحتُ أبكي كلما احتضنتني؛ فانا لا أحتمل أن تعاني أُمي الفهر نُسْتُ عندما تَظلم أنني مثلي، فالتفتُ أمامها مكسوراً أقاومُ الابتسام.

انتخبني الآن تنتظر رجوعي، محاولة أن تلْهي نفسها بأعمال المنزل، علَّها تنسى قلقها الذي يُزْحف إليها مع كلِّ دقيقة أتأخرها تَحُمَل كتاباً لقرءاء وهي تعتمد على الكتابة؛ هكذا تفعل فنان حمامة في فيلم «إمبراطورية ميم» وهي تنتظر ولدها، حين يعود تكلمه بكل رقي؛ لكن أُمي تكره القراءة، فضع الكتاب جانباً، وتُشْمَل التلفاز. تقَلِّب قليلاً بين المصَلَّات وتَغش عن فيلم مصري يسليها. تخرج إلى الشرفة، وهي تُلْقي يديها بعصبية؛ فليس من عادتي التلخُّر إلى هذا الوقت. تمُد رقبتيها وتميل بجسدها القصير فوق حافة الشرفة لترى أول الشارع، علَّها تسرق من فلك الزَمَن لحظاً من راحة البال. عيلاً.

تدخل إلى الصالون وترْكع أمام شمال العذراء. تَحُمَل مسبحتها، وتصلِّي الوردية بصوت مسموع: «أبانا الذي في السموات، فليُنقِّس اسمك ويلات ملكوتك، وإلَكنْ مَشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض...» تكمل صلاتها في نفسها.

يصلها خبر القِيض علي. تنهار باكياً بين يدي نادية، غير مصدِّقة. تُلْعن العاز، وتُلْعن الزَمَن، وتُلْعنني. تبكي خوفاً علي، وخوفاً من مواجهة أبي وإخوتي بقصتي. تنظر صوب العذراء وهي تبكي وتلومها: «هيك يلي بيوصيكي بولانوا؟»

فجأة يسيطر عليها الغضب عندما تخيّلني أَسْتَباح على أيدي رجال، فتقوم من على الأرض وهي تعضُّ اللحم بين رسلها وإبهامها كالمجانين، وترْكض صوب صوريّة تخرُجي وتَبْصق عليها: «وَلَكْ تَه... تَه عليك يا بلا شرف». ثم تَحُمَلها وتَقْرِئها إلى صدرها، وتسمحها وترفعها إلى وجهها، وتَقْبَلها بغصة باكية، وتقول بصنّاء: «واحد فاشل... صايع ضايع»

- ٧ -

.. ناولُني سيجارة.

يطلب عامر سيجارة من جورج الذي لم يكف عن الذهاب والإياب على أرض الغرفة الصغيرة، والسيجارة في يده لا تطفأ

.. ولا اناي ذبعتوا عيّننا بهالمنّان.

يبدأ مرثع الغور يتسلَّق الحائط.

أَحَبُّ جورج فرح ببيروت حتى الجنون، ويَفْضَ عشرات العروض للعمل في الخارج، ليكون قريباً من بيروت في فترة نقاهتها، ولكي يُرْسَم خطوطها الجديدة، ماحياً آثار الحرب عن واجهاتها.

حبُّه لبيروت لا يعايله إلا حبُّه لحسين.

يتذكّر جورج أول لقاء له بحسين منذ ثلاث عشرة سنة، حين كان جورج في الخامسة والعشرين وحسين لم يتجاوز العشرين من عمره. كان ذلك يوم خرجت عن الرمّة للاقاء الشياخ، بعد حرب ضروس أبعدت الأهل والأصدقاء بعضهم عن بعض أكثر من خمسة عشر

عامًا. في ذلك اليوم، في سوق الجمال، في الشياح

.. ولك هيدي إنتر يا إم علي.... عطيتني واسبك بوسو.

يا شكري... إم جورج! ولك إيه إيه، هيدي أني.

ترتفع زافوخة أم علي، في وسط السوق، وهي تفكّل أم جورج وتبكي.

.. هيدا جورج يا إم علي... بهيك فايقيلو؟ هيدا جورج.

تقرّيني امي من أم علي وهي تصرخ وتبكي: «هيدا جورج!» تُسك أم علي وجهي وتُسح دموعها به وهي تقبّلي وتعدك حجابها:

.. لّو علي بعدو عايش كان صار بعمرك. يا تَغْبِزني يا جورج، رُسْعَتكم سوا.

.. طوّلني بالك يا إم علي... هالحرب كانت وسخة علّ الكل. علي وأبو جورج وخّي ميشال هُني يَلّي طَلَعَتْ براسهم. راحوا رخيص.

.. هيدا حسين. قَرَبْ يا امي، سَمّ.

.. يضري لعين! حسين هيك صار؟ كَبِتْ بعدك بتمعلها بتياهلك لّا علّقْ الحرب

.. أنا جورج.

.. حسين.

.. تشركنا.

.. ولجن كمان.

يشير اسم جورج حشرة حسين: فهو لم يُقَدِّ سماعه. وكلفت انتباهه سلسلة ذهبية تدلّت من رقبة جورج، وتنتهي بصليب يستقرّ على صدره. ترتجف يد حسين في يد جورج.

إنّه الأحد، الأول من كانون الأول. تنطلق طريق بيروت - الأرض بسبب تراكم الثلوج، فيضطرّ الاثنان إلى تقاسم غرفة ذي سرير واحد في احد الشاليهات.

إنها الواحدة بعد منتصف الليل. يستيقظ جورج على صوت حسين يصارح لأخذ أنفاسه. أهى نوبة ريو؟

يأخذ حسين دواءه من يد جورج، فيتبسّ اهتمامًا زاد قليلًا عن اهتمام شابًا بأحد أصحابه. يستغرب حسين تصرّف جورج. يضغط جورج على يد حسين مشجّعًا، ففسري رعدة غريبة في يد الأول لتنتقل خجلًا إلى عيني الثاني.

في لحظات الصمت والرهبة تلك، يعود الاثنان إلى حقيقتهما، إلى مشاعرٍ مقلّ عليها في سراديب عميقة داخلهما.

ثلاث عشرة سنة مرّت برمشة عين. سكتا معًا، وسافرا معًا، وكبرا معًا.

يستيقظ جورج من أحلامه ليتذكر أنّه ترك حسين في البيت وحيدًا، متنزّعًا بزيارة أحد الأقارب، ليشارك في تلك المظاهرة التي باتت أوّل ظهور علنيّ للمثليين في لبنان. لم يُخبر جورج شريك حياته بانتماحه إلى تلك المجموعة نقاديًا للاق حسين عليه، وخوفًا من تازم حالة الربو لديه.

.. ألو.

.. جورج، حبيبي، ويّلكد عملكك الهاسنا وناطرّة. ما تتأخّر. وليك، جبّ معك قنينة نبيذ لآثر ما عاذّ في عكا. ويّق لمارك ذكرو بالعشا لآثر اكيب بكون ناسي. وكمان جبّ معك....

.. حسين، اسمعني.

.. شو!

.. ضب اغراضك وطلع لعند اهلك عالجنوب!

- ٨ -

يُشعل عامر السجاجة ولا يغيّر جلسته؛ فهو ما زال على الكرسيّ نفسه يداعب شعر ذقنه الأبيض بأصابع ثلاث، ويراقب مريض النور الذي بدأ في تسليق الحائط.

أسس الطبيب النسائيّ عامر جابر هذه المجموعة التي تُدافع عن حقوق المثليين في لبنان منذ ثلاث سنوات، مع عدد من الشباب الذين ضافوا ذرعاً بما يواجهه المثليون في لبنان.

في البدء ساعدته زوجته، وسانده ولداؤه وجميعهم يُعرفون عن ميله المثلية. وكان عامر يتنذر أمامهم قائلاً «مجتمع المثليين في لبنان عابر، عمرو ما رح يحبّل بالحرية». ولكنّه مع الوقت اكتشف أنّ مجتمعه ليس عتيقاً، وقد يتّجّع في إحصاء هذه الجمعية. صحيح أنّ هذا المجتمع ما زال مرافقاً، غير أنّه لم يعد يكتفي برعشات الحرية المسموح بها في النوادي الليلية والشواطئ والشوارع الخلفية لبيروت، بل إنّهُ مستعدّ إلى حدّ ما للمطالبة بحياة أكثر إنسانية.

عملت المجموعة على نشر التوعية حول الأمراض المنقولة جنسياً ومعرض السيدا، واكتسبت ثقة العديد من اللبنانيين وخاصةً المثليين الذين تكاثفوا حول تلك المجموعة.

ولكنّ تلك المظاهرة التي شارك فيها الستة، ممثلين مجتمع المثليين، ضد الحرب على العراق كانت خطوة جريئة عليهم تحمل عواقبها.

يُترق عامر في بحر فرضيته؛ فقد قشّحت تلك الخطوة الجريئة أروايا على المجهول:

هل سيأتي الدردل للقبض علينا مثلما أخبرني أحد رجال الشرطة المثليين، وهو يُقدّم في مخفر [...] بعد أن اتصل بي سرّاً؟ أم أنّ الدولة ستغاضى عن هذا العمل الهزيل، كتغاضياها عن نوادي المثليين الليلية في بيروت؟ أليكون قرآن بقائهم هنا، طبقاً سهلاً لرجال الشرطة، قراراً صائباً؟ هل ستتنتشر قصة القبض عليهم بين المثليين كالنار في الهشيم، فينتظمون عفويّاً في مظاهرة ثانية للضغط على الدولة من أجل إطلاق سراحهم؟ هل ستعي الحكومة اللبنانية أنها تحرّض على العنف ضد نسبة من اللبنانيين قُسرُها البعض بـ ٢٢٪، عبر التسامح مع العنف الناجم عن زعماب المثلية الجنسية؟ أوتدري المشرّعون أنّ إدانة الميول الجنسية المثلية، وإطلاق سراح المعتدين على المثليين من دون عقاب، ليسا إلا رخصةً شرعيةً للتعذيب؟ وهل ستتحرك منظمة العفو الدولية وجمعيات حقوق المثليين في العالم والمجتمع الدولي لنجدتهم، أم ستغاضى هذه جميعها عن خرّقٍ أخرٍ لحقوق الإنسان تعوّلوا تكراره في لبنان؟

- ٩ -

تُطلع حركةً مبهمّةً افكاراً عامر المتزاحمة.

يرتفع صوتٌ غريب أمام المبنى. يرفع عامر رأسه، وتتسع عيناه رعباً، ويدور نظره بين الشغسة مستفسراً ومحاولاً التأكّد من أنّ ما يسمعه ليس من نسج خياله وهذه. يُشهد صمعت القابرين من الجحش. تطرّق خطوات حائرة بلاط الدرج. تضع سنا يدها على ركبة مارك وتشدّ كأنّها تشدّ نفسها، وتشرّتب رقبته لتسمع بشكل أوضح.

يُشعر مارك بفرح غريب يداهم: أنّاه سيصبح «مُحلّص» المثليين، فيُفتّح لهم باب النور، ويقول لهم: «احملوا صلبانكم واتبعوني»، مفتخراً بالمجد الذي ستصنعه نقاط الدم من إكليل الشوك الذي وضعه المجتمع على رأسه؟

يقف جورج في وسط الغرفة ويدير رأسه صوب الباب، والسجاجة في يده تشتعل رعباً. يُهّس سلمان من دون أن يتقسم.

«شكّلن وصلوا. وانظروا!»

تزيد سنا من احتضان ياسر، الذي يكابر على نفسه كي لا يبكي، فتبكي سنا. يمرّ شريطٌ صوغيّ سريع في رأس ياسر:

لقد كبرتُ، وكان عليّ أن أغدو رجلاً. لكنّ أنوثتي كبرت معي. رُفض صوتي العيوي إلى عالم الرجال. يصغفني أبي على وجهي.

– بكك يقولوا عن إبني خنثي؟

ويأتي ذلك اليوم، يضع أبي المصدس في رأسي:

– اعطيني رقدن لأخو الشرمولة يأكُ كُتْ عَمَّ تَحْكي معو، أو بقوصتك ويخلص منك ومن وسخك!

أحاول التملص من قبضة أبي الحديدية على شعري، يرميني أرضاً ويركلني. أنظر بحنان صوب الأرض التي تبعد عني مسافة ثلاثة ملوابع.

– مهن رح خليك تفتلونني، أنا رح زِتْ حالي.

– ياسر، كجُرْ علك، نزال. ما عتاً غيرك، نزال.

– حلي عني، لو كنت ارامي عن جد، ما كنت خليكته يَمِيلُ في هيك.

صغرة طويلة.

– شو يا قشطة، بتنتا؟

التفت صوب ذلك الشاب في شارع الحمراء، وأبصرت على وجهه. اتلفتي لكمة على معدتي. انتقباً. يهرب.

– ياسر، اسمعتي، بصبك، وكل شي، بس ما في يشوفوني العالم معك، شو بيقولوا عني؟

يكتب لي أن أرفس مرتين.

يرتفع صوت التصفيق الحاد، ليصم الأذان في أرجاء المسرح الكبير. الأرض لا تسمعي. يرشقون الورود عند أقدامي، ويطالبون بالزبد.

انتفضي، وأرفس لهم كما لم أرفس من قبل.

– ١٠ –

يطو صوت حوار هامس أمام باب الغرفة الصغيرة. يُنظر سلمان إلى مريع النور الذي صيَّب على الحائط، ويُفرق في تأمل كائنه يصلّي للضرورة.

يُلقق الباب بقاتر مغمومة. صوت ملاك الموت يأمهم بالخروج. يتمللون.

فجأة تخلع الباب، ويُدخل عشرة من رجال الشرطة إلى الغرفة الصغيرة شاهرين مداخلهم الرشاش في وجوه الستة. تقف سناً لحمي مارك وياسر، فتلتقي الضربة الأولى من كعب بندقي أحدهم على وجهها، فتقع أرضاً، لينهال عليها ثلاثة رجال بالركل والشتائم. يصرخ ياسر ويقتف صوب النافذة. يمسك به أحدهم من رقبته:

– حاج تصرخ أحسن ما قوصتك، ولخلص منك ومن وسخك.

يُلفت ياسر من قبضته ويقتف من النافذة. لاحقاً بمريع النور الذي غادر الغرفة الصغيرة. يسود الظلام.

أصدر قاضي التحقيق في بيروت قراراً ظفياً بحق كل من الطبيب عامر ج. (٤٤ عاماً) والمهندس جورج ف. (٢٨ عاماً) ومارك ح. (٢٧ عاماً) وسلمان اش (٢٥ عاماً) وسنا ا. من التابعة الفلسطينية (٢٤ عاماً)، وذلك لإقدامهم في تاريخ كذا وكذا على ممارسة اللواط والدعارة. كما لقي الدعوى ياسر ك. (١٨ عاماً) حثفه حين رمى نفسه من الطابق الثالث منتحراً خلال عملية المداومة. هذا وقد طلب قاضي التحقيق إنزال عقوبة الحبس لمدة سنة لكل منهم، وذلك عملاً بالمادة ٥٢٤ من قانون العقوبات اللبناني.

يستفيق سلمان من تخليه لنهائيتهم على صوت الطريقة الأخيرة على الباب.

- رَحْ إِفْتَحْ... إِنْتَبِهْوا.

يقول عامر وهو يأخذ نفساً عميقاً، ويُنْهَضُ لِيَفْتَحَ البابَ يَفْتَحَ البابَ. تقف امرأة أربعينية تحمل ولدًا على يدها، وتُمسك بأخر تُطَلُّ من خلفها وجوه أربع بنات تتراوح أعمارهن بين الحادية عشرة والعشرين. تضع الفتيات مناديل بيضاء لا تُظْهَرُ إِلَّا عَيُونُهُنَّ الكجيلة. تتزاحم الفتيات الأربع ومن ينظرن إلى الداخل، يتهاوسن ويشحكن ويتزاحمن لرؤية الـرُعب في عيون الستة من خلف أمهن تعمل المرأة الأربعينية منديلها الأبيض الذي يغطي رأسها ونصف وجهها:

- فُلِّي، كَسْنَلِي، بيت أبي قاسم عبد الباقي باي طابق؟

- علّ الأول.

- يَسْلَمْ دِيْنَاكْ.

ينقسم الطفل ذو العينين الزرقاوين لعامر، ويمد يديه صوبه كأنه يريد معادرة حضن أمه لكي يُحْمَلَهُ عامر.

يُفْلِقُ عامر الباب.

- قوموا روحوا ع بيوتكن. ما عاد إلها مَقْنِي نَضَلْنَا هُوْن.

- فَوَلَكْتْ مِشْ رَحْ يَجوا؟

- عل القليلة مش اليوم.

بيروت

في العدد القادم:

■ ملف: الشباب والسياسة (١): المغرب

■ قصص: فدوى القاسم، أياد البرغوثي...

■ قصائد: ميلود لقاح، محسن أخريف...

يوميّاتٌ عَجَلَى لعاشقٍ منفيٍّ

أحمد عُلبي



تصوير: عادل ميناوي

وُلد الدكتور أحمد عُلبي في بيروت عام ١٩٣٦. من كُتّبه: ثورة الرّنج وقائدما عليّ بن محمد (١٩٦١)، الإسلام والمنهج التاريخي (١٩٧٥)، ثورة المبيد في الإسلام (١٩٨٥). وله في الحقول الأدبيّة، تحت وسادتي، مقالات واعترفات وذكريات (١٩٨٦)، في حنايا الوطن الملم، نزّهات وحكايات (٢٠٠١)، كما صدر له كتاب يوميّات مجنون ليلى (٢٠٠٣)، وهو معالجةٌ معاصرةٌ لمسيرة الغرامية الشهيرة. وله كتابان عن طه حسين، طه حسين، رجل وفكر وعصر (١٩٨٥)، طه حسين، سيرة مكافح عنيد (١٩٩٠). عمل أستاذًا للأدب العربي الحديث ولنهجية البحث في كلية الآداب بالجامعة اللبنانية. كما شارك في التّأليف لدى المركز التربوي للبحوث والإنماء.

١ - الشاهد الصامت (الأحد ٤ تموز ٢٠٠٤)

تحضّنتني الجبالُ الحانيات، لكنّ حِفْظَكُ أحنّ عليّ، يا سُلّمي. هذي الجبالُ، بسلاسلها المتراكمات للقطاعات، كانت جنتي وولدي؛ فقدت، الآن، جنتي ومنفاي! أنامُها، صبايحاً ومساءً، هذي الجبالُ التي تمتدّ شامخةً من البيدر إلى الدير، قصّدت من «ضهر البيدر» إلى «دير القفر» - وهل للبيدر ضهر يستند إليه، وهل للقفر دير لويٍ فيه؟

بيدّ أنّ الطبيعة، على روحها وجلالها، تتخلّلت، تضمّك بين حناياها، تُصغي لنشيجك الفاني، تشكّل قلبك وأُذُنك بأعذب الخريف والأحمان. لكنّها شاهدٌ يستعصم بالصمت؛ لكأنّه صمتُ الأديرة، حيث يخيّم الهدوء المريك في كلّ زاوية، وحيث تنبعث من الجدران، الرراشمة بالخشوع، عناقذُ الزمان. الطبيعة شاهد يُزكّ شفّته صامئاً، حيادياً.

٢ - فيضان النعمة (الاثنين ٥ تموز)

مشتاقٌ أنا، في منفاي السعيد، لبُحّة صوئلك، لأناملك التي لا تُملّ الداعية ومعادنتها والجري على باطن كفيّ لمساً ونقراً، لكأنّها كتابٌ مسمارية تقنيّتها وتُغرمين بها. محبوبٌ أنا في حياتي، ولربّما أنا موضعُ حمدر وبغيرة. فلا أرتاب في أنّ كُتّيرين تعلموا، ولو نوالٍ نطرق حنايتهم من نبع ناظرٍ وكيّ؛ ولكنهم أبا محملين بالخيبة والحسرة. فكيف لا أستعصر، مفتبلاً، أنّ القفر، إنّ منحي حبك قد افاض عليّ نعمةً لا حدود لفيضانها.

وقد تقولين لي عاتبةً: اتقول: مفناك السعيد! لكنّ قلّت غير هذا لقد وقعت في الكُتْب والمراوغة، فالجبل، حيث أصطلق، هو جنة أقرّ دائماً بفضلها عليّ. فأنهضُ الصيف مرمقةً في بيروت، تستحيل معها القراءة والكتابة. وأنا لم أحب يوماً كلّ ما هو

أصطناعي، سواء أكان زهرةً أم عاطفةً أم هواً، أمّا في ربيع جبلنا، فهناك النسيمُ بلافته، والمناظرُ الطيعيّة بروعتها؛ وهناك هذه الفرصة المتاحة لأنّ أبتكر أشواقَ عاشقٍ منفيٍّ!

٣ - داءٌ لا يشفاء منه (الثلاثاء ٦ تموز)

اكتب إليك، الآن، يا سُلّمي، وبأنّ ينادي على بضاعته. هو أتم وقد حَمَلٌ «فان»ه، القادم من «البقاع»، أو من إحدى القرى المنتشرة هنا وهناك، في حنايا جبلنا المعطاء، حملٌ بخيرات لا ألدّ منها طعمًا ولا أليّب فوحًا: خوخ أحمر، ينوب في الفم؛ دراق نُضِر، حلو المذاق؛ بذنورة جبليّة، كبيرة الحجم، والتهاشها هوايتي الدائمة؛ بصل أبيض، حلو الطعم، صغير الحجم مستطيله، كاصابع البويو...

وقد تقولين لي عاتبةً: حنايُك، يا حبيبي، وهل صارت هذه الخيرات تشغلك عليّ، فتفرّق في وصلها وكأنّها موضعُ فسْخَفِك، وحطّ غرامك، وسجلّ غزلك! يث في خبّرت من أمري، يا سُلّمي، فاني كلام إيجائي وودي، ينعدّ حول امرأةٍ ما، يرميك في فيثرت واضطراب. ثم تهدئين وتعترنين، لأنّ الطبيعة أوطأ عندك، وهي دائماً غلابة، برغم عاصفة الغضب والحقّ. فهل أصبحت الفراكة أيضاً، يا عزيزتي؟ هل أصبح البصل من «بريج» والبذنورة من «درويسة البلوط» والدراق من «الدرريس»، والخرن من «المشرفة»، وكلّها طيبة وشبيهة، كما أعرف وتعرفين: هل أصبحوا غُرماء لك ومنافسين؟ حقاً، الفيرة صعبة، وعلاجها أصعب، بل قلّ، مستحيل.

٤ - رسالة بالالمانية (الأربعاء ٧ تموز)

اكتب إليك وعنتك دائماً، قبل الظهور؛ عندما يكون البال صافياً، وأكون قد شربت الماء البارد، وارتشفت القهوة الساخنة، وقلّت

في نفسي: ما أجمل الحياة وما أرقها! «ارتشفت»، هذا الفعل يحلو لك، كما أخبرتني ضاحكة: فانت تكتشفين العربية معي، وتقفين عند بعض أفعالها ومفرداتها طويلاً جلياً. وعندما تهاجمن العربية، لأصرافك إلى الفرنسية، ثقافة وتعليماً، أعاتبك، لأن في الأمر تنديداً ضمنيّاً بي: فانا ابنها لحاً. وهذا يحتاج إلى شبر، إذ نقول: هذا ابن عمي لحاً، أي القريب للزم. ثم إن التفرد من العربية مردّة، ببساطة، الجهل بها، والوضوح طويل، وليس الآن مجاله، ومرحى، في المناسبة، بالأفلام الكسبكية وامثالها؛ لأنّ البلجة باتت موقفة في لبنان؛ ثم هذه الأفلام – وهذا بيت القصيد – تعلم العربية الفصحى على نحو مقبول وجميل.

استمع، بأنشراح، إلى سوانة «فؤاد إليز» لبيتها. هذا الجرمانى الكبير كم هو مبدع في أعماله السيمفونية الصنّابة، وكه هو مبدع أيضاً في سواناته الرقيقة كجدول متراكضة. أقول في طويّتي: لعلّ سليمى تُصغي، الآن، إلى ما أصغي إليه. وقبل صمعدى إلى الجبل أخبرتكم أنّي خُطّلتُ لك رسالة بالالمانية، وعندما التقيتكم أهديتكم تسجيلاً لطيفاً لسوانة بينهون «فؤاد إليز» وكتبت على إتيك، فوق غلاف النيلون الضارحي، الرسالة التالية: فؤاد سليمى (für Sulaima) وقلتُ لك أنّي أحبّ الإيجاز، فهو عُنوان البلاغة عندنا، وضحكنا، وقتلني، ما تردّدني دائماً، مانحة، على مسعمر: «محتال، مقلع موهن»! أنا إحتمال لايت الهجة في رويك، يا هبيتي، ولأشاهد البهمة الجميلة تشبّع من فكر وعينك، لك حبي واشتياقي.

٥ - هاتفُ يرنّ (الجمعة ٩ تموز)

لا يُمكن، يائي حال، أن أنسى ما أخبرتني به البارحة، ونحن نُصفي اليوم في السباحة والتشمس. لقد قلتُ أنا كلاماً كثيراً؛ فقد فاض بي الشوق، وكان في فمي حديثٌ ومحفّاتٌ قولٍ وطرفٌ وتعليقاتٌ وعُزّاراتٌ؛ فانا هابطٌ ببيروت من منافي الجبلي، وويدي أن أفرغ مخزون لوعتي واشتياقي. لكن كل ما نطقت به، على مدار الساعات الست التي انقضت، ولم نشعر البتّة بجراحنا؛ لا يوازي جملةً فائتةً نطقت بها، يا عزيزتي، في دور وبخطة: كلّ مساء، في العذرا الذي من أودعتنا أن نتهاون فيه، اتصل بك، في بيروت، وانا عارفة تماماً أنّ لا أحد سيجيبني! جرس الهاتف يرنّ، وانا أصغي إليه في هذه الليلة!ء

راضة أنتي، يا سليمى، لا نظير لك في رقتك ورهافة عواطفك وبراءة أحاسيسك. انت من النوع الذي يُعطي بكليته، لا يفكر بمصلحة أو عاقبة أو مكسب. انت روح بلورية، شفافة، صافية. وحتى في منبهات غضبك المكثوم أو حرّك الانثوي، تتبدّين طيبة، غير عدائية، مشبعة بالغنى للتصالحى وبالإلوة العميقة. أنتي، من صميم قلبي، أن أكون جديراً بحبك، بلهفك، بمباركتك الدالة على المرافقة، وقد تخيلتُنا هذه السن منذ زمن بعيد؛ ولكنّها، ههنا، مرافقة نابعة من السخاء الكلي لامرأة؛ حينها سوانة حلة، وصداقتها وفاءً وانداغاً وشميمٌ حبيبٌ وبهاءٌ قرطاسية!ء

٦ - زيارةٌ لبيت شويان (السبت ١٧ تموز)

ليج بي الشوق، وقرعت صديري، ليس كهؤلاء الذين يُقرعون حزنّاً وأسفاً على الماضين، وإنّما لأنّي متخبرٌ ملتان. وخلال هذا القرع بحثت عن قلبي الذي يقع بين الرتتين، ويميل نحو اليسار؛ وهو ميل قديم عندي، متصلب في الفكر والوجدان، ولا رجعة عنه. ولم أَشعرُ على قلبي حيث ينبغي أن يكون؛ فقد تركته في يدي، أخذته سليمى واستلّثت به وحُثّت عليه. فانا جسد قد ضيّع مسجته، يمضي في الجبل سهلاً بين العقول، ينظر في الأفق كأنّ يندكر أمراً مبهماً ولا يقع على حبيباته، ويُفكر في السير كأنّ يلاحق فكرة عثت على خارته ويأمل في التقاطها قبل أن تتبدّد.

من حسن الحظّ أنّ شويان، بعوسيقاه الحالية المناسبة، التي يُنظر عازتها بخفّة وسيمولة أصابع اليداني، شويان البهلواني، الممتحن خُباً وهُياماً، يخفق وخشنيّ الجبلة ليظهر كنتي معي عندما زرت، ذات عامٍ سالفٍ غابر، وكنتُ ههناك لم أبلغ العشرين بعد، زرت بيته وأجلّستُ البصير في البيانو الذي استخرج منه أعذب الأصان، وهومتُ ألتخصّص اثاث منزله وجدرانه وسجانيده، وكنتي في غرة حلم زام ولكنّ أنّى لك أن تكوني معي في ذلك الزمان؛ وكنت طفلة، تدرج مزهوةً بمعالمها ولُحُبها وفساتينها ودار اللولاب وانطوت المقود، ثم التقينا؛ وانفرد الخفّاق، وماجت العواطف، وانتهت الأحاسيس، وكما يقول إمرسون، في أطيّب القول: «من يحبّ لا يُهرم.»

٧ - أنا حزين أم القهر: (الثلاثاء ٢٠ تموز)

انا، في منفاي الاختياري، اتلّوى على نار الشوق والحزن غابت سليمى عن أفق حياتي؛ فلم تعد البيوت الجميلة بصورها الفصيح، وقُرميها الأحمر، وقناطرها الزرقاء، تُفويني. لم تعد الأجمات الخُشتر، والُفُسحات الصُفّر، والدروب المتعرّجة، تستوقف ناظري وتبائيتي. وهذه الجبال، قريباها والبعيد، هُبيها والمتواضع، مكسوماً والأجود؛ غدت مجرد سلاسل، تسدّ للذي الشرقي، فكلفتها ستائرٌ عملاقة، تحفي عني ما قد يكون رايها من سرٍّ وقُصار. ويات القهر، الذي يطولها، في الليالي الساجية، أو أنّ اكتماله وقُوه، وجهاً شاحباً، منقفاً، يطعّ من وراء هذه الجبال، ويمنطق مرتفعاً في أعالي السماء. لرى ماذا حلّ به، وعلمنا هذا الانصراف في وجهتيه وعودي به، من قبل، فسُتّر الثغر، بسام الوجه، حلو القُسمات، أنغمه حزنٌ، أم أنّ الحزن يستوطن في مُفكّتي؟

وهو منقّى، كما أسلفت، اختياري، أمثته عليّ الحاجة الماسة إلى مكان يتفتّى فيه عرقٌ يتصبّب من الجبين، وينساب غزيراً من مسام الجسم؛ خلال فيلر بيروتي مقيت، بحيث تستحيل الأفراة والكتابة – وأيّ معنى إحصائي من دونهما؟ ولو أنّ الحال أيام معدودات، لهان الأمر؛ ولانفتحت الحاجة إلى هذا اللغفي؛ ولكنّه فصلٌ باكله، إذا لم تُعد إلى هذا الحلّ ثلاثي عقابيه، فقلتُ (سابع الصيف ضجراً وتلعماً وتُسكفاً على أرضقة الغامي ومُخرّاً التفتّح الصديق الشاعر جودت فخرالدين، وتماقنا بعد

للخزية. ناس لا يدرون ماذا يظنون بأولام متدققين، ويسمعون إلى اللوانع والروابط: وناس يتحركون إلى طلعة ولدرزاق، ويصارون كيف يحققون مبتغاهم العزيز.

ولكن القمر البهي صار قرص عسل فوق رؤوسنا في مصوّر، ونحن نسمّر مهتجين بالليل الطري، والرفقة الطيبة، والمالك اللذيذ، وبضيافة حسنّ، السحمة وأطافة «سمر» السخية، وقبل ذلك كله نسمّر بالعود، عود الصديق عبد الحفيظ عمر، نصيف قرن، أي العود: أما العود فخبير زراعي، يذهب في آذار إلى اعالي بلاد جبيل، يتفحص التفاح والكرز، ويصفي لتفصير الماء في «القاء»؛ ولكنه، فضلاً عن ذلك، خبير بالأحمان والموشحات والألوار، حيث «الوصمة لا تكون إلا لني». وبعد الحفيظ يحتضن عوده ويصنع أولاته، ويشد: «عندنا باتني المسا وجرم الليل تُنثر» «جفّة علم العزل»... مستحقاً السهرة، عند الوادعة والنصف ما بعد منتصف الليل، براعة عبد الوهاب «من غير له» الوادعية: «خاف طيور الحب تهر عشها، عشها، وترحل بعيداً» وتلت أبحث عنك يا سليمي. اعرف أن الملك كان سيسرور! واعرف أن العزف والغناء كانا سيخلان قلبك، بيكأنه الفرخ والمتعة: واعرف أن وجهك المصوب كان سيحتلنا انطلاقاً وابتهاجاً، وستبهر الرجل منك جثك، كانت تخلصني منك بعض الأودية: فأنا في «صوفر» وانت، مع الوالدة، ثمضيان، نهاية الأسبوع، في «بكيا». غير أن هذه الأودية ما كان لها أن تُجذب عن ناظري وخافتي، بسمتك الساحرة: فهي تفتزل ما في روك من مصفا وبراءة، ومن استعداد فطري للون والتضمسية. ابتسامتك عنوان لك، رسالة وأه، نداء يُرْسَح بالطف والظرف.

١٠ - دوراننا في؟ (الثلاثاء ٢٠٠٤)

البارحة، مساءً، طلع الرادي، الفاصل بيننا وبين السلسلة الغربية، بضباب أبيض كثيف. لكأنه مساء خريفي نموذجي. غير أننا ما زلنا في فواتح آب، هي ساحة مزاجية للطبيعة، في نظرك المتألق؛ ولكنك في نظر العارفين، ساحة لا بدّ منها لفضج التين والعب. وهل نسبنا لكل الشائع: «آب طباخ العنب والتين»؟ واختفت عن ناظري أضواء «مجدلينا» تماماً. ما هم ليس لي فيها نديم ولا حبيب. على أنها باتت تعني لي شيئاً: فإن بعض فتيان «فتيات مشائبة»، الذين نالوا شهادة البريف، هذا العام، سيمشون شطر مجدلينا لولوج ثانوياتها الرسمية، بعد أن فرغوا من التعليم للتوسط في مدرسة البلدة. ذات الاسم الذي يبتدئ ولا ينتهي، لذا اختصرناه، ذات كتاب سالف، على الطريقة الفرنسية: «مشمّر (مدرسة شائبة المتوسطة المختلطة الرسمية)». وأخبرني «نضال» - ذو العينين المتسائلتين على خرق وتهذيب، وقد جلب لي البارحة إلى البيت بعض الأغراض التي ابتعتها عند فارس: فكيف لي، في هذا العمر، أن أحمل بطيخة خضراء كبرى مخفلة كجك أحمار الوحش، ولو أن امرأ القيس نجحها لعشوقاته، لتخفى بجلاليتها وعرج على ذكر وزنها الثقيل - أخبرني نضال، ووالله طراش، أنه ذاهب إلى مجدلينا الموصلة

طول غياب عن بعضنا؛ ونهضت جسمي لأصل إلى خديّة؛ فهو من بقايا رماح قبيلة ستمّرها، وسلفي ما بالي غائباً متوارياً؛ فاجبتك أنك تواظب على نول يومي في مقهى البحراء، في حين أنّي لا أغشى البتة هذه المقاهي الرجالية.

٨ - أي سرّ فيك؟ (السبت ٢٤ تموز)

أقول لنها امرأة من ذهب، سليمي هي؟ هذه الإنسانة، المتربعة عيشاً ولبها وغيرة، تُحذّر لي، وترميني في ثوار من العجب والإعجاب. نحن، عموماً، في عصر الأناثية وحب الذات والناس الساعين لتأمين أغراضهم ومصالحهم، وبعيدهم فليكن الطوفان. وحكاية أنّي استفتحت، فلتذهب إلى مكان جاري، هذه من مآثر الزمن العقيق الذي لن يعود. وتعال أزيك أنتي أو بنتي، هذه براعة قصص الحب الحياة الاصطناعية المجدبة؛ وعندما تُنثر، اليوم، على امرئ مسروق، ذي لفتة، ينضج بالود، ويغمر من حوله بالرفقة والدمامة: تخال أنك وقعت على كثر إنساني نفيس. فكيف إذا كان هذا المرء امرأة تتحلّى بتلك الشماخ، وينضاف إليها ما تفرّد به حواء من نظم وتلقائية وجرأة؟ وسليمي عجيبة من هذا الذي تقدم كلّه: قد رفقها الأيام فجلتها تدب وداً وإخلاصاً، ومكنيتها التجارية، لكن الطبع الذي فطرت عليه غلب عليها مائل، فهي تمّد يد اللون لكل طالب، فكيف إذا كان له في قلبها موضع يترجم فيه ويسلم؟

فيل البارحة، وكلّ خفيص، فقد أمضيتها في البحر تنقلب بين طيات أماء المالح، والشمس تلصع وجهي وكفّتي، ونستغرق في شحور وكلام حلو ويكأن قارصاً وتعاير طيارة. ثم أوصلتني سليمي بسيارتها إلى منطقة المتحف، عند الخامسة مساءً: حيث أخذ الفنان الذي يقطن إلى «عاليه»، ومن هناك أخذ فائداً آخر يمشي في البلدة الجبلية التي أصرف الصيف، مانثاً، في روعها. وودعتها وركبت أحد الفانات المصطفة، منتظراً لإقلاعة. ولكني لحت سيارتها مجدداً تعادي صف الفنان، ثم ابصرتها ثالثة وهي تبحث علي لتلمسني إلى أي أمتت مقعداً في فاني يُخضعني إلى الجبل: لوحت لها وقلت في نفسي: هذه امرأة لا مثيل لحيثيتها ولعواطفها الجياشة. وهي تفعل كل ذلك بانفراج طبيعي عوفي: كما يُنَعّ النهر مياهه، كما تنثر الورد أريجها، كما يُنهضن الصنوبر، ذو الألوان الجميلة، بتغريده الرخيم. أي قوة محرّكة بيبة تنفصلي، إلى سليمي، إلى إتيان هذه المواقف: أي سرّ انطوى فيك واختبأ؟

٩ - «من غير لي» (السبت ٢٦ تموز)

كانت الليلة، البارحة، قمرًا، فهو قمر أربع عشر، رغيّ سم، منقوش عند طرفه اليسر. شامدناه أبيض فوق السلسلة الغربية، ونحن نخرج، حوالى الثامنة مساءً، من اللذات في «شائبة»، حيث «أيم» يتقبل التهانى بزواجه الجديد، فهو متأهل منذ خمسة عشر عاماً، ولكنه لم يُزج بمولود؛ وعندما تزوج أخوه الأصغر وجاءه صبي، دبّت الحمية في روح أيم وتعطش

النراسة: وأنه يتنوّى، بعد الثانوية، التخرّج في المدرسة الحربية. فقلت في نفسي: عساه يدخل في بلد الطوائف والكثبات.

وقد تقولين، يا سليمي، بعد مطالعة ما تقدّم، عبارتك الإنكليزية التي ترجمتها: "so what?" أو قد تتحدّثين بعبارتي من أغنية داليدا، الغائتة، التي تأتي فيها على ذكر سوباج وكوري عيّاس: ورنّا إيه؟ ورنّا إيه؟ أذكر حينئذٍ، والناس أصابعي، والطبيعة سُهرًا وراية عن جيّشها لها، بروج واحة لا ينطفئ لها غليل. كنت البارحة شاحصًا، طوال فترتي من الليل، إلى الضباب المكثف، متدبّرًا بالضباب، وقد سُفّني الشوق ورجّ بي الحنين إلينا. وإذا كانت مجدينا متوارية، لكأنها غير موجودة في دنيانا؛ فانتري في خاطري تملّحن عيني وتخطّرين في وجداني، وقد ملكت سُطيًا وقيادي. بلى، أنا عاشق مغني؛ ولكنّي أَلَم بخيال شخص استحص، بواسطته، فُكرًا الضاحك، ووجهك للضي، وننايك العذبة. وأطلّنت من الشرفة، بعد أن خلطت هذا الكلام، فطالعت في الشارع امرأة تحمل مظلة مزركشة تغلب عليها الزرقاء، من أعّ الخيم يخيّم على الجوّ، فقلت متسائلاً: أبها من حاجة نظلة صغيرة، وهناك في كبد السماء مظلة غيم عظيمة الحجم، فانتري فاترة الحظ!

١١ - صورة (السبت ٧ آب)

ما لي أبصيص، وهل من رجل لا يفعل ذلك، إنْ سمحت له الفرصة؟ فقد رَوّنتي سليمي، قبل صعودي إلى الجبل، صورة لها، كبيرة الحجم نسبيًا، وفيها تجسم ابتسامه مقلّبة، تُشَفّ عن حلالة واقتراد؛ وتبدو استنصاحها البيضاء اللؤلؤية، وشامخة على الجانب الأيسر من ذقنها، هناك من أضري أكبر حجمًا في أعلى جيبيها؛ وفي الأُكُنّ قُرْطَان مخطّطان، على مألوف عاداتها، أحدهما، في الآن المُني، حلقة دائرية، وفي الأُيسرى فيروزة زرقاء سماوية، تلتصق بشحمها. وشعرها الأسود، الذي تهز رأسها لتسويته، وتخلّكه أصابعها، يترجّ هامتها؛ على أنّ شُفّرات فمها قليلة بدأت تُخطّط. تردّي جاكنت زرقاء، مزركشة بخطين عُرْضية طحينية اللون، وهي من نوع قمماش الجينز؛ جاكنت زرقاء، وراحا خلفية خضراء، وهناك وشاح بيدي يلفّ حول رقبتها، ويهبط معقوفًا على صدرها؛ من غير أن يصحب أعلاه عند الرقبة، حيث البشرة مدموكة بالطيب ملكة بالورد، ترتبها قِلادة ذهبية صفراء لاسدر، نزيّ لُتير نهمي أبيض، وهي باقوتية حمراء، وتضحك سليمي وتقول مصحّحة: "من مصر"، وهي قِلادة تتقلّى من عِتر أصفر، يلفّ حول الرقبة. لستُ أشأّ إنْ هويت هذه البقعة، وتلّقتُ إليها شَمًا فمضًا. ما لي تحدّث عن أشياء، وتجاوزت العينين، وهما أحد كامن الجمال عند سليمي. وأحان من العسل، تُرشّحان حناثًا، وتفيضان حيًا دالًّا، ووعًا حارًا باللقيا. لهني إلهيما. لهذا اجنبي مندوبًا، وقد وضعت صورتهما، التي أعنتي إياهما، في آخر اللفّ الذي يشتمل على هذه البويميات، إلى أن أبصيص لاستيديها في عيني المتلفّتين، والكلمة «أبصيص» عامية، ولكنّها غتت شائعة مغترة. وربّ مغترة عامية تنوب، أحيانًا، عن قِطَار كلام فصيح

الجوّ من حولي يغشاه غيمٌ رقيق، يحجب الشمس من حين إلى حين، ويتشّرب بربوة خفيفة يندّ للرمّ الانتعاش بها. فنحن في أب اللهبّات في بيروت، ولكنّي أعرف، يا سليمي، أكثر تركت العاصمة، كما تطفين خلال الورد أنه من كلّ أسبوع طوال هذا الشهر، وتذهبن إلى أحد المصايف في المدن الشمالي، في حين أنا حالٌّ في أحد مصايف المدن الجنوبي. أحصل هذا الغيم تميّاتي وقبليتي، لهله في زهف ونقله، عِزُّ الأودية، يحطّ عندكم، فيلّ الحمام للزّاجل في سالفات الأيام. عساه فاعلًا، وعساني مفتبلاً بهذا مجبورًا.

١٢ - كشاعر باحث عن مطلع (السبت ١٤ آب)

نفسى مترعة بجيشان عواطفها والأفكار. من أين أصل برميّتي هذه؟ في الصباح الباكر، وأنا أتذكر ربوب نو شمبر مشدوي، صنّع الشقيقة، شاهدت ورقّ العريش وهو يهتّر، مع الهواء البارد المنعش، كغراخ مدعورة، الزنجبية المليحة تنسقي برشّتها مساكب الخنع والبقدونس، الرّجّج والحقنوني، ومع أنّي كنت مخطّطًا، اليوم، للعمل في إنهاء الطبعة الثالثة المُزَيّدة والمجدّدة من كتابي القديم فورة الزّكّ، وقادتها عليّ بن مصدّ، إلّا أنّ داء الكتابة الأدبية لا فكاك منه، وهكذا نخبت الكتاب وانغمست في هذه اليومية. ومع هذا أنا أتحدّث عن الصبّية الزنجبية، والغالب أنّها سودانية. كم هم جميلون وشيّون ولطفا، إخواننا وأخواتنا في السودان العريق، وأخبرني الصديق «كامل»، الذي يعيش مع زوجته وبراعمه التي تعمل هناك، وهو الآن بات يعشي الهويّنا، إثر ضريبة شمس حصدتها تحت سماء السودان؛ أخبرني كامل أنّه لم يبق في السودان إلّا الأطلال، من أنّ هذا البلد العربي هو من الفنى الطبيعي العجيب، بحيث يقولون إنّ عمود الكهرباء الخشبي هناك، يفرّج، بفعل الرطوبة، غصصًا أخضرًا! لقد أتى على السودان السكّر، فيلّ الجراد في حقل مزهر. ونكرني هذا بمسرحية الخال هانيا للكاتب الروسي الرائع، أنطون تشيخوف - وهي عمل ترجمته، غيّ تخرجي في الجامعة، وفي مطوّق بين أوراقي - فإنّ الطبيب «استدرو» يتقدّم، في الفصل الرابع والأخير من المسرحية، من خارطة لأفريقيا معلّقة على السائط، ويقول بشكل رمزيّ: «لأح: ينهني إن يكون الطقس حارًا، خلال هذا الوقت، في أفريقيا هذه، على نحر يقطع الأنفاس؛ إنّه أيضًا نصيبنا النّفس، من عسكرنا للمشرفي، الذي أكل لحم أوطاننا ورومانا عظمًا في العراق، ولا من يحمينا ولا من يسال عن ويلاتنا.

جارتنا، ذات الشعر الأشقر، وتمييص النوم الورد، تنشر اللوخية، عند حافة شرفتها، وتلقبها بين أصابعها، بفرض التجفيف، لهاها تهويّ المؤونة. وحسنًا تفعل، فهل هناك مذاق أطيب من مذاقها - أقصد اللوخية - وخصوصًا عندما يُضاف إليها رذاذ من حرّ ناعم أحمر؟ لقد التهمتها البارحة عند الغداء، وما زالت في حلقي وشيبيتي من طوبيتها طُوف. ثُرّة النافذة، ثباتنا، ذات الخشب الطيّ بالدهان الأحمر، يفتحها الهواء، ثم لا

يلت بعد قليل أن يُلقها، فحيدو كُفَسَ خَيْرِي. أما أنا فاشبهت
بمَناء معلق فوق مَشْجَب، يكاد يسقط أرضاً. اتفقد سليمي، فقد
باتت جُرْأً صميماً من معاشي وتفكيري. شوقي إليها كشوق
الأرض العطشى إلى الريّ، كهلعة الزهرة إلى أن تكون مذابة،
كقطع المقبر إلى الخلف والحنان، كشاعر باحث عن مطلع يجي
ولا يجي. هذه امرأة تحبّ إليك الحياة، وتَحْمِلُك على أن تلج
خُرُوبها مفتيحاً نثوان. يا امرأة جلت عن مجرى حياتي، وسكنت
فيه الكثير من حُبِّك وحلاوة ضحكك وخضارة لَفَتَاتِك، بِت أسير
حيك الجميل. والربعة فيه أُنْجَبَ متبادل على خطيئة ولو أنّ
على خطيئة، ومن طرفه، لقد وهبها واضمحلت عند أول غَلَب.

١٣ - الفَرْجُ أَتَى (الأيام ٢٢ آب)

أُصِدَ إليّ، يا يوسُفاتي، صَدَيانٌ ملهوناً. لم أجهز، وإنّما
الظروف، ظروفُ الانتماء في طبعة ثانية منقّحة ورَنيّة لكتابي
العهد السَريّ للندوة العباسية، وطبعة ثالثة خَزيّة ومجدّدة
لكتابي القديم، الذي عرّني به الكثيرون، ثورة الزُكُج، وقائدها
عليّ بن محمد؛ هي التي صرفتني غُلوً، عن الوصال مع
سليمي، غُلوّ هذه اليوميات، التي غدت وتيرتها أسبوعيات
ولكثي، اليوم، وجدثني عاصياً، متمرداً على كُتُب التراث
والتاريخ؛ فسأكنها، أنا، مني مرتين: الأولى، لاستغراقي في
للأضي وحديثاته وإشكالاته، والثانية، لأني بعيد عن سليمي،
أقنأت الصبرة وأكاد الشوق. ثم أعزّني للفنن أن زمن المنفى
لم يعد طويلاً؛ فهذا أن يكاد يقضي، وأيلول على الأبواب،
وما هي إلا مُضْعَمٌ من نزول إلى بيروت والخرج، حتى يحلّ
تشرين بيهاجه، ويلتئم الشمل مجدداً، ويقرع جرس المحبور
والأفراح. فنعاود الهلوس في الأمكنة الأثيرة، ونغشي صالات
السينما، حيث نهرز مع أبطال طُرُودة المحاصرة الصامدة، ومع
حكايا الحصان الشهير الذي جلب الهلّ لها والاستباحة
والنقتيل والنهب. وهي بروفة قديمة لفصل تتكرر مشاهدته، في
زمننا الراهن، مع الصروب الأملية ومع الضُكَل الإمبريالي،
الأميريكي بامتياز. والملك أرش ما برح ينتظرنا، لنشاهد مثّره
الحربية وغرامه العنيف.

تذكّرني، يا سليمي، الفيلم المنعقد حول التعذيب في الأرجنتين،
في عهد الجنرال أتا: لقد شاهدناه في الأول من حزيران
المنصرم. وبخشنا من الإيجاب تلاقى مع الإيجاب بالعلم الفني
وبالمضمون الشائق؛ وإن كان ليس جديداً علينا، فتاريخنا
العربي المعاصر صفة تُظَر دماً ويعلو منها الضجيج والصراخ.
خرج الاستعمار، وحظنا بالانقلابات والسجون وفنون التعذيب
والاضطهاد، حتى صار لنا أدبٌ شبه جديد هو أدب السجون،
ورواية شرق المتوسط للرحمن منيف مُطَرّة في جدول نقّاق.
دوشك، من فرط الغيظ والذهول والمهارة، نحن إلى أيام
الاستعمار؛ لأنّ ظلم العسكر من العشيرة والأهل أشدّ مضاضة
من جلافة السعاليين والأستراليين. ويستحقّ الكواكبي، هذا

الحالي الأشم، أن تُلق أسمة على شارع في كلّ مدينة عربية،
لأنّ تبنّي للاستبداد وبفاعيله على جميع الصُعَد، منذ عام ١٩٠٠
وهو العام الذي يارحت عائلتي، غلبي، لمشق لتستوطن بيروت.
وفي هذه المدينة، المتفردة في طول الوطن العربي وعرضه، وكُتُ
في الأول من حزيران ١٩٦٦، وصيرت لبنانياً عربياً أمياً.
والسعي الدؤوب، اليوم، هو لتحويل هذه المدينة المتفردة، بيروت،
إلى ما هي عليها سائرُ الأُثن العربيّة: سجون وأصفاد وسُجُور
وبديمقراطية تدوسها الأحذية الثقيلة (البوطات). في أوروبا
يوجد مواطنون، وفي الوطن العربي يوجد رعايا. ورحم الله جليلي
محمد خالد الذي أصدر، في مارس ١٩٥٦، كتابه الوُجْداني
الاحتجاجي الفاضل: مواطنون لا رعايا.

١٤ - وداعاً أيّها المنفى (الأيام ١ أيلول ٢٠٠٤)

نَحِيْتُ اليوم، أوراق البحث جائباً، فإنّ أيام المنفى تلك
واستطلات، ولم يعد الكلام مع سليمي، بواسطة الهاتف، الذي
استهلاكه ماله، بين حين وآخر، يُثْغِي الغليل ويروي ظفنا
المشتاق. أنا لا أقتني هاتفاً حيث أصطاف، وذلك عمداً وعن
سابق تصوّر. يكفيني رنين الهاتف في بيروت. أصطاف لأغث
نمط عيشي، ولأكون بمنجاة من انشغال البال أحياناً بتواهُ
الحياة. وهنا أنا سيّد وقتي: اقرأ، اكتب، انتزّه، اتأمل! أحصي
الصنوبرات المتفرقة عند تَلَوّي طرف الوادي، وأبعد الكرك،
خوفاً عليها من النقصان. استقبل، عسراً، بعض الزائرين من
الأهل والغيلا؛ ويتسامر في الليالي المفضلة للرُطاب، ويسمّع
في الرائيين، الذي يطل ششاً في الحال اللليل، قرب أُنْجَب، سواء
أكنت مستيقظاً أم غافياً؛ سمعت مقابلة مع صحافيٍّ مرموق،
وفيها يذكر أنّه يهوى للمبيت في الصمراء، حيث السكنية
الطقة، وحيث لا رنين لهاتف. وكان يروي أن أسأله، ونحن نجا
ثورة الاتصالات، إذا ما كان تاركاً هاتفه النقال، في شقته،
عمداً وعن سابق تصميم.

نحن، يا سليمي، في الفاتح من أيلول، وما هي إلا ثلاثة أسابيع
حتى نعاود معانقة بيروت وأحبائنا هناك. اتلّع بالشوق، وأنيتم
بالحنين. ولكنّ الفَرْج أترّ قلبي يذاهب تاهة، أشجار متسائلة،
وحقول قمح تحمل حنطة وأعدة، قلبي أجراس تنقصد الرنين،
أعياد تبحّث عن لهائر ومواعيد، وأنهار أضاعت تفتها
ومجراها. قلبي يذاهب، حيّزُ شَهْواتٍ ومغيد. أنا قادم إليك، يا
عزيزتي، لأتلو من رُصْداك عسلَ شَيْءٍ، معلولاً لِحُلُومِ العمر
ويؤرّج الأيام ويكسبها طعماً ولوناً وصوتاً. أنا قادم لاستحمّ
بُتْجُوك، ولتلق عسايف قهقهاتك، وأجلس مفتيحاً بحضورك
السنني. وداعاً أيّها الجبل الملهم، وداعاً أيّها البلدة الوادعة،
المطلة على سلاسل الجبال، العاصنة للقرى الخضراء المتناثرة.
وداعاً لطاولة السجانيان الرميّة، الواقعة في زاوية الصالون،
والتي جالسْتُ إليها، طوال ثلاثة أشهر، أحبّر أبحاثي ومعمي،
أشواقِي ودراساتي. وداعاً لمنفى السعيدا

بحمّون/ هانيّة - صيف ٢٠٠٤

في نقد النقد: من الضبابية إلى تلمس النص

فاروق مواسي*

ظهرت خلال القرن الماضي اتجاهات نقدية متعددة، حاولت أن تستثير في المطلعي مشاعره أو فكره لتجعل منه مشاركاً - وكان في ذلك ثراء نقدي وثقافي لا غنى عنه. ولكنَّ غربة النقد العربي آنذاك أفضتْ - أفاؤه - أدبية أو أساليب يكتنفها كثيرٌ من التساءل حول ماهيتها وفحواها. فمن هذه الأساليب أسلوبُ أدعوه بـ «الضفافي»، ويبدئُ في رصف الكلمات والمعربات دون رصيد ملموس، أو دقةٍ تزيئها ترجمة للغم، أو توضيح لها. ومن هذا ما يقوله أحمد حسن الزيات (١٨٨٥ - ١٩٦٨) في تقويم شعر امرئ القيس: «... كان جزلً الألفاظ، كثيرَ الغريب، جيّد السبك، سريعَ الخاطر، بديعَ الخيال، صادقٌ للتشبيه...» (١). وقد سخر محمد النويهي (١٩١٧ - ١٩٨٣) في كتابه ثقافة الناقد الألمي من مثل هذه التشبيهات التي وردت في كتب تاريخ الأدب على اختلافها، إذ يقول: «وبعد أن تناول أن تسالهم ما معنى هذا كله؟ ما معنى 'تجهم الممانى'؟ وكيف تجهم الممانى؟ وما هي البديجة التي يصفونها بها السُّنن تارةً وبالصفاة أخرى؟ وما معنى 'نبالة المقصد' في معلقة عمرو بن كلثوم أو 'نباهة غرضه'؟ وكيف يكون الغرض نبهياً؟ وكيف يكون المعنى أنبهاً؟ وكيف امتاز بخصن النظم؟ وما هذا بالخبيطا؟» (٢). ويكتشف نحن فضفاضية العبارات أو اتساعها إذا حاولنا شرح ما يقال إلى مثلي يبعث من قصوى ليدرك جذاً: نعمتها نترك أن العبارات فيها إنشاءً واستعراضاً وتعميم. ولا إخال الباحث في كتابات إيليا حاري للتصليبية يتروى في العثور هنا أيضاً على نماذج كثيرة من هذا القبيل. (٣) بل ثمة نماذج أخرى كثيرة في كتابات العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤) (٤) وبله حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣) النقدية (٥).

وغريب من هذا الأسلوب ما أدعوه بـ «الشاعري»، الذي يصطلح لأن يكون نصاً أدبياً آخر أكثر من كونه نقداً. ولأسبق مثلاً من كتاب الرمز والرمزية في الشعر المعاصر للدكتور محمد فتوح أحمد. فهو يقول: «وقد تركتُ خطي البارودي على رمال الشعر العربي آثاراً ترسّتها من تلاح من الشعراء. ولم يَلت منها شوقي، الذي جَمَعَ إلى فحولة الملكة الشعرية حماسية منخله بسرار النغم اللوسيفي، وتحكماً أصيلاً في ناحية الأسلوب الشعري، ولكن في معضم تجاربه ظنَّ يخترق من تلك الذنات التي اغترفت منها

البارودي» (٦). إنَّ هذه الاستعارات والمجازات اللغوية في النص السابق كانت تزيئاً وتبيهاً أكثر من كونها لغةً علميةً محددة.

أما الأسلوب الذي أدعوه بـ «الغبيبي»، فهو الناشئ عن ضبابية واضطراب وإفتعال، والثاني عن جوهر التجريبية والمعرفة الحقيقية. ويؤكد عن بوالى (١٦٣٦ - ١٧١١) الفرنسي في هذا الصدد قوله: «إنَّ ما يدركُ جيداً يُعثر عنه جيداً، وبوضوح: فإذا انعدم التصوُّر الحسي للمميّزات المادية، وانعدم التنظيم الشكلي للتصور، انعدم بالضرورة التعبير البين، ولأسبق مثلاً على هذه الضبابية ما كتبه د. خالدة سعيد في كتابها حركية الإبداع: «... إذا كان نجيب محفوظ قد كتب ملحمة الشمول، ويرهن على أنه يتحسس تراجيدية البعد الاجتماعي، فإنه لم يبلغ اللحظة التراجيدية، لأنه لم يبارق موضوعيته، ولا اعتزّت عنده مسافة الشهادة. ففي كل موقف تراجيدي لا يدُ من توتر

✦ - شاعر ونائد ومفاخر فلسطيني من بقاة الغربية في فلسطين المحتلة عام ٤٨.

١ - أحمد الزيات، تاريخ الأدب العربي (بيروت: دار الثقافة، ١٩٨٥)، ص ٥٦.

٢ - محمد النويهي، ثقافة الناقد الألمي (القاهرة: مكتبة الخانكي، ١٩٦٩)، ص ٣٢.

٣ - نحو: «أما طابع الفاطم فظنُّه في اللغة المصرية، المباشرة القصيمة في موفهمها، لا تتفلل فيه ولا تتمش، وإنَّ كان يُعزّزها الجرسُ الخافت، أحياناً، في مواضع الرقة واللين...» إيليا حاري، فن الخطابة (بيروت: دار الثقافة، د. ح)، ص ٦٢.

٤ - إليك نموذجاً اخترته عرضاً: «وإذا بلغ من تهافت للنفس على التهام الأشكال المخلقة هذا المبلغ، فلا جزم أن تترك فيها أثرًا قويًا من حسنها وقبحها وبها ترحيه من بواعث الفرح والنشاط أو بواعث القزع والرجوم. فاما الحسن في تلك الأشكال فيزدها، ويؤثرها ويصنّف أساليبها وتأنس منه البشريى الجميلة والفان السعيد...» عباس محمود العقاد، مراجعات في الآداب والفنون (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٦٦)، ص ١٥.

٥ - من كتاباته بله حسين مثلاً: «وبن طبيعة الأدب الربيع والفن الجميل أن يمتاز ويهني الفناء في أية قوة مهما تكن. فسيُستثن الأبناء فيما يحرصون عليه من الامتياز، وسيُعرضون إما للحرلة المؤنية أو الظلمة التي تدعو إلى الإبتدال... وسيكون أبدهم الربيع للشار منارة صافية صافية رائحة لحيمة هذا للشعب، يرى فيها الشعب نفسه فيحب ما يحب ويُبغض منها ما يُبغض، ويضعه فيه إلى التماس الكمال، ويضعه بعضه إلى التماس الإصلاح...» طه حسين، الوان (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٨)، ص ٢٢.

٦ - محمد فتوح أحمد، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٨)، ص ١٤٨.

معين، من زمن مباحثة يسقط منظار الرصد ويعدم المسافة بين الشاهد والموضوع (١) وعلى الذي يكابر ويتنقح قولنا أن يترجم هذا النص إلى لغة الفهم والإدراك

وثمة الأسلوب «الانطباعي التعميمي» الذي لا ينطلق من تحديد للمفردة، وضيقت للمعنى من خلال دراسة علمية أو منهجية متساوقة. ولنسق مثلاً من أدونيس: «نتاج شعرنا في الأرض المحتلة... شعر تطافره. يُعتبر الثورة حدثاً خارجياً، يتخذها موضوعاً، فيصيرها ويؤتثف لها ويثقلها. هذا الشعر حماساً لا تُكَلِّم شيئاً، لا تفعل شيئاً، صحيح أنها تُضمر الرغبة في العمل، والاتفاق حول الأهداف. غير أن صخبها يضي عجزاً. فكأنها تستبذل العمل باللعب...» (٢)

وهناك الأسلوب البنيوي المتكلف، فهو يكاد يكون أفقاً بارزاً أصابت النقد في القرن الماضي - وخاصة ذلك النوع من البنيوية الذي لا يؤدي إلى مؤثر ولا يتساق بمفطقية، وإنما ثمة أسهم ودوائر ومربعات وإشارات ومجرى كلمات وإحصائيات «تدوّننا»، ولا بأس من مثال اجتزته عرقاً من كتاب شيريل داغر، الشعرية العربية الحديثة: «التشبيه يستمر بين الأرض والمتكلم، مشيراً هذه المرة إلى الانزياحية للمائلة بين الطرفين، التي يمكن أن تُرْمَى إليها بالصورة التالية: المتكلم الأرض الياس الرجاء الخريف الربيع أريد ولا أريد، والانزياحية هذه تتأكد في السطر الأخير، لا بل يطن للتكلم عنها بوضوح: (٣) «لا المشكلة مع كثير من هذه الكتابات هي أن المؤلف يحاول أن يُثبت بطريقته أن $1 = 1$ ، ولكّنه غائباً لا يقول لنا ما بعد ذلك، وما علاقة ذلك بالمحتوى والمضمون، وما هو الجديد في قوله، وأين الدقة التي لا تحتمل عكس ما ذهب إليه؟

يضاف إلى ذلك ما أخذه الناقد فخري صالح على بعض تيارات أخرى تدعى إلى «النزوع إلى النقل والتقميش والقرن والسبق والترداد البنيوي للأفكار والنصوص والامضة بنوع من النشوة الغريبة في اللعب بالكلام، وهو ما يتسبب في مراكمة نصوص نقدية تفتقر إلى الإبداع والإنجاز المنفرد، وتُصَرِّفُ للنقاد العرب عن قراءة النصوص والظواهر للتفرد في الأدب والحياة.» (٤)



لا شك في أن المدارس التي نكرتها في بداية المقال ستواصل طريقتها بصورة مشابهة أو مغايرة في المستقبل المنظور. ذلك أنه

ما من اتجاه أدبي مستجد إلا كان إلى جواره أساليب أخرى بقيت وبقي لها انتصاراً: فقصيدة النثر مثلاً لم تُكَلِّم دون استمرار جميع الألوان الشعرية على اختلاف أشكالها، وما بعد الصداثة على اختلاف تعريفاتها لم يُكَلِّم الصداثة على ضروب توالياتها. فهذه المدارس «السياسية» (٥) تُدرّس النصوص الأدبية في ظروف نشأتها والسياقات الخارجية لها، والتأثيرات التي يتوقع للنص أن يؤثر في ما يحيط به - أي أنها تتوصل بوسائل خارجية ليست من داخل النص نفسه. أما تلك التي دعرتها بـ «الأفان» فهي التي ستتناقض تدريجياً (وقد بدأت بهذا الانحسار في السنوات الأخيرة من القرن الماضي) إذ إن العصر العلمي - عصر الحاسوب والاختزال والوضوح والدقة - لن يُسّخ مجالاً لأقوال بديون رصيد، ولأفكار بديون تعجيد، ولعان بديون تشبها.

وثمة رؤية مستقبلية في مطلع القرن الحادي والعشرين في ما يتعلّق بتقدنا العربي على وجهه، ما، تتمثل في الاستمرار بل التوسع في وظيفة النقد الذي سيتركز في معالجة النص الواحد من جهة، وفي النقد البحتي - أي إجراء البحوث العلمية لدراسة ظواهر وموضوعات وخطابات مختلفة - من جهة ثانية

أما «نقد النص» فمن المؤمل أن يكون هو الأبرز على الساحة النقدية، لأن فيه مدعاة لتتوق المتلقي لهذا النص أولاً، بد أن تدوّقه الناقد. الناقد هنا يحاور النص منه وفيه، فتتساق مع الوقوف على لغة النص معرفة سيكلوجية أو اجتماعية أو بيولوجية... إلخ. ولا غرو أن تكون تلك المنجزات في المستقبل مهيأة لأن تكون في خدمة كل نص، فيعلم الناقد عبر النص ولغته كيف بُني هذا النص، وماذا يضي في نسجه، وكيف يراوح في تضاعفه معارف ذات أثر في ذاكرة المتلقي. كما يضي في النص بما يدعو للإمتاع والإقناع والبحث والاكتشاف، في هذا المجال أو ذاك. الناقد هنا هو القارئ «الأعلى» الذي يقول للقارئ «المنتظر» ما يُثري لا ما يُثقل، وما يُطم لا ما يُثيم. والنص يرسم على الذاكرة، ويسعى إلى تحقيق هذه التمثيل - على حد تعبير رولان بارت (٦) - بـ «جمل القارئ منتبهاً للنص لا مستهلكاً له»، «تتعالج النقد مع العمل الأدبي على أنه مشروع لإبداع مستجد، فلا يكتبسب أهيمته من اكتشافه لعلاقات العمل الفني فقط، وإنما «تُكون للنص النقدي [أيضاً] إشعاعات ذاتية تنبثق بما يُكمله من حين إلى طرحة الأسئلة الجوهرية المرتبطة بالوجود وحياة الإنسان ومصيره.» (٧) إن قراءة النص - أي نص -

١ - خالدة سعيد، حوكمة الإبداع (بيروت: دار العودة، ١٩٧٩)، ص ٢١٠.

٢ - أدونيس، زمن الشعر (بيروت: دار العودة، ط ٢، ١٩٧٨)، ص ١٠٥.

٣ - شيريل داغر، الشعرية العربية الحديثة (الدار البيضاء: دار توبقال، ١٩٨٨)، ص ٨٥.

٤ - فخري صالح، عين الطائر (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢)، ص ١٧٧. وهذا الكلام، على صدقه، بحاجة إلى توضيح من خلال نماذج سيرة

٥ - انظر مقالة مرشد الزبيدي، «المنهج النقدي»، مجلة الإعلام، العدد ١ / ٤ - ١٩٩٧، ص ٢٦. وهو يستقي المصطلح من الناقد جيمس متوايتر contextual الذي يتناول الظروف والسياقات الخارجية عن النص.

٦ - Roland Barthes, S/Z (NY: Hill & Wang, 1970), p. 4.

دراسة أدبية

أما «النقد البحثي» فهو الذي يدرس موضوعاً أو جزءاً من دراسة أكاديمية محايدة، تتخلل وتخل من غير تدخل مباشر للباحث. ويبدو أن شبكة الإنترنت استفدت من خدمتها وتوجيهها بصورة أكثر وأوسع. فعندما يُقبل الباحث على نقطة بحثه يستقصي المقالات الواردة في الشبكة المتعلقة بما يبحثه، ويقرأ من خلال ذلك إلى عليه أن يلقى بالجديد، لا أن يحزن الطعن، وإن عليه أن يقرأ مقلته وأصحها ذات رسائل بيئية، يعبر عنها بأسلوب منظم ومتسق، بحيث تُسك العبارة ببدل أختها لتسيراً ييسر إلى محطة الوصول، أي غاية الكتابة، ويكون ذلك بادام منظم مؤد إلى معنى يمكن أن يُقتمد عليه مطلقاً آخر في معالجة نقطة أخرى. يختار الناقد الباحث موضوعه الذي له علاقة به - أعني أن تكون له خلفية ما عنه. ومن الطبيعي أن يُكرس استمراراً لما كان قد تناوله السابقين في الميدان الذي يخصصه^(١) - فالأمانة تقتضي أن يعطي كل ذي حق حقه من الذكر والإشارة. ومن شأن الناقد في «النقد البحثي» أن يميز بين التجريبي والهامشي في المصادر والمراجع التي أضاف منها، ثم يختصر ويخلص، ويبني نظاماً لحجته وكيف يبيدها خطأً خلوة، بل يطوّر قدرةً ومهارةً في تنظيم مادته وإدماج مادة باخري تبعاً لشدته. ولا بد، أولاً وأخيراً، أن يُعتمد إلى البقة والمراجعة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

هذان الوجهان التقديان هما من طبيعة عصرنا العتيق الذي يستلزم الثقة والمعنى الوجه والوجه، وهما يتقدمان الشعة والفائدة المعرفية معاً. وبالتالي يُخرج الضباب النقدي إلى فضاء الثقافة والفكر والمجتمع، ويشارك في تزايد المعاني المتصلة المشروطة بالقرائن والإشارات المبتوثة في النص، إنها لا يلغيان الدارس الأسنينة أو سواها مما هو قائم في النقد عامة في الغرب ومتابعة له لدى نقادنا العرب. كما لا يلغيان التفاعلات التناسية والتعاطفات هنا وهناك. فمثل هذه تُربي تجربة النص إذا استُخدمت بتوليغهم مبرز وأكثت دوراً للثقافي العادي - الذي يبحث عن وعي من خلال قراءته، ويبحث عن سبب لاكتساب رؤية للعالم لا تنفصل عن العصر، بل تعبر عنه بصور باهرة غير مطروقة.



ويعد، فهذا تصوراً ذاتي لما نحن مقبلون عليه، لا يعني أنه الأوحى. إنه قراءة أسيرة النقد، وقد ليض اتجاهاته الغائمة والمبهمة، وبهذه إلى أن تخلص النص، نضمه أو نحره أو نتنقذه، أو كما قال البحترى بعد أن اغتلى ارتقياً أمام التصوير في الإيوان: «... تنقأهم يداي يخلص»

بأقاة الغربية (فلسطين)

تحتاج إلى ما أسمته اعتدال عثمان «قراءة استطلاعية» تُسمم بوعي في إنتاج وجهة النظر التي يُخلها أو يتحكمها الخطاب. ويتطلب ذلك شحداً لإرادة القارئ والقدرة على البناء. ومن خلال عملية تحليل الأفكار وتركيبها يبدأ القارئ في فعل الاختيار، فنقدم أفكاراً وتراجيحاً أخرى، ونُكرز جوانبها ونُخفث غيرها، بما نُؤهل في التالي إلى بناء جدير للأفكار والنص وأطريقة التعبير عن أفكاره: «ويقتات البناء في تماسكه وقدرته على الكشف كما تتفاوت كيفية البناء في كل قراءة جديدة»^(٢). ولا ضرورة لأن يُلتزم الناقد منحنى أو منهجاً ثابتاً، وإنما يصيب نقد النص - في هذه الرؤية التي أخرجها - حواراً جلياً بين الناقد والنص، يقول الواحد للآخر ما يري تجربة للثقافي بما يُوضح أمامه معالم الطريق. وقد يكون النقد خدمة قرائية من خلال التضمير، أو من خلال تنبيه القارئ إلى نقطة الإثارة أو المفاجأة. أو من خلال الإشارة إلى بذرة النص أو دروبه لكل نص مفتاحه. من هذا، فإن تصور التحليل النصي ينحو إلى أن يكون فعل قارئ وإدراكاً جمالياً لا يلتزم بمقصد الشاعر عند كتابة نصه^(٣). وبلوجات القراءة، كما يقول حاتم الصكر، اثر في تحليل النص مادام متصلاً بعوامل أخرى ذات علاقة بهيته: بدءاً من العنوان، وانتهاءً بالظروف التي تتعلق به، وتتضمن حتى النقاط والواصل وما إلى ذلك. وإذا تابعنا هذا التصور القرائي فإن الناقد يضيغ يديه على بذرة مولدة للنص تفسح في مركز التحليل وتنتشر إلى أطرافه وزواياه... وفي هذا المجال يُقدّر أن تفرق بين الجوانب الفنية والمجالية: فالفنية تتصل بالمازيا الداخلية للنص ولطرائق تنظيمه وعلاقات عناصره: أما الجمالية فتتعلق بقراءة وإظهار معانيه وأبعاده، إلى جانب معرفة القارئ وما اكتسب من مهارة وقدر، وانفتاح النص يعني لديه تعقّب ما يتوهمه من استعانة بالسرد، أو الوسائل الفنية المستعارة من ميادين أخرى كالوسيقا والسيمياء، لا لها من أهعية في تشكيل وعي الأديب والمتلقي معاً^(٤).

إن النص الأدبي سيظل موضوعاً أساساً في النشاط النقدي. وهذا النص، كما يرى عبد الملك مرتاض: «... مطرح أمانة في صورته النهائية بكل أبعاده الفنية والجمالية والإيديولوجية. ومن العبث تناول الإيديولوجيا وحدها، أو للنحى الجمالي وحده، أو الجانب التقني وحده... فلنكن نازكاً إلى النص الأدبي نظرة شمولية»^(٥).

١ - Edward Said, *The World, the Text, the Critic* (Cambridge, Mass: Harvard Univ. Press, 1983), p 122.

٢ - اعتدال عثمان، إضاعة النص (بيروت: دار الأدباء، ١٩٨٨)، ص ١٠٨.

٣ - حاتم الصكر، نرويض النص (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨)، ص ٢٦٦، ٢٦٧.

٤ - عبد الملك مرتاض، «المبادئ العشرة لقراءة النص»، صحيفة الرياض، ٢٠٠٤/٣/١٨.

٥ - فاروق مومني، أنبيات - مواقف نقدية (القلم، ١٩٩١)، ص ١٧.



الحركة الشيوعية العربية: الواقع والمرتجى (٥)

نتابع الحلقة الخامسة من هذه السلسلة بعد إسهامات: سلامة كيلة، وياسين الحاج صالح، وعبد الغفار شكر، وأحمد بهاء الدين شعبان، وسليها في العديدين القادمين إسهاماً: رفعت السعيد، ومصطفى مجدي الجمال.

الأكراب

نايف سلوم

يقول ماهر الشريف: «لم تنشأ الحركة الشيوعية الفلسطينية في مطلع العشرينيات بين صفوف السكان العرب الفلسطينيين، وإنما نشأت بين صفوف الأقلية الاستيطانية اليهودية المرتبطة بالمشروع الصهيوني، على أثر الانشقاق الذي وقع، في أعقاب الحرب العالمية الأولى وانتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية، داخل صفوف الحركة العمالية اليهودية في فلسطين». فقد اعتبر الشيوعيون الفلسطينيون «أن الطبقة العاملة الفلسطينية، من خلال جبهتها الأممية الموحدة اليهودية - العربية، هي القوة الوحيدة القادرة على تجاوز 'التناقض القومي' في البلاد والسعي من أجل حل معضلات المسألة القومية للكلونيالية في فلسطين»^(١). لم يلاحظ الشيوعيون اليهود أن التناقض على أرض فلسطين لا يُتَكن حله عبر جبهة عمالية متحدة مزعومة بين مهاجرين يهود مستوطنين وبين سكان فلسطين من الفلاحين والحرفيين التقليديين وبعض عمال المشاغل. ولم تُكشَل الجبهة العمالية المتحدة نتيجة تدني الوعي الطبقي عند العمال العرب كما يزعم ماهر الشريف، بل جاء الفضل للزريع من الطابع القومي - للصهيوني للحركة العمالية اليهودية كما يقول هو ذاته. بل الحق أن الجبهة العمالية والطبقية في فلسطين كانت تصب الماء في طاحونة الإستراتيجية الصهيونية، أي في الهجرة اليهودية وتبثيتها. «فالهجرة اليهودية إلى فلسطين جُذِبت معها هذا التناقض المستحيل الحل على أرض فلسطين. وقد حاول الحزب الشيوعي الفلسطيني تفسير ظاهرة هيمنة النزعة القومية على الحركة العمالية اليهودية بالرجوع إلى ظروف تشكل الطبقة العاملة اليهودية في فلسطين»^(٢). متأسياً أن الهجرة اليهودية هي السر وراء هذه النزعة ووراء التناقض المستعصي. فقبل لانتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية، وقبل صدور وعد بلفور، كان الخط الرئيسي من التزامات القومية الانفصالية

نشأة الحركة الشيوعية العربية: عيبان

ترافقت نشأة الأحزاب الشيوعية العربية مع عيبين لازماً تطورهما بدرجات متفاوتة، وحسب مسار كل حزب فطري. وكانت نشأة الحركة الشيوعية في فلسطين بدايةً عشرينيات القرن العشرين هي للهيمنة على هذه المستوى، وأثرت بشكل لافت في مجمل الحركة الشيوعية العربية في المشرق العربي بعد انتصار الثورة الاشتراكية في روسيا.

العيب الأول مرتبط بنشاط الأممية للشيوعية في ما يخص المسألة الكولونيالية والقومية في فلسطين، والسيطرة اللاحقة للبيروقراطية الستالينية على الأممية الشيوعية وتحويل هذه الأخيرة إلى جهاز بيروقراطي للسيطرة على الأحزاب الشيوعية القومية وإحاقها بـ «المركز الروسي».

أما العيب الثاني فمرتبط بالنشاط الصهيوني العمالي في فلسطين، والقادم من النشاط الصهيوني في روسيا بدايةً القرن العشرين. ذلك أن جذور الحركة العمالية اليهودية في فلسطين ترجع، بشكل أساسي، إلى الجناح الصهيوني العمالي (بوعالي تسيون) داخل الحركة العمالية اليهودية في روسيا القيصرية. فهذا الجناح كان ينطلق من إمكانية الجمع بين الصهيونية والاشتراكية، ويدعو العمال اليهود إلى الهجرة إلى فلسطين وتصدير النضال من أجل «ضمان الاستقلال الإقليمي للشعب اليهودي في فلسطين» وإيجاد حل «داخري» للمسألة اليهودية. وعلى هذا الأساس قُرِرت مجموعة من أنصار ذلك الجناح الروسي في مطلع القرن العشرين الانتقال إلى فلسطين للمساهمة في عملية «التجميع الإقليمي للشعب اليهودي»، والنضال من أجل ضمان نجاح الحل «الاشتراكي» للمسألة اليهودية^(٣).

٠ - كاتب سوري

١ - د. ماهر الشريف، الشيوعية والمسألة القومية العربية في فلسطين ١٩١٩ - ١٩٤٨، الوطني والطبقي في الثورة التحريرية المناهضة للإمبريالية والصهيونية (مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٨١)، ص ١٧، ٢٥، ٢٧، ٤٠.

بين أوساط العمال اليهود في روسيا يتجسد في الأفكار التي كان يُشييعها 'اليوند'، حيث كان تأييد هذا الحزب في صفوف البروليتاريا اليهودية يزيد من تأثير مختلف المجموعات الصهيونية الاشتراكية مجتمعة»^(١)

وطوال العشرينيات من القرن العشرين بقيت مسيرة الحركة الشيوعية في فلسطين محكومة بخصوصية النشأة هذه. دفع أن الحزب الشيوعي (في فلسطين) استطاع استقطاب وتنظيم عدداً من العمال العرب، اعتباراً من عام ١٩٢٤ بعد تبني شعار 'التعريب' كما ساهم في النضالات العادية للإمبريالية والصهيونية، والتي كانت تخوضها الجماهير العربية، وسعى إلى إقامة جبهة موحدة معادية للإمبريالية مع قيادة الحركة الوطنية العربية، إلا أنه بقي طوال تلك المرحلة.. حزياً يهودياً في تركيبه وتوجيهه»^(٢)

للدخول الأممية الشيوعية اشتترطت هذه الأخيرة على الحزب الشيوعي في فلسطين تشكيل جبهة موحدة مع الحركة القومية العربية الفلسطينية، وتعريب الحزب عبر استقطاب وتنظيم عمال عرب في صفوفه، واعترفت اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية، في فبراير ١٩٢٤، بالحزب الشيوعي الفلسطيني، وولفت رسمياً على قوله في صفوف الحركة الشيوعية العالمية بعد أن اشتترطت على قيادته التخليّ بالشروط الثلاثين: الأول من المسمى من أجل إقامة أوثق الصلات مع أوسع الجماهير العربية، بغية تحويل الحزب من منظمة مقتصرة على الثوريين اليهود إلى حزب فطري حقيقي يمثل طبيعة العمال العرب واليهود في فلسطين. أما الثاني فهو تقديم كافة أشكال الدعم لحركة التحرر الوطني لسكان العرب، في نضالها ضد الاحتلال البريطاني - الصهيوني^(٣). غير أن هذين الشرطين كانا في الحقيقة تَمَلَّان على خدمة الهدف الصهيوني الاستيطاني، إذ كانا يعطيان شرعية للهجرة اليهودية ويؤيدانها حين لم تأخذ الأممية الشيوعية في حسابها خصوصية المسألة القومية والكولونيالية في فلسطين.

الاختراقات الصهيونية للشيوعية

كان النشاط الصهيوني واضحاً عبر اختراقاته للأممية الشيوعية في ما يخص جامعة كادشي الشرق، وعبر للمستوطنين الذين كانت

تُرسلهم للمساعدة في تأسيس أحزاب شيوعية جديدة، بكتب رفعت السعيد في هذا الصدد أن الكومنتيين كان يقدم نوعاً من العون السياسي والتنظيمي للأحزاب الصغرى التأسيسية، ومن هؤلاء المبعوثين إلى المنطقة العربية: «أبو زياد (حيدر)، اسمه الحقيقي وولف أورياخ، يهودي روسي، أحد خبراء ومبعوثي الكومنتيين إلى البلاد العربية. أرسل إلى فلسطين عام ١٩٢٢ وساهم في تأسيس وقيادة الحركة الشيوعية هناك ما بين ١٩٢٤ - ١٩٢٩. شمل نشاطه للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان»^(٤)

ومنهم أيضاً: «بييرجيه (ي. بيرغر). اسمه الحقيقي جوزيف ميكائيل زينسكين، يهودي بولوني، معروف باسم بارزيلي من خبراء الكومنتيين ومبعوثيه إلى فلسطين عام ١٩٢٠، ومن ثم إلى سوريا ولبنان. عاد إلى موسكو ١٩٣٣. فيما بعد صار رئيساً لقسم الشرق الأوسط في معهد فارغا للشؤون الاقتصادية والسياسية والعالية... تحول إلى صهيوني»^(٥)

وهناك «يعقوب تير (شامي): خبير في شؤون البلاد العربية لدى الكومنتيين، ومبعوث من قبله إلى فلسطين. ساهم في تأسيس وقيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني. شمل نشاطه الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان. ولد في روسيا ثم هاجر إلى بلجيكا حيث التحق بالحزب الصهيوني العمالي (يوغالي شينون) ثم التحق بالصهيونية وأُرسل من قبل الكومنتيين إلى فلسطين ثم سوريا»^(٦)

ومن المبعوثين أيضاً: «دافيدجور (بهيول كوسي)، ولد في أكرانيا عام ١٨٩٢ والتحق بالهجرة الثورية في وقت مبكر وهاجر إلى الولايات المتحدة قبيل الحرب العالمية الأولى. التحق في أميركا بالفيلق اليهودي Jewish Legion الذي كان قيد التأسيس وقتئذ، ثم ذهب إلى فلسطين لوقت قصير عام ١٩١٨، وأقام في مصر عاماً ونصف العام، ثم عاد إلى روسيا. أرسل إلى مصر مرتين عام ١٩٢٢ وعام ١٩٢٤ لينظم أو، بحجارة أنق، ليبلشف الحزب الشيوعي المحلي. وقد صار معروفًا كشخص في شؤون مصر. ثم أرسل عام ١٩٢٢ ليتجول في الشرق الأوسط ويفتح على الأحزاب المحلية»^(٧)

وتذكر من المؤسسين للحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حتوت) أو البلاد الثاني للحركة الشيوعية في مصر: هنري كوريل، ومارسيل إسمرائيل، و مليل شوارتز، وهي شخصيات يهودية بروجوازية عاشت

١. د. ماهر الشريف، الأممية الشيوعية وفلسطين ١٩١٩-١٩٢٨ (بيروت: دار ابن خلدون ١٩٨٠)، ص ١٠٧.

٢. د. ماهر الشريف، الشيوعية والمسألة القومية، مرجع مفكر، ص ١٧، ٢٥.

٣. ٥ - ٦. فؤاد الشمالي، كتابات مجهولة، تحرير وتقديم محمد كامل الخطيب (دار المدى للنقابة والنشر، ٢٠٠٠، الطبعة الثانية ٢٠٠١)، ملحق (١) تعريف موجز لبعض الشخصيات الواردة ذكرهما في كتاب (فؤاد الشمالي): أساس الحركات الشيوعية في البلاد السورية - اللبنانية، ص ١٨٧، ١٨٨، ١٩٠.

٧. د. رفعت السعيد، اليسار المصري ١٩٢٥ - ١٩٤٠، تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر (بيروت: دار الطبعة للطباعة والنشر ١٩٧٢)، ص ١٣١.



الحركة الشيوعية العربية: الواقع والمرتبها (٥)

الراسمالية المتقدمة.^(١) وقد أكد المؤتمر أنَّ الأداة الثورية الكلية بإتجاه هذه المهام تتعلَّق في الجهة المعادية المتعددة القائمة على أساس وحدة العمل والنضال بين جميع العمال، بغضِّ النظر عن انتماءاتهم السياسية وعن قناعاتهم الإيديولوجية. وقد طالب المؤتمر جميع الأحزاب الشيوعية بالسعي إلى إقامة مثل هذه الجبهة.^(٢) بغضِّ النظر عن الخصوصية الكولونيالية والقومية لبلد من البلدان، وهذه نقطة أخرى سوف تُخدَّم المشروع الصهيوني بطريقة آية، ولن تخلق جيهاً متحدةً، بل الميزن من العداء بين العرب والمهاجرين اليهود، وتخلق الميزن من التباعد بين الحركة القومية العربية في فلسطين وغيرها وبين الحركات الشيوعية في المشرق العربي.

لقد كانت التصريحات الثورية التي تقول إنَّ على البروليتاريا الثورية أن تُدعم النضال المادي للإمبريالية الذي تخوضه حركة التحرر القومي في البلدان المستعمرة والقابعة، ولكن بشرط النضال ضدَّ النزعة القومية العمياء» والدعوة إلى إحلال روح الحقد الطليقي محلَّ روح الحقد العنصري... أقول كانت مثل هذه التصريحات تصبُّ للماء في طاحونة المشروع الصهيوني عبر الدعوة إلى التعاون العربي اليهودي الشمالي. لقد كانت الحركة البروليتارية الصرفة الموجهة مباشرةً ضدَّ المستعمرين الوطنيين والأجانب طلب الدور الرجعي عميئة في ما يخصُّ المسألة الكولونيالية والقومية في فلسطين. وهذا ما دعا المنوط السوفييتي مانويلسكي، رئيس اللجنة الخاصة المكلفة بصياغة تقرير عن المسألة القومية والكولونيالية، في المؤتمر الخامس للأممية الشيوعية عام ١٩٢٤، إلى انتقاد الأحزاب الشيوعية في البلدان المستعمرة والقابعة، واتهمها بأنها قد جابهت باستهصار بالغ خلال الفترة السابقة للمسألة القومية والكولونيالية. وأكد أنَّ نقص الاهتمام الذي أولاه الشيوعيون لهذه المسألة قد أدَّى إلى ترك قيادة الحركة التحررية المعادية للإمبريالية تُكَلِّم من أيدي الشيوعيين، وتعود إلى أيدي العناصر البورجوازية القومية. كما انتقد مانويلسكي نقص الاهتمام الذي أولاه الأحزاب الشيوعية الأوروبية للمسألة القومية والكولونيالية، وحذَّرها من خطر «وجود بقايا اتجاهات اشتراكية - إمبريالية بين صفوفها».

والحال أنَّ مساندة الحركة الشيوعية في فلسطين قد أدَّى في كافة الأحزاب الشيوعية في المشرق العربي، إنَّ حرمت الحركة الشيوعية من قيادة الحركة القومية العربية بسبب بيروقراطية الأممية الشيوعية وسيادة النزعتين النقابية والمطبقية في الحركة الشيوعية العالمية، نتيجةً لتأثير المركز الروسي في الأحزاب الشيوعية والقومية.

دمشق

في مصر بين العربيين.^(٣) وقد ساهم هؤلاء بتأسيس الفرع السوداني للحركة، والذي سيشكِّل أساس الحزب الشيوعي السوداني.

إنَّ النزعة البيروقراطية للأممية الشيوعية بعد سيطرة ستالين عليها، وبعد سيطرة مصلحة الدولة السوفييتية الجديدة على مصالح الحركة الشيوعية في العالم، وغشَّى الأممية عن رؤية خصوصية المسائل الكولونيالية والقومية في فلسطين، كل ذلك جعل تُسرَّب عناصر ملوثة صهيونيَّة إلى الأممية الشيوعية - ومن ثمَّ قودهم إلى المشرق العربي يُشْرفوا على تأسيس أحزاب شيوعية محلية - أمراً غايةً في الخطورة والانتهاز التاريخي. كما أدَّى تسجيُّم للنزعة الطبقية والنقابية إلى نوع من العممية القومية العربية، وإلى دعم خفيٍّ وأمنيٍّ للمشروع الصهيوني، وإلى تدور الحركة القومية العربية من تلك النزعة ومن التعاون النقبائي اليهودي - العربي. وبهذا الشكل تمَّ التأسيس لأحد إشكالات الحركة الشيوعية العربية في المشرق العربي، وهي الانفصال بين الشيوعية والحركة القومية العربية، وتفضيُّم البرنامج السياسي للحركة الشيوعية العربية إلى برنامج ملبِّي نقابي، وإخطاء كارثية أخرى في التماهي مع قضية فلسطين كمشروع التقسيم وغيره.

يقول د. ماهر الشريف: «كانت الأممية الشيوعية تجاة في فلسطين مسألةً كولونيالية ذات خصوصيات معينة. فالقضية الفلسطينية، كمسألة كولونيالية، لم تكن نتيجة الصراع الدائر بين الإمبريالية وحركة التحرر الوطني للشعب العربي فحسب، وإنما نُكِّت [أيضاً] عن تصارع ثلاث قوى فوق الأرض الفلسطينية، وهي: الإمبريالية الانكليزية وألحمة الصهيونية من جهة، والحركة القومية العربية الفلسطينية من جهة أخرى. وهكذا، كان ينبغي على الأممية الشيوعية أن تتحدَّ مواقفها تجاه كل من هذه القوى المتصارعة. وفي فترة انعقاد المؤتمر العالمي الثالث للأممية الشيوعية، انعقد في موسكو، بين ١٩ و ٢٠ تموز ١٩٢٦، المؤتمر العالمي للمنتديات الثورية، حيث تمَّ تأسيس الأممية النقابية الحمراء تحت اسم «البروفيتنر» - وهذه لفظة أخرى سوف تستغلها الصهيونية العالمية، حيث التفتُّ النقبائي العالمي بعيداً عن التمايزات القومية.

وفي المؤتمر الثالث للأممية الشيوعية أُقرب لينين عن اعتقاده بأنَّ الراسمالية العالمية قد دخلت في مرحلة الاستقرار الفتور وماز على روسيا السوفييتية أن تتعايش، واقترة من الزمن، مع بلدان أوروبا الغربية في محيط راسمالي. وقد دعا لينين الحركة للصالية للثورة إلى أن تسعى بنشاط في سبيل تحضير شروط انتصار الثورة الاشتراكية ودراسة مراحل تطورها بشكل دقيق ولعموم في البلدان

١ - راجع: أوراق هنري كوريل والحركة الشيوعية المصرية، دراسة بقلم د. رؤوف عباس، ترجمة عزة رياض (سبنا للنشر الطبعة الأولى ١٩٨٨).

٢ - د. ماهر الشريف الأممية الشيوعية وفلسطين ١٩١٩-١٩٢٨، مرجع مذكور، ص ٢٧، ٢٨، ٤٢.

الذاكرة المفقودة: من اختراع «فلسطين» إلى اكتشاف «لبنان» — هشام البستاني*

«البلدان الجاران»، يا جماعة الخير، ليسا «بلدين» أصلاً، وكذلك الأمر بالنسبة إلى البلدين الجارين الآخرين اللذين يقعدان جنوب «البلدين الجارين». أتذكر أحد منكم شيئاً اسمه: سورية؟ أم أن عقلنا القطري لم يعد يستوعب من هذه الكلمة سوى القطر الذي يُشمل هذا الاسم نفسه؟

♦ ♦ ♦

فلاش باك ١: اتفاقية ساكس-بيكو، ٩ أيار (مايو) ١٩٦٦:

المادة الأولى: إن فرنسا وبريطانيا العظمى مستعدتان لأن تعترفا وتحميا دولة عربية برئاسة رئيس عربي في المنطقتين «أ» (داخلية سوريا) و«ب» (داخلية العراق)... يكون لفرنسا في منطقة (أ) وإنكلترا في منطقة (ب) حق الأولوية في المشروعات والقروض المحلية، وتتقدم فرنسا في منطقة (أ) وإنكلترا في منطقة (ب) بتقديم المستشارين والموظفين الأجانب بناءً على طلب الحكومة العربية أو حلف الحكومات العربية.

المادة الثانية: يُباح لفرنسا في المنطقة الزرقاء (سوريا الساحلية) [أي ما يسمى الآن لبنان]، وإنكلترا في المنطقة الحمراء (منطقة البصرة) إنشاء ما تريغان به من شكل الحكم، مباشرة أو بالواسطة، أو ما تريغان به من المراقبة، بعد الاتفاق مع الحكومة أو حلف الحكومات العربية.

المادة الثالثة: تُنشأ إدارة دواية في المنطقة الحمراء (فلسطين)، يعين شكلها بعد استشارة روسيا، وبالاتفاق مع بقية الحلفاء وممثلي شريف مكة.

المادة التاسعة: من المُلحق عليه أن الحكومة الفرنسية لا تُجري مفاوضات في أي وقت للتنازل عن حقوقها، ولا تعطي ما لها من الحقوق في المنطقة الزرقاء [لبنان] لدولة أخرى سوى للدولة أو لحلف الدول العربية، بدون أن توافق على ذلك مقدماً حكومة جلالة الملك التي تتمتع بمثل تلك الحكومة الفرنسية في المنطقة الحمراء.^(١)

سوريا الساحلية؟

يا الله ما أبعد عام ١٩٦٦ عنّا! ربما يتذكرنا المعلم أبو سليمان، جدّ نزيه أبو عفش، بلّه لم يكن يذهب إلى «لبنان»، بل كان يذهب «قبلي»^(٢)، وربما يتذكرنا جدي صبحي عبد القادر البستاني عندما

لم يستقرّني شيء منذ زمن، بقلّ ما استقرّني ندفوة «مستقبل العلاقات السورية – اللبنانية» المنشورة في العدد الماضي من الأدب. ولأنّ المشاركين في الندوة سمويين ومحقّقون تحديداً، فقد هالني ما ورّدت من معلومات خاطئة وتركيب تحليلات سياسية بناءً عليها، وكأنّ اتّخاذ موقفٍ معارضٍ ضدّ نظام ما (هو هنا النظام السوري) يستدعي أوتوماتيكياً تبني مقولة «عدوّ عدوّي صديقي» في سياقٍ إطلاقيّ

ولحق كل ذلك، يصبح «عدوّ العدو» هذا نازلاً من المرتفع ومفصولاً عن التاريخ، بلا ماضٍ ولا تنطبق عليه قوانين التشوّه والتطور. بل ويصبح ضرورياً على «السوري» أن يلفّض صكّ برامته من «سوريته» وأن يزاوئ على المزاوئين حتى لا «يطلع برء» – لا خارج «لبنان» فقط (فهذا حاصل لا محالة) ولكن خارج «الوعي اللبناني» أو «الوعي بلبنان» الذي هو بالضرورة انعكاس للوعي بـ «سورية» والوعي بـ «فلسطين» والوعي بـ «الأردن» أي الوعي المزدوج بالقطر كمشروع وطني منفصل السياق عن التاريخ والجغرافيا وحتى المصلحة. وهكذا تتموضع هذه «المنظّمات» لا بصفتها امتداداً لبعضها لبعض بل بوصفها وحداد منفصلة، دول جوار، مثل «إسرائيل».

إنه وعي القطر ومشروع القطر، الذي تُحوّل الآن ليصبح شعار المرحلة وبرنامجها. وهو التدخل الأساسي لإعادة تشكيل الجغرافيا، التي هُلّ لها كوان يارل قبل الغزو الأميركي للعراق: تفكيك «وحي الوطن» إلى «وحي الكانتونات والبلديات» وتفكيك الإقليم إلى أطراف، وتقسيم هذه الأخيرة إلى هوامش وتركيبها جُميماً على المركز الوحيد: «إسرائيل».

♦ ♦ ♦

الفيلم: تذكّر (Memento)،^(٣) يبدأ هذا الفيلم، بخلاف المعتاد في الأفلام، من النهاية، وينتهي عند البداية. بطل الفيلم مصابٌ بمرض نادر: إذ لا تَحْتَفِظ ذاكرته بأيّ شيء إلا لفقائق، ثم تُضغفي الأحداث والأشخاص إلى الأبد. ولذلك فهو يُضمد إلى تسجيل الأشياء الهامة على قصاصات ورقية، ويصوّر كل شخص يلتقي بكاميرا الهولرويد، مسجلاً على وجهها الآخر اسم الشخص وانطباعه عنه. أما الحقائق «المُلقاة» في نظره، فيسجلها بالورشم على جسده، فلتبدأ، من البداية، إن.

♦ — كاتب وطبيب أسنان من الأردن، وتناشط ضد التطبيع والعودة الراسمالية.

١ — Memento، إخراج: كريستوفر نولان، بطولة: غاي بيرس وكاري أن موز وجو بانتاليانو، إنتاج سنة ٢٠٠٠.

٢ — نقلاً عن ناثر دوري، «إعادة تشكيل الشرق العربي»، كنعان (الطبعة الإنكليزية)، العدد ٦٧٢، أيار ٢٠٠٥، www.knemaonline.org/articles/00613.pdf.

٣ — نزيه أبو عفش، ١٦ سبتمبر الثاني: يوميات العارء، الأخرى، العدد ٣ – ٥، ٢٠٠٥، ص ١٠.

هزبة من دمشق إلى عمان عام ١٩٦٦، إنقاذاً لرأسه من الإعدام عبر مينائي بيروت وحيفا، بأن أحداً لم يستوفقه ليقول له «وين رايح» ولم يُطلب منه أي شواحيش جنودياً إيراً جواز سفر وتأميناً؛ وربما نتذكر أن ثمة عائلة كبيرة تسكن سهول حوران هي عائلة «الزعيبي» قسّمها المدعون ساكيس ويكوي إلى قسمين: أحدهما جاء حطه أسفل الخط وتحول لثقلاني إلى «اريني» (يتمركز أفرادها حالياً في مدينة الرمثا)، والقسم الآخر فوق الخط تحول مباشرة إلى «سوري» (يتمركز أفرادها في مدينة درعا)... مع أن القسمين عائلة واحدة.

فأرى هل زار أحكم الجامع الأزهر؟ فهناك غرف مخصصة للطالبي العلم أيام كان الجامع جامعاً، والطائفة يتوزعون فيها بحسب منطقتهم الجغرافية. سألت الدليل السياحي: «أين كان يُدرس الطلبة الأردنيين؟» فأجاب: «هناك في تلك الغرفة، إلى اليسار من باحة الجامع.» و«السوريين؟» سألت: «في نفس الغرفة.» أجاب: «أزادات دمشقية.» «واللبنانيون والفلسطينيون؟» أجاب دون أن يرفل له جفن: «في الغرفة ذاتها. إنها غرفة الشوام.»

♦ ♦ ♦

فلاش باك ٢: مقطع من تقرير لجنة كنج - كراين ١٩١٩/٨/٢٨. أفضح لهذه اللجنة أن الشعور العدائي نحو الصهيونية ليس قاصراً على فلسطين فحسب بل يشمل سكان سوريا بوجه عام؛ ذلك أن ٧٢ من المائة من مجموع العرائض التي تناولتها اللجنة في سوريا مضادة للصهيونية، ولم يكن مطلب نسبة أعلى من هذه النسبة سوى الوحدة السورية والاستقلال^(١).

الفيلم: «سجل شعب»^(٢) يظهر فيه محمد عزة دروزة لينتقرا بأن الحذر الأول للمؤتمر العربي الأول في مواجهة وعد بلفور وقرارات التقسيم كان أن فلسطين هي جزء لا يتجزأ من سورية، وأن المؤتمر يطالب باستقلال سورية ككل وكوحدة واحدة.

الآن لا أحد يتذكر. لا أحد يريد أن يتذكر. وشمة أجيال تريت على فكرة صهيونية تقول إن «فلسطين» أرض «متمجزة» عما حولها ومنذ الأول، وإن لا امتداد بين هذه الأرض وما حولها من مناطق. ثرى لصلحة من فصل جنوب سوريا عن وطنها الأم وإعلانها كياناً عابراً للتاريخ والجغرافيا؟

♦ ♦ ♦

فلاش باك ٣: من مقررات المؤتمر العربي الفلسطيني الأول، القدس (١٩١٩/٢/١٠ - ١٩١٩/٢/٢٠):

إن فلسطين هي جزء من سوريا العربية، وهي لم تنفصل عنها في أي وقت من الأوقات، ونحن مرتبطون بها برباط قومي وديني ولغوي وطبيعي واقتصادي وجغرافي. إن مقاطعة جنوب سوريا [أي فلسطين] يجب ألا تنفصل عن الحكومة العربية السورية المستقلة. ويجب أن تكون حرة من الحماية والهيمنة الأجنبية^(٣).

نُفّق في التفاهيل، وفي الاعلام الوطنية الكذّابة. لم «ننعمي» حين تضيق العبارة وتوسع الرؤية (سلطها الرؤيا)؟ راجع، راجع بمنز، راجع لبنان؟ «اعتقدون أن ذلك سيحقّق بمرء أن يحط عن على أرض بيروت قادماً من بلاد مستعمرية السابقين ليجبّع بأن «التحرير» قد تحقق في الكونغرس الأميركي ومجلس الأمن بقانون محاسبية سورية والقرار ١٥٥٩، وإن مقتل الحريري لم يفعل شيئاً سوى أنه «سرع» هذا التحرير»^(١)! ما هو عون بإشارة مباشرة يبلّنا على المستفيد الأول، وربما على الفاعل، وما هي جثة الحريري تحول إلى معيّة لحلفاء - فراقاء - طائفتين وفاشدين واشتراكيين وديموقراطيين ورأسماليين وحلفاء لإسرائيل وحلفاء أميركا وحلفاء فرنسا، كل ما يجمعهم هو عدوهم للذاكرة، ذاكرة الحرب، ذاكرة تحالفاتهم السابقة والحالية، ذاكرة الدماء التي ما زالت ساخنة على اتصال الفؤوس والسكاكين، وذاكرة الوطن ... لا الحظر.

«لكني لا تنسى» والارواق تتوالى على شاشة تلفزيون «المستقبل» لأه في اللحظة التي ستوقف فيها هذه الارواق خسر دقائق متوالية، سيُفقد الجيل الذاكرة، وسيُنسى كيف يقوم حزب البعث «الاشتراكي» بالسمي إلى الإفرنج عن سمير جمعة، وإلى التحالف مع تيار، وسيُنسى كيف أن أصحاب قناة المستقبل وتيارهم يتحالفون هم أيضاً مع الفاشية الطائفية. وسيُنسى من وقف امام الكونغرس ليستقوي بالغريب ويتمّ زواج الاستبضاع. وسيُنسى محتفل الخبايا وصيحات الألم التي كانت تؤرق أهالي الضيعة المجاورة. وسيُنسى قانا، وسيُنسى صبرا وشاتيلا. وسيُنسى وسط بيروت بالأرض، لنثفّش ذاكرة جديدة باريسية. وسيُنسى حجة البيربرك إلى واشنطن. وسيُنسى عملاً مساكين وموا إلى حقلهم من فوق بنايات شيلوها يعرفهم.

نسي حسين السودات كل ذلك، وأصبح تصالّف الراسمال مع الطائفة والفاشية حركة احتجاج ديموقراطية أصيلة^(٢)، وبني ميشيل كيلو كل ذلك، مصحّحاً ب «أن الكلام الذي قيل بلسان المعارضة اللبنانية أذكّ أنها لا ترى نفسها في السياق الأميركي»^(٣)، وإن أميركا ليست وراء الديموقراطية الفلسطينية واللبنانية^(٤) (لغة ديموقراطية ديموقراطية الطوائف والمليشيات والاحتلال).

«السوري» حسين السودات يصف ما يجري بأنه «عودة لبنان إلى لبنان»^(٥)، بينما «السوري» ميشيل كيلو يصيح أكثر تشاؤماً بعد مظاهرة تبليد المقاومة (٨ آذار) لأنه استنتج أن الجيش السوري سيصبح حقاً «لكن سوريا لن تنسحب». هكذا إذا: لا يُجسّك انشعاب الطيف الحاكمة الفلّرية وادواتها الأمنية، بل تريبون أنفكاً شاملاً شعبياً/مجتمعيًا/اقتصاديًا، وانسحاب سوريا من سوريا وعودة لبنان إلى ذاكرة مختزعة والمعلم أبو سليمان، جدّ نزيه أبو عشق؟ ربما أن أرنّ اللثام من فوق إحدى بنايات السوليدير إلى حقله الجميل.

١ - مكتب السجلات العامة - لندن، رادة في سجلات «الذكاة» في موقع الهيئة العامة للاستعلامات <http://makba.sis.gov.ps/index.html>

٢ - «سجل شعب»، سناريو وإخراج فيس الزبيدي، إنتاج منظمة التحرير الفلسطينية.

٣ - <http://www.aqsa.org.uk/chapterContents.aspx?id=44> نقلاً عن: A.W. Kayyali, Patestine - A Modern History, pp.60 - 3

٤ - «المستقبل»، الأحد ١ أيار ٢٠٠٥.

٥ - «ثورة مستقبل العلاقات السورية - اللبنانية»، الإحباب ٣، ٥، ٢٠٠٥، ص ٢٥.

في مثل هذه الأيام من القرن الماضي، كانت الدولة القومية قيد التشكل، لا يفعل السياسة والشاعر والشعاعرات، بل بالمفهوم للمادي، وأعني: تشكّل السوق القومية. وكانت عائلات التجّار والمثقفين تعتمد إلى خارج المركز الشامي لتستقر في الأطراف، ولتلتقي أنفاق التجارة معها، فيتبادل أحد أهم أركان نشوء الدول القومية. وحتى هذه اللحظة تستطيع أن تجد أحفاد هؤلاء التجّار في بيروت وأربيد وجرش والكرنك ونابلس، وصمّو إلى معان التي تنقسم حتى اليوم إلى حارتين: الحارة الشامية والحارة السجانية. وتتكاثر شبكة التجارة بين عرب الشام وعرب الحجاز إلى الجنوب والعراق إلى الشرق. ونحن الآن، بعد قرن من الهزائم والإحباطات، أصبحنا نتحدث عن انسحاب سوريا من سوريا وعودة لبنان إلى لبنان، ويقارن عمر أمير لاني سورية بالانتداب الفرنسي ويقول إن حزب الله هو «وکیل الانتداب السوري» [١]؟

أين هي ماركيككم أيّها اليساريون الديموقراطيون؟ لكنّ حركة اليسار الديموقراطي في لبنان تصرّح: «إننا ماضون في معركة انتزاع القرار الوطني اللبناني المستقل. وسننجز في ذلك، كما نجتهد من قبلنا القيادة الوطنية الفلسطينية، وعلى رأسها ياسر عرفات، في رفض مقولة فلسطين جنوب سوريا، وخصّفت في معركتها لاسترجاع فلسطين» [٢]؟

♦ ♦ ♦

فلاش باك ٤: فلسطين، في المفهوم الشعبي العربي قبل اختراعها:

• من قرارات المؤتمر السوري العام (١٩١٩/٧/٢): «نحن المؤمنون إيداعاً أعضاء المؤتمر السوري العام المجتمعين في دمشق في الثاني من تموز عام ١٩١٩، وللوفدين من مندوبي مناطق سوريا الثلاث وهي المناطق الجنوبية والشرقية والغربية .. أولاً: إنّنا نطالب بالاستقلال السياسي الكامل والمطلق لسوريا ضمن الحدود التالية: من الشمال، سلسلة جبال طوروس. من الجنوب، الخطواصل من ريف إلى الجوف، متّصلاً للحدود السورية الحجازية أسفل العقبة. من الشرق، الحدّ للشكل من نهري الفرات والخابور، والخط للمقد من مسافة شرق أبو كمال إلى مسافة شرق الجوف. ومن الغرب، البحر الأبيض المتوسط .. سابقاً: إنّنا نرفض الأنعامات الصهيونية لتأسيس دولة يهودية في ذلك القسم من جنوب سوريا المسمّى فلسطين، ونحن نمارض

أيّ هجرة يهودية إلى أيّ جزء من أجزاء البلاد. ثامناً: إنّنا نطالب بأنّ لا يكون هناك أيّ تقسيم لسوريا، أو أيّ فصل لفلسطين أو المناطق الساحلية الغربية أو لبنان عن الدولة الأمّ، ونطالب بالحفاظ على وحدة البلاد تحت كل الظروف.» [٣]

• من قرارات المؤتمر الثاني للوطنيين العرب في فلسطين (١٩٢٠/٢/٢٧): «إنّ آمالي سوريا الشمالية والساحلية يُعتبرون سوريا الجنوبية [فلسطين] قطعة متّصلة لسوريا» [٤]

• من مذكرة الجمعية الإسلامية - المسيحية في يافا (١٩١٩): «وأعجب من هذا أنّ فلسطين المسكونة التسعة المكوّنة الخطّ صارت العوبة بيد السياسيين تتنازل كما شأت لهواؤهم. فإنهم لم يكتفوا بتصريحاتهم بوجوب إعطاء فلسطين لليهود، بل جعلوا يقترحون اقتراحات لتجرّب لنا على [سليخ] الشعب العربي الموجود في فلسطين عن سورية وجعلها وحدة سياسية منفصلة - ولعمري لا ندري ما هي الوحدة المنفصلة - تحت إشراف إنجلترا. فيكونون باقتراحاتهم هذه أولاً: قد أعطوا فلسطين لليهود. ثانياً: جرّأوها وسلخواها عن سورية، وبأسلخها قلّ عددها وكثُر عدّ اليهود وأصبحت لهم الأكثرية في كل شيء.» [٥]

• من مذكرة الجمعية الإسلامية - المسيحية (١٩١٩/٨/٢٠): «في مكاتباتنا السابقة ظلّنا عدم فصل فلسطين عن سورية، واحتجّجنا على ما يُدعى من تحويل فلسطين إلى وطن قومي لليهود. وعندما زارت اللجنة الأميركية هذا البلد تأكّد لديها أنّ جميع سكان سورية، من الجنوب إلى الشمال، يؤيّمون بالإجماع قبول الحركة الصهيونية. ونطلب عدم فصل فلسطين عن سورية بحال من الأحوال.» [٦]

لأنّنا ننسى، ولأنّ الفيلم يريد أن يُلغّينا بأنّ «البدائية» هي الأساس، وبقائنا لسنا بل تاريخ، فإنّ علينا أن نسجل كلّ ما ورد أعلاه والوشم على أجسادنا، علّنا نتذكّر يوماً بأننا لم نأت على ظهر صحن طائر، ولم ننظّر داخل أدوية مخبرية في قنبر أسود، من هو، إذن، الذي يهيمّ خارج التاريخ؟ ومن هو اللاواعي؟ ومن هو الذي «يفضل» من أجل محو ذاكرته ليؤدّد من جديد متطهّراً من آثار العروبة والجغرافيا... ولتاريخ؟ إنحن حرقى إلى هذه الدرجة؟ «الفرّ السوريون» هم نحن جميعاً يا صديقي نزيه أبو غوش... نحن جميعاً.

عمّان

١ - فترة «مستقبل العلاقات السورية - اللبنانية»، الأرباب ٢، ٥، ٢٠٠٥، ص ٢٥

٢ - وازد في سماح إدريس، «كي لا يكون الاتي اعظم»، المصدر السابق، ص ٢٧.

٣ - من قرارات المؤتمر السوري العام، ١٩١٩/٧/٢، وهو البرّان السوري المنعّد أثناء إدارة الأمير فيصل، <http://www.aqsa.org.uk/chapterContents.aspx?db=46>

نقلًا عن: George Antonius, *The Arab Awakening*, pp. 440-2.

٤ - من قرارات المؤتمر الثاني للوطنيين العرب من فلسطين، والمنعّد في دمشق في ١٩٢٠/٢/٢٧، نقلًا عن: عيسى المسفرى، *فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية*، ص ٢٤، واردة في سجلّات «الكتبة» في موقع الهيئة العامة للاستعلامات <http://nakba.sis.gov.ps/index.html>

٥ - من مذكرة الجمعية الإسلامية - المسيحية في يافا إلى الجنرال ولسن، المدير العامّ للبلاد، حول الهجرة والغزوايا الصهيونية في فلسطين، يافا ١٩١٩. مكتب السجلات العامة - لندن، واردة في سجلّات «الكتبة» في موقع الهيئة العامة للاستعلامات.

٦ - من مذكرة الجمعية الإسلامية - المسيحية إلى الحاكم العسكري البريطاني بالقفس يرفض فكرة الوطن اليهودي وفصل فلسطين عن سورية. القفس - ١٩١٩/٨/٢٠، نقلًا عن: *يقظة العرب* لجورج انتوپويس، نقلًا عن كتاب *مارك سايكس: حياته وسياساته* لفرانز لاني، واردة في سجلّات «الكتبة» في موقع الهيئة العامة للاستعلامات.

مقتل فرج الله الحلو: لمصلحة من فتح الجراح؟ رجاء الناصر*

في أوقات تحالفهم مع ديكتاتور العراق عبد الكريم قاسم؛ ويشهد قطار الموت الذي ساقوه إلى الموصل على شناعة ممارساتهم الإرهابية، من سحل وتعليق للجثث على أعمدة الكهرباء وغير ذلك. والأمر ذاته تكرر عندما تمكن الشيوعيون من حكم الشمل الجنوبي في اليمن؛ وبسبب التواريخ عمليات القتل والإعدام الوحشي التي طاولت خصوصتهم من الناصريين والقوميين، كما طاولت رفاههم في لحظات الصراع الدموي على السلطة. والأصوليون الإسلاميون مارسوا القتل والتعذيب عندما أمسكوا بالسلطة في السودان وإيران، وقبّل ممارستهم السلطة في مصر والجزائر واليمن وسورية. وكذلك الأمر بالنصبة إلى اليعتبيين في العراق وسورية. وفي مصر مورست أساليب القمع، بما فيها في العهد الناصري، فاعتقل خصوم وعُذِّبوا وأُعدم البعض. ولا أريد أن أجري مقارنة بين حجم القمع من قبل الجميع ولا مبرراته؛ ذلك لأننا جميعاً نستمكن القمع مهما كانت مبرراته ومهما كان حجمه، وهو استنكار ناجم عن وعي اكتسبناه عبر التجربة والممارسة.

الخلاصة الأساسية هنا أنّ ما مارسه القوى السياسية لم يكن تضامناً ضد الاستبداد، بل من أجل أفكار وسياسات مختلفة. فقد ناضل الناصريون من أجل الوحدة، وناضل الماركسيون الشيوعيون من أجل إقامة نظام اشتراكي شيوعي، وناضل الإسلاميون من أجل ما يؤمنون أنه دولة الإسلام. واستشهدوا أو قُتلوا وعُذِّبوا في سبيل هذه المبادئ.

فإنهيا: لماذا نُرحل اليوم، وفي وسائل إعلامية مختلفة، قصة مقتل فرج الله الحلو؟ وهل طرح المسألة اليوم، وبهذه الطريقة، محاولة لتنظيم المقاومة ضد الاستبداد، أم هي إنكسار للخلافات بين التيارات التي تقول بأنها معادية للهجمة الأميركية - الصهيونية؟ بإمكان الناصريين أن يستعرضوا تضحيات شهدائهم الذين قُتلوا على يد الحزب الشيوعي في العراق وفي اليمن الجنوبي (وهم أكثر بكثير من ضحايا الأنظمة الوطنية، من شيوعيين وغيرهم...)، بإمكانهم أن يُغضبوا كثيراً في إرهاب الحركة الشيوعية والديموقراطية وفي منهجها العنفي. كذلك يمكن أن تفتح معاركهم مع الإسلاميين بسبب معاركهم مع التيار القومي، أو مع التيار الماركسي. ولكن ما هي النتيجة المستفادة من هذا السجال، سوى استحضار حروب داحس والغبراء، وليكون العدوّ الخارجي هو المستفيد الوحيد؟

لقد تطوّر الفكر الناصري، وتطوّرت أفكار الكثيرين من الشيوعيين والإسلاميين، باتجاه تعميق الديمقراطية - لا باعتبارها حقاً

من حقّ لرفاق فرج الله الحلو أن يُجبروا نكرهه في كل مناسبة، وأن يدفعوه إلى مرتبة القداسة، وأن يتحدثوا عن مزاياه ومناقبه، وعن معاناته وتضحيته بحياته من أجل ما يؤمن به. وهذا الحق لا يقتصر على رفاق الحلو وأعضاء حزبه، وإنما يشمل جميع القوى والتيارات السياسية التي قُتلت ضحايا وشهداء، وتمرّضت للتكثير والاضطهاد من قبل الآخرين؛ فالتيار الأصولي الإسلامي تعرّض أعضائه وقادته للتعذيب والقتل على أيدي خصومهم؛ والسوريون القوميون الاجتماعيون أعدم قائلهم أنطون سعادة تعرّضوا لمحاولات التصفية السياسية والجسدية؛ والناصريون تعرّضوا لعمليات تعذيب وقتل وإعدام على امتداد الوطن العربي. ولكن حتى يستقيم النقد ويعطي ثماره، فإن علينا ألا نمارس الانتقائية في النقد أو في نقد النقد، وإنما يجب أن تتسع دائرة نظرتنا لتشمل العمل السياسي برشته، لا أن تقف عند زاوية معينة. ذلك أن أجزاء الحقيقة لا يُمكن أن تكون حقيقة في مطلق الأحوال، بل يُمكن أن تكون تشويهاً للحقيقة.

وفي محاولة البت من الحقيقة الضائعة في مقتل فرج الله الحلو أحسب أنه من الضروري أن نتوقف عند مجموعة من المسائل:

أولها: هل قُتل فرج الله الحلو، وبعده سيّد قطب، وكثير من النشطاء القوميين والوطنيين والإسلاميين واليساريين في مرحلة الصراعات السياسية خلال النصف الثاني من القرن الماضي، وتحديدًا في عقود الخمسينيات والستينيات والسبعينيات، من أجل الديمقراطية وفي مقاومة الاستبداد؟

علينا أن نتعرف جميعاً أنّ جميع الأنظمة والمنظمات السياسية التي نشطت في تلك المرحلة لم تكن تؤلّي مسافة الديمقراطية اهتماماً جدّياً، بل كانت جميعها شمولية في الفكر والممارسة - وفي المقدمة منها الأحزاب الشيوعية، والقوى الأصولية الإسلامية، والأحزاب القومية الثورية.

فالشيوعيون تمكّنوا عقيدتهم بـ «نكتاتورية البروليتاريا»، بكلّ ما تُشعّله من إغمار للآخر، بعيداً من كون الآخر يمثل الأغلبية. والتيار الإسلامي قالت معظم قياداته بتكثير المجتمع والحكم بارتداده، بما يُشعّله هذا الارتداد من مغويات القتل والإبادة. والأحزاب القومية الثورية قالت بالحرية للشعب، وولّاه حرية لأعداء الشعب الذين يعلّمهم «تحالف الإطعام مع الرأسمال المستغلّ»، والذي انضمت إليه قوى تُشعل لمسبب الخارج.

وفي الممارسة كان الاستبداد والإرهاب والاضطهاد عنوان تطبيق الأفكار، إذ تبادل المضطهَدون ومضطهِدوهم الأدوات: فالشيوعيون مارسوا أشنع التصنيفات الجسدية ضدّ خصومهم

* كاتب سوري ناشط في مجال المظالم، وناهضة التطبيع، وبعم الانتفاضة والمقاومة العراقية.

• تعليق الأرباب يُعرف الأستاذ الصغير رجاء الناصر أنّ هدف الأرباب كان، وسيمضي، محاولة إنكسار الحوار (لا الخلافات) بين التيارات الفكرية، ولاسيما القومية والماركسية، بهدف إنعاش تصوّر خلا لـ «عروبة جديدة» ويسار عربي جديد. • الأستاذ جورج حداد، كاتب لغال الذي يرد الأستاذ الناصر عليه (الأرباب ٧/٨/٢٠٠٤)، هو من ضمن هذا التوجّه بالتأكيد.

للاغلبية فقط وإنما باعتبارها حصناً للأقلية أيضاً. وتعرّبت قديمٌ تدينس حقوق الإنسان لدى معظم هذه التيارات، وهو تطور إنساني خلاق من المفيد أن تتعاون جميعاً على تعميقه. أما الحديث عن الشفافية والاعتراف بالأخطاء، فهو ضروري، ولكنه مطلوب من الجميع بعد كشف الحقائق المريرة؛ وإلا فلا الشفافية تصبح اندك سارة تخفي عقليّة الثأر والانتقام والحق ولا تتجاوزها.

ثالثها: ما هي الحقيقة وراء مقتل فرج الله الحلو؟

للحقيقة أوجه مختلفة وسط روايات متعبدّة يقيم معظمها على التخمين والاستنتاج. فالحقائق المريرة تقول إنّ فرج الله الحلو اعتُقل في سورية، ولم يُختطف من لبنان؛ وإنّه كان يُشمل اسماً مستعاراً؛ وإنّه جاء إلى سورية من أجل الإشراف على تنظيم الحزب الشيوعي الذي خاض صراعاً ضدّ الوحدة؛ وإنّ أجهزة الأمن ألقت القبض عليه ضمن مداماتها لمحايي المتوارين من أعضاء الحزب؛ وإنّه أُجبر التحقيق معه للكشف عن هويته وعن بعض المطلوبين؛ وإنّه مات خلال التحقيق؛ وإنّ الذين أداروا التحقيق خافوا من تبعات موته فعملوا على إخفاء جثته. طبقاً هذه الوقائع مثله بعد ذاتها وغير مقبولة، ويمكن اعتبارها أخطاءً من الأجهزة الأمنية تجب محاسبة القائمين عليها في حدوث ما ارتكبهوا. أمّا كلّ ما أُضيف من روايات فهو مجرد أقاويل أو استنتاجات. فرواية فصائل الحزب الشيوعي، أو بعض رفاق فرج الله، من أنّه استُدّرج إلى دمشق، لا دليل عليها سوى تحليل سياسي يعبر عن وجهة نظر تيار سياسي؛ وقد نُسب الاستدراج (في مقالة جورج حداد في الآداب ٨٧، ٢٠٠٤) إلى عنصر في الحزب الشيوعي شكك هو نفسه في هذا السور ونفا، الأمر الذي جعله بغير دليل حقيقي.

أما الجزء الثاني من الرواية، وهو أنّ هناك قراراً مسبّقاً باعتقاله وتصفيته من قبل النظام الناصري، ومن قبل جمال عبد الناصر شخصياً، فلم يوجد من يدعمه إلى الدرجة أنّ الراوي [كاتب المقال في الآداب] عاد ليضعها في باب الاحتمالات!

وأما الجزء الثالث، وهو أنّ المحقّقين استخدموا معه أسلوب التعذيب حتى الموت، فهو أيضاً استنتاج يتعلّق بالروايات، مستفيداً من حالة الوفاة ذاتها. ولكنّ ماذا أمام الرواية الأخرى التي تقول بأنّ فرج الله الحلو كان مصاباً بداء قلبي، وإنّ المحقّقين معه لم يكونوا يُقرّون هذه الحقيقة، وإنّ المجموعة التي حقّقت معه ومات أمامها ارتبكت لسحب هذه الواقعة التي لم تعتدّ عليها، وإنّها عملت على طمس ما حدث بناءً على تعليمات قائدها المباشر، وإنّ هذا تمّ بدون معرفة القيادة؟ هذه الرواية جاءت خلال محاكمة تعرّض لها العناصر الذين مات فرج الله الحلو بين أيديهم بعد الانقلاب على الوحدة ومن قبل خصومها، الأمر الذي يجعلها رواية أكثر عرضةً للتصديق عند عرض الروايات المختلفة... رغم أنّي شخصياً لا انحاز إلى رواية معينة كما يفعل بعض رفاق فرج الله الحلو.

رابعها: للنّاخ الذي تمّ فيه اعتقال فرج الله الحلو، ومن ثمّ موته خلال الاعتقال.

يُعرّف كاتب المقال، وكثير من رفاق الحلو، أنّ الحملة التي تعرّض لها الحزب الشيوعي السوري جاءت بسبب مواقف الحزب الشيوعي من الوحدة ورفضه حلّ الحزب. ويُعرّف أيضاً بأنّ الاتحاد السوفياتي تحالّف مع الغرب ضدّ الوحدة العربية ودولة الجمهورية العربية المتحدة؛ وبأنّ الحزب الشيوعي السوري اندك كان مرتبطاً بالحركة الشيوعية العالمية؛ وبأنّ مواقفه الداخلية كانت متأثرة بالمواقف الرسمية السوفياتية.

إنّك، الشيوعيون السوريون في تلك الأيام وقفوا في صف واحد مع أعداء الوحدة، الذين نفّذوا الكثير من المؤامرات عليها منذ اللطائف الأولى لقيامها، وتحولّت إذاعة بلغاريّا إلى صوت لأعداء الوحدة (وسامح لنفسني بأنّ أشطب كل الانتقادات التي تتعلّق بالديمقراطية من الخطاب الشيوعي، لتناقضها التام مع الفكر الشيوعي في تلك المرحلة). وما يقال عن وجود تيارات معارضة للقيادة البكداشية والسوفياتية لا يمكن يُحمل مصداقية أو جديّة في ذلك الحين؛ ذلك أنّ الخلاف حول تلك المسائل كان سرّاً لا معطاً (على افتراض وجوده) - وهو ما يرفضه الالتزام الحزبي في الأحزاب العقائدية المنبئة على النظرية اللينينية للحزب. وهذه الخلافات لم تُظهر إلاّ في مرحلة متأخرة، وتجلّت عبر انتقاسات حادة في نهاية عقد الستينيات تطرّقت إلى مواقف الحزب من قضيتي فلسطين والوحدة العربية.

خاصتها: مسؤولية النظام الناصري. امتدّ الرئيس جمال عبد الناصر، ضمن ما امتدّ به، بمصنّفين استراتيجيّين اختلف بهما عن معظم أقرانه (١) استعداده لتحمل المسؤولية لا عن أعماله فحسب وإنما عن مهمل النتائج المرتبطة بحكمه أيضاً. وكانت الصورة الأكثر دلالاً على تحمل المسؤولية هي موقفه الرسمي والمعلن من نتائج حرب حزيران ١٩٦٧، حين رفض أن يحمل المسؤولية لغيره ممّن هم أدنى مرتبة منه، أو حتى أن يشارك بغيره بها. (ب) قدرته على الاستفادة من الأخطاء والعثرات وتحويلها إلى مرافق إيجابية، وممارسته النقد الذاتي في محطات مختلفة من حياته، وهذه قدرة ساعدته على التجديد المستمرّ والارتقاء بعمله السياسي والوطني، وعدم تحوّل ثورته إلى وضعية محافظة جامدة.

إنّ ذلك الاستعداد لتحمل المسؤولية والتعام من التجربة عبر الممارسة ساعد على استمرار العلاقة بين القيادة الناصرية والشعب، وعلى التطور وخصوصاً في مجال الديمقراطية. وهذا ما جعل عبد الناصر في وضع متقدّم في جميع معاصريه، من قوى وحركات وأحزاب. وقد أسهم ذلك لاحقاً في تملك الناصريين وعياً مسبقاً بأهمية الديمقراطية ومكانتها في النضال الوطني القومي، فاستطاعوا عبر هذا الوعي النقدي قراءة التجربة الناصرية وتطويرها لتصبح الديمقراطية وحقوق الإنسان جزءاً أساسياً في الفكر الناصري.

إنّنا جميعاً نحتاج إلى إعادة قراءة التاريخ. ولكنّ القراءة المطلوبة ليست استنساخاً للماضي، ولا نسخاً عن تلك الغامض التي سيطرت علينا في مرحلة سابقة متأثرين بالفكر الشمولي الاستتصالي. وإنما المطلوب قراءة جديدة يعقّبتنا الرهانة التي يُقرّض أنّها تملكّت وعياً ديمقراطياً تأسس على قناعة بأنّ

بجميع تياراتنا ضدّ الهجمة الصهيونية - الأميركية، وعلى البحث عن كلِّ ما يعزّز عوامل الوحدة - لا التناحر - بين تيارات الأمة الوطنية الديمقراطية.

دمشق

الحرية مقدّسة ولا يجوز التنازل عنها أو تجاهلها لأيّ سبب؛ وعياً بقوم على أنّ الحقيقة في العالم الإنساني نسبية لا مطلقة. إنّ من شأن مستقبل أفضل لأمتنا يقوم على قدرتنا على الوحدة

تمة الافتتاحية ص ١

عزاونا

كان جورج حاوي أباً لنا، نحن من بدأنا خربشاتنا والسياسة في العشرينات من أعمارنا، عشاقاً فلسطين والكادحين. كانت خطبته، وصورته، وبنائه العالية، ورفعة عُمره عند إعلان «الموقف الصحيح»، ولقنه التي تتفجّر بها عروق وجهه ورقبته، تلهمنا جميعاً، أثناء الاجتماع الإسرائيلي عام ١٩٨٢، في كلِّ ما فعله: قتالاً (رحم الله رفيقنا وعصام)، أو حراسة، أو تدرباً على حمل السلاح، أو تحصيناً للمنازل، أو إسعافاً للجرحى، أو توزيعاً للطعام والماء على مقاتلي القوات الفلسطينية - اللبنانية المشتركة (الله يا زمان!) عند كافة الثغور المتقدّمة في مواجهة جيش شارون.

ومن خسارنا في أيلول ١٩٨٢ استلّ جورج حاوي سلاح النصر، فأطلق مع محسن إبراهيم (أمين عام منظمة العمل الشيوعي) «جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية» ضدّ الاحتلال الإسرائيلي لبيروت ولبنان عامة. واليوم، وبغض النظر عمّن قتل الشهيد جورج حاوي، فإنّ أبا أنيس يبقى، دون أدنى ريب، أعظم شهداء المقاومة الوطنية اللبنانية التي تكبّلت بالنصر في ٢٥ أيار ٢٠٠٠ - وإنّ بقيادة لبنانية وطنية أخرى.

ولكنّ في خضمّ المقاومة، في الجنوب والجبل، وهنا وهناك، بدأ الاستياء يتسرّب إلى نفوسنا. وكان أوّل ما أغاظنا مفهوم «الطائفة الوطنية» الذي فبركه الشهيد جورج حاوي أثناء حرب الجبل ضدّ القوات اللبنانية، في أوائل الثمانينيات. طائفة... وطنية، رُحنا نتساءل، كيف ذلك؟ وبعد تنازل حاوي عن قيادة الحزب الشيوعي، توالّت المفاجآت المفاجئة والمتعدّدة الأبعاد على أطراف وأنظمة عربية لم تحظ يوماً بفتنتنا. إلى أن صَحَقَ بتقاربه الأخير مع «قرنة شهوان»، الطائفة التكوينية والأهداف، بحجة «المصاحبة الوطنية» التي نظّرها الشهيد جورج، وبالماركسية أحياناً، في حين لم نرّها إلاّ سعيّاً إلى تجديد دماء الطبقة السياسية السائدة ببعض «المعارضين» على حساب الشباب الطامح إلى التغيير الجذري، ولم نعتبرها إلاّ إنفاقاً لكونها لم تتركز إلى نقد ذاتي حقيقي يبرّر صدقيّة مختلف أطرافها المتحوّلة! وكان آخر ما صدّنا من مواقف الشهيد حاوي، نحن الذين مازلنا متمسكين بمفردات اللغة «الخشبية» مثل «فصل الدين عن الدولة» ما طلع يده عشيّة اغتياله ونشرت الرأي العام الكويتية، حين صرّح بالآتي: «عاشى المسيحيون في لبنان منذ [مؤتمر] الطائف حالة تهميش، ومرحلة هيمنة فعوية على حسابهم... لقد تمّ تنصيب ممثلين مزيّفين عنهم في السلطة وفي المجلس النيابي، لولا قلة من الضمّاء في إطار قرنة شهوان يستغلّون عمالة البطيريك [١] ويستلهمون بيانات المطارنة [٢]

أيّا يكن الأمر، فإنّ المقاومة العربية، باستشهاد قصير وحاوي، تفجّع اليوم بائنين من مداميكها الأساسية. عزاونا أن نُكَمِّلَ درب الحرية التي استشهدنا من أجلها، وأن نحرّل بفكرهما النقديّ إلى آفاق أوسع وأكثر جذريّة. وعزاونا أيضاً أن نتذكّر أنّ استشهاد المثقفين والمقاومين الأحرار لن يوقف المقاومة بمختلف أبعادها، وإلاّ لكانت تولّقت بعد اغتيال سعادة وغسان وكمال ناصر وكمال جنبلاط ورياض طه وماجد أبو شرار وحسين مروّة ومهدي عامل وصبيح الصالح وناجي العلي وفرج فودة والعشرات الآخرين. ثرى، ألا تكفي هذه الحقيقة، حقيقة مواصلة المثقفين والمقاومين لرسالتهم مهما غلّت التضحيات، لكي يفكّر المجرم مرتين قبل أن يزرع عبوة جديدة في سيارة مثقف أو مقاوم جديد؟

سماح إدريس
بيروت

حسن داوود لُعْب حَيِّ البَيَّاض

رواية



«رَبَّنَا، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أَعْطَى لِكُلِّ مَخْلُوقٍ شَيْئًا يَحْمِي بِهِ نَفْسَهُ. أَعْطَى الْبَقْرَةَ قَرِينَ لِنَتَلَحَّ بِهَمَا كُلٌّ مِنْ يَأْتِي لِيُوْذِيهَا. وَأَعْطَى النَّحْلَةَ إِبْرَتَهَا الَّتِي تَوَلِّمُ حَتَّى أَكْبَرَ الْأَجْسَامِ. وَأَعْطَى الْفَقْعَةَ مَخَالَبَ، وَالْجُرُودَ أَيْهَابًا... اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْطَى لِكُلِّ مَخْلُوقٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ شَيْئًا يَحْمِي بِهِ نَفْسَهُ، إِلَّا أَنَا، فَقَدْ خَلَقْتَنِي هَكَذَا بَلَا مَخْلَبَ وَلَا إِبْرَةَ وَلَا شَوْكَةَ.»

حسن داوود روائي لبناني. صدرت له روايات عدة كانت أولها بناية مائيلد. كما أصدر مجموعتين قصصيتين. تُرجمت أعماله إلى لغات عدة. ويعمل الآن مديرًا لتحرير ملحق «نوافذ» الصادر عن صحيفة المستقبل.

شهيذان من أجل التحرُّر والحرية



سمير قصير

جورج حاوي



... يتوجَّب على الداعين إلى إنهاء الوصاية السورية أن ينتهوا أكثر إلى بعض المفردات والمفاهيم. فحذار مثلاً تحريك العنصرية اللبنانية «العادية» حبال العمال السوريين. وحذار التلذُّذ بادِّعاءات التفوُّق الحضاري، خصوصاً عندما تكون في بلد صنَّع مجازة الحضاري. أي الثقافي والفني والاقتصادي والمعرفي، سوريون... ٦
سمير قصير، ٢٠٠٠،

ديمقراطية سوريا واستقلال لبنان، ص ١٠٩

... إن أميركا وإسرائيل لا تريدان لبنان بلداً موحداً مستقلاً حراً سيّداً وديمقراطياً.
إن أميركا وإسرائيل ستابعان تنظيم الدسائس والمؤامرات لتفرقة شعبنا وتقسيم بلادنا وتجزئتها، تأميناً لسيطرة مديدة ليمسا على لبنان، وعبر لبنان على سائر الأقطار العربية المجاورة... ٦

جورج حاوي ومحسن إبراهيم،

١٦ أيلول ١٩٨٢، غداة انطلاق

«جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية»

ضد الاحتلال الإسرائيلي



ب: ٩٦/١٦٨
P: 168/96

بريد جوي
Air Mail

AL ADAB

Arabic Cultural Review Since 1953

P.O.Box 11- 4123

Beirut - Lebanon

Post Code 1107 2150

Tel/Fax: (01) 795135 - 861633

(03) 381349

d.aladab@cyberia.net.lb

www.adabmag.com

الآداب

مجلة ثقافية عربية منذ ١٩٥٣

ص.ب.: ٤١٢٣ - ١١

بيروت - لبنان

الرمز البريدي: ١١٠٧٢١٥٠

هاتف: ٧٩٥١٣٥ (٠١) - ٨٦١٦٣٣ (٠١)

٣٨١٣٤٩ (٠٣)

فاكس: ٨٦١٦٣٣ - ١ - ٠٩٦١